

دراسات في الحضارة الإسلامية

بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري

المجلد الثالث



Bibliotheca Alexandrina



0003207

دراسات في الحضارة الإسلامية

(بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري)

• ١٨٢

المجلد الثالث



المكتبة الوطنية والارشيف

١٩٨٥

تصميم الغلاف
سميرة المرصفي

الاخراج الفني
راجيه حسين

القيم الإسلامية

اعداد الشيخ / محمد عبد الواحد أحمد

مدير المركز الاسلامي بدار السلام

و عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجمهورية مصر العربية

كما خلق الله الانسان في أحسن تقويم وصوره على أكمل صورة أبدعتها
قدرة الخلاق العليم وكلفه بالخلافة عنه في عمارة هذا الكون العظيم وشرفه
بالخطاب في كتابه الحكيم ووعد بالخلود في دار النعيم اذا استجاب لفطرته التي
فطره عليها من لسان يشهد بتوحيده وقلب يؤمن بالوحيته وجوارح تتحرك في
طاعته - كما أراد الله للانسان هذا الخلق السوي لم يرض له كذلك الا الخلق
الرضى الذي يواكب رحلته الدنيوية الى مستقره في دار الخلود .

ولو شاء الله أن يترك هذا الانسان لعقله واستهدى كل انسان عقله بحكمة
وتبصر دون ميل الى هوى النفس ونزعات الحس لما لبفطرته الى أحسن الأخلاق
بفطرته المستقيمة . ولكنه تبارك وتعالى أعان هذا العقل بالشرائع الهادية
متضمنة أشرف الأخلاق وأحكم المناهج التي تجمع بين العبادات طريقا الى مرضاة
الله وأحسن العادات وسيلة لطيب العيش في هذه الحياة .

ولقد أجمعت كل الشرائع على ضرورة تزكية النفس بمحامد الأخلاق واعتبار
ذلك متما لعقيدة التوحيد ولزم كل الأنبياء عليهم السلام هذا المنهج الالهي
الرشيد حتى جاء خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه بشريعته الخالدة وقد
ضمت شتات محاسن الأخلاق في كل شرع سبق ثم أكملها الله بما ليس بعده
كمال فكانت جامعة لغيرها مانعة من تبديلها أو تحريفها . وكانت القيم الإسلامية
في قمة ما شرع الله وما أقره العقل واستقرت عليه عمارة هذه الحياة . قيم
سلمت من الشوائب ومنعت من النقص وتصدرت كل ما شرع الله للسابقين من
الصالحين حتى تليق بالعقول بعد نضجها والأفهام بعد اكتمالها والتزمتها الأمة

الاسلامية قيما وتعلينا فهي خير الأمم وآخر الاجيال لتتناسب مع رسالتها القيادية لاسعاد البشرية وهداية العالمين .

ان القيم الاسلامية لبنات هذا الدين الحنيف عليها يقام صرحه ويتسع ظله وترسخ دعائمه وهي كذلك تاجه وحليته بها يزدان بناؤه ويكمل منظره وتطيب فيه الحياة وهي كذلك شذاة العطر وريحه العبق تأنس به النفوس وتهفو اليه الخواطر وتركن الأرواح . وما انفصلت القيم الإسلامية عن أحكام الإسلام التشريعية قط تعبدية كانت أو لتنظيم العادات والمعاملات بين أبنائه أو مع غيرهم ممن أغلقوا عن رؤية قلوبهم فلم يتدركوا حقيقته ولم يبصروا نوره الوهاج فعشيت أبصارهم وغفلت حياتهم ومع ذلك لم تعقل هذه القيم الفاضلة حقهم في الحياة دون تفرقة بين مسلم وغيره مما كان له تأثير فعال في توجيه الفطر لاعادة التبصر في دعوة الاسلام وما تحويه من رعاية رحيمة ضمت تحت ظلها جميع بنى الانسان فانخلع الكثيرون من ربقة التقليد وحكموا العقل الرشيد فيما حولهم من باهر الآيات واستجابوا لدين الفطرة وساروا في موكب العقلاء الموحدين المؤمنين برب العالمين .

لقد استجابت النفوس الزكية لما قرره بنى الاسلام في التشويق لهذه القيم والدعوة اليها مما تضمنه كتاب الله الحكيم أو بينته السنة المطهرة من قول سديده وخلق رشيد يتفق وفطرة الانسان القويمة .

لقد أجل الله تعالى في نصف آية من كتابه العزيز فضائل الأخلاق التي تقود البشرية الى الطريق الأصوب والتي لو سرت في أى مجتمع لبنتاده الود وغشيته الرحمة وعمه الاخاء (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى) كما أجل المساواة التي تفسد نظام المجتمع وتفرق وحدته في نصفها الثاني (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) وفي هذا البيان زاد لكل معتبر .

ومن رحمة الله أن المتتبع لما دعا اليه الاسلام وما شرعه من أحكام يجد تفصيلا لبعض المجمال من أمهات الفضائل وقضايا الأخلاق ليكون الناس على بينة مما شرع الله ولئلا يكون لأحد حجة بعد ما أجل الاسلام وفصل (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

معي بالنظر والتدبر في آيات كريمة من سورة الأنعام تر كيف جمعت بين طهارة العقيدة ومحاسن الأخلاق ومرضاة الرحمن وانظر كيف تبدأ الآيات ببناء رفيق يبلغه رسول كريم عن ربه تعالى (قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) . تعالوا الي فندائي يؤذن بصبح جديد ويهتف بالخلق في كل واد الى يا عباد الله فأنا البشير النذير جئتكم من ربكم بالحق بعد طول ظلال وبالنور بعد انقشاع الظلام عدتني كتاب مبين وشرع قويم وعدل يسود العباد ورحمة ينعم بها الجميع أجدد بدعوتي دعوات الأنبياء من قبلي وأتمم برسالي

شرائع من سبقني وأكمل الصرح الذى بناه الهداة والمصلحون (قل ما كنت بدعا من الرسل) وأذكر الناس على فترة من الرسل وأجمع شتات الخلق الى طريق الحق على هدى وبصيرة (قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين) .

تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ربكم الذى خلقكم فأنتم صنعتته ومظهر قدرته من روحه أحياكم وبرزقه أطعمكم واليه مآبكم وبين يديه حسابكم (ألا تشركوا به شيئا) بداية المعرفة وغايتها توحيد الله ذاتا وصفاتا طاعة وعبادة - اقبالا واخلاصا - فلا شريك له ولا ند ولا صاحبة ولا ولد وكيف يساوى المخلوق خالقه أو يشارك الحادث فى الوجود من أوجده أو ينازع المجدود من لا تحده بداية ولا نهاية (أفمن يخلق كمن لا يخلق) .

ان الشرك بالله ظلم عظيم ظلم الله لمساواة غيره به وشتان بين الخالق وبعض خلقه (ليس كمثل شيء) شتان بين منشيء الخلق ووارث الأرض ومدبر الأمر وبين من يجرى عليه القدر دون أن يملك لنفسه نفعا ولا ضرا وظلم للنفس لغبطها حقها وسوقها الى الضر والمهلكة وظلم للقيم الخلقية التى يقتضيها واجب الشكر والطاعة لمن وهب الحياة ومنح الوجود . فمقتضى العطاء الشناء ومن تنكر لمن أنعم عليه بالوجود فقد خالف مظهر الانسانية الذى يميز الانسان عن غيره . فماذا خلق الله . فماذا بقى له ؟ .

والعقيدة الصحيحة تصل الانسان اتصالا مكينا بخالقه وتربطه بين عالم الشهود وعالم الغيب وبذلك مدح الله المؤمنين بالغيب فى صدر كتابه العظيم ووصفهم بأنهم قد اهتموا بهذا الكتاب وسعدوا به فقال تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) فإيمانهم بالغيب ثمرة هدايتهم بما أنزل الله وطريق تقواهم بمحارم الله ولا عجب أن توجههم ربهم بالفوز والنجاح (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

فاذا استقرت العقيدة على هذا النحو من اليقين سرت آثارها فى الجوارح فيرى المؤمن بنور الله ويسمع بسمع الله ويمشى حيث يرضى الله . فهو يستقبل يومه بالوقوف بين يدي ربه يستهديه ويسترجيه ويسأله العون والممدد حتى اذا انتصف النهار والحياة لاهثة صاخبة عاد مرة أخرى الى هذه الساحة الكريمة يتذكر ويستغفر ومع العصر كذلك وفي استقبال الليل مرتين ثم للأصفاء سبحات أخرى فى مناجاة خاشعة مع العزيز الرحيم . فأى قلب يغفل أو يقسو بعد هذه الوقفات التى ترق القلب وتثير الوجدان .

وكذلك الصوم وما يثمره من ضبط النفس والتعالى بها عن عبودية العادات لتكون أهلا للتشبه بالملائكة الكرام وحفظ الجوارح عن محارم الله . وكذلك الحج

الذى يجمع ملايين المسلمين على هيئة واحدة لا يفرقهم جنس أو لون أو وطن (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات) .

وللمال مع عقيدة الاسلام شأن فى تربية النفوس وتهذيبها اذ جعل الله العطاء والمنع من الفتن التى يبتلى بها الناس (ونبلوكم بالخير والشر فتنة) وجعل بذله تطهيرا لها وقربى الى الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وهكذا كانت العبادات سياجا للعقيدة وزادا لاشاعة القيم الاسلامية التى تربط هذه العبادات بسلوك الانسان ومنهجه فى الحياة .

وانظر الى الوصية الثانية (وبالوالدين احسانا) ومن بعد الله سبحانه وتعالى أولى بالطاعة وأحق بالمعروف سوى الوالدين ؟ انهما معين الحياة بعد أن وهبها الله ومصدر الوجود للمولود بعد ارادة الله انهما الأصل الممد للفرع كما يبحث جذر النبات فى خلايا التراب يستشف الندى ليدفع به الى الفروع غير مبق لذاته الا رطوبة راضيا بها مكتفيا بنمو أغصانه مع دقته ورقته وكذلك يفعل الوالدان يسرهما أن يعيش ويسعد الأبناء ويقدمان ما استطاعا من جهد وطاقة بداية من استقرار الوليد فى قراره المكين الى أن يدب على الأرض طفلا رضيعا وصبيا يافعا وشابا جلدا ثم رجلا أو امرأة ثم عودة مرة أخرى الى باطن الأرض والأبوان معه بالرحمة الخانية والقلب العطوف والجود بالمال دون إبطاء أو إهمال فبأى وجه يقابل الانسان هذا البر .

يقول الاسلام بما تقتضيه مكارم الأخلاق الحسنة باضعاف مثلها والمعروف بأفضل منه . فاذا كانت التحية بين الناس تحتسب لمن بدأ بها ديننا على المحيا وهو مطالب بردها بالأحسن فان لم يكن فبمثلها (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فما بالك بعطاء الوالدين الممتد سنين وسنين بلا ملل أو انقطاع .

ثم يترفق الاسلام فى النصيحة علاجاً لداء نفشى بين ضعاف الايمان فكانوا يقتلون أبناءهم ظناً منهم أنهم سبب فقرهم ونفاد مالهم فأودع اليقين محل الشك وأزال الوهم بصدق الوعد . ووعد الله حق لأنه وعد القادر على الوفاء والعطاء فلا ضرورة اذن للتخلص من الأولاد خشية نقص المال أو حدوث الفقر فلكل نفس عند خالقها رزقها (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) « ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها » وما وكل الله رزق عبده على آخر وما أسرك اثنين فى رزق واحد منهما . فالله تعالى قرن الخلق بالرزق وجعل الحكم بالعدل وما يعقل أن تتلقى نعمة الذرية بازهاق الروح وقتل النفس . ومن فعل فقد قابل نعمة الله بالجحود وشكر لما يجب عليه الشكر من نعمة الولد . فالله يخلق وهو يقتل . وأى افساد فى الارض أعظم من هذه الخطيئة ؟ .

لقد نهى الاسلام عن ذلك توثيقاً لأسس الروابط بين الوالد ومن ولد

ورفعنا للقيم الانسانية الى مكانتها الاجتماعية الرفيعة (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) والنفوس تواقة الى فعل السوء (ان النفس لأماراة بالسوء الا ما رحم ربي) .

والانسان بين عقل يهديه ونفس تغويه . وبقدر ما يستجيب لعقل أو يخضع لنزعات نفسه يسمو بالانسانية الى الدرجة العليا حتى ليعلو عند الله قدرا عن ملائكته المسبحين بحمده لأنه جاهد وانتصر واستعلى على المعصية فأذلها وأعرض عنها ولا سبيل الى ذلك الا بتجافى كل ما فحش من قول وعمل وما شذ عن عرف المجتمع العاقل الرشيد . لا سبيل الى تزكية النفس الا بتجنب الدنيا وساقط الأخلاق ما رآه المجتمع علنا أو أخفاه فاعله حياء ووجلا .

فالفواحش في ذاتها شر أدواء الانسانية ما خفى منها وما ظهر فلو استهترا صناع النقائص أعمالهم لتدرجوا عليها علنا ولو أقر أى مجتمع قبول ذلك فقد حكم على أفرادهم بالفشل ودب فيهم داء البوار وأصبح هذا المجتمع سبة فى جبين الانسانية . والاسلام يحمى الفرد والمجتمع ويصون النفوس من دنس الفحش والخطايا والآثام لتسلم الانسانية بقيمتها وتحتل مكانتها فى سماء الطهارة والشرف وتنأى عن الظلم والبغى .

فالفواحش منقصة للانسان والاثم مغضب للواحد الديان والبغى وانظلم ظلمات فى هذه الحياة وعند لقاء الله .

بهذه الوصايا أمرا ونهيا أوصى الله عباده ودعاهم الى شريف الأخلاق ومحامد الصفات ثم يرفع الله من شأن الانسان فيحفظ عليه حياته الى أجلها المحدود ويصون وجوده من عبث الغير وغلواء النفس والشيطان فنهى عن القتل وهو ازهاق روح أحيائها الله من روحه واذهاب حياة كان يمكن أن تسهم فى عمارة هذه الدنيا بالخير والعمل الصالح . فلو ترك الأمر لكل مدع وباغ حتى ولو كان صاحب حق فى دم المقتول دون رقابة الحاكم والتزامه بحكم الله لفسدت الأرض وافتقد الناس الأمان وعاشوا كالسوائم يقتل بعضها بعضا ويفر الواحد من الآخر ولكن الله عز وجل شرع ضوابط يلتزم بها المجتمع القوى والغنى وذو الجاه مع الضعيف والفقير والمغمور فى الحياة – لأن النفس – بقيمتها الاصيلية الغالية – اذ هى نفحة من نفحات الملك القدوس لا بما يقبض العبد عليها من مظاهر وأعراض .

وتسترسل الآيات الكريمة فى وضع المبادئ الانسانية التى تستهدف ترقية المجتمع البشرى وتبعث فيه الأمن والاستقرار . فليحذر الأولياء والمسئولون من العبث بمال اليتيم والتصرف فيه بما يعود عليه بالنقص أو الافساد فلا يجتمع عليه يتمه وضياح ماله اذ هو أولى بالعطف والرحمة وأجدر بالرعاية وحسن المصاحبة والمتابعة لما يعود عليه بالخير ويحفظ عليه ماله بالمراقبة والتنمية تعويضا

له عن فقدته عائلته وعونا على مواجهة الحياة وهو آمن فيها مطمئن الى من فيها من أقاربه وولادة أمره .

ولا يخفى سمو هذا المعنى الجليل الذى ينشده الاسلام سلوكا لأهله ورعاية لأبنائه وتدعيما لأواصر المحبة والتعاون ليسود العطف وتمتلئ القلوب بالشعور الأخوى بين الجميع فاذا اشتد عوده واكمل رشده مكن من ماله ليتصرف فيه مع النصيح الرفيق والتوجيه الرشيد .

والعدل روح الأمن ومنطق العقل فى كل أطراف الحياة فى الكلمة لك أو عليك فى الكيل والوزن بيعا وشراء وهو شرف الانسان ومناط المسئولية فيه عهدك مع الله بالايمان حين عاهد الله خلقه بقوله (ألتست بربكم) فأجبت مع الجميع بلى أنت ربنا ومالك أمرنا - ومقتضى الربوبية التزام الأمر تصديقا وإقرارا وتجنب المنهى عنه طاعة واختيارا فهو عهد يشمل التكليف بفعل الأوامر واجتناب المناهى .

ثم عهدك مع غيرك فرع عن عهدك الأول مع الله تعالى . فالوفاء بالعهد مروءة وصدق والصدق يهذى الى البر والبر يهذى الى الجنة . ولقد خص الله نبيه اسماعيل عليه السلام بالمدح لذلك (انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا) .

ان هذه القيم الشريفة التى تضمنتها هذه الآيات وما حفلت به غيزها فى كتاب الله العزيز ومن السنة الحكيمة هى جوهر هذا الدين وهى ثمار العقيدة الصحيحة والعبادات المشروعة فهى لا تنفصل عن أعمال الاسلام العقائدية وهى شيم وطبائع لازمة لكل مجتمع صالح ويجب أن تبدل دون انتظار مقابل لها أو أجر عليها فالصادق الأمين والوفى والعالم والمحسن وغيرهم ممن يباشرون روائع الأخلاق كل هؤلاء يستجيبون لفطرتهم التى تملى عليهم ضرورة الالتزام بها لأنها واجبة والواجب مطلوب حتى لو أنكره أو تنكر له بعض الناس لا يذهب العرف بين الله والناس . هكذا قال الشاعر الحكيم !

ان القيم الاسلامية حق لله على البشر وهى جزء من الحقوق العامة التى أوجبها الله على عباده من العبادات فهى منهج لفطرة الانسان المستقيمة مع الأوامر والآداب الالهية وهى طريق للتكامل الحضارى والخير المطرد (ولو أن أهل القرى آمنوا وانقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) فغطاء الخير موهوب أصلا من الله عز وجل والتقوى واستقامة السلوك ضمان لتسوالى الخير والنعم والمزيد من بركات الله على أهل الأرض .

ان العلاقات الإنسانية التى تبناها الاسلام ورعاها تجعل من القيم الاسلامية جزءا من هذا الدين وتتدرج مع الانسان الى أن تشمل خلجات نفسه ونوايا قلبه .

فالمحبة والالفة علامة مميزة للمؤمن الصادق اذ يقرر نبي الاسلام صلوات الله وسلامه عليه أن « المؤمن ألف ألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وأن المؤمن مأمور بأن يبادر غيره بالتحية بقوله (السلام عليكم) ليضع شارة الأمان ومعبر السلام طريقا لعلاقته مع الناس فهو مسلم وعطاؤه لغيره أمن وسلام .

والمسلم يرحم الصغير ويوقر الكبير فينال من الصغير توقيرا ومن الكبير توجيها فيقول عليه السلام (ليس منا من لم يوقر كبيرا ولم يرحم صغيرنا) .

والمسلم عطوف القلب لين الجانب كريم اليد باذل للمعروف . ففي الحديث الشريف (ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بعفو إلا عزاً وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله) .

والمسلم يذيب ضغن القلب بالسماحة والصفح ويقاوم نوازع الشر بالتجاوز والعفو (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) وصلى الله على من علمنا مكارم الأخلاق .

والمسلم حليم صبور يتأني في الحكم على ما يصله من أخبار تتعلق به أو بغيره حتى يتحقق ويتثبت فلا يسارع بالظن ولا يأخذ بالفتنة ليسد الطريق أمام الوشاة والمفتريين (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) .

وقد يتغلب العنصر الترابي على الانسان فيضل السبيل ويتقلت من قيد هذه القيم النورانية التي تصونه من الوقوع في مهاوى الرذيلة فاذا به حيران يتحسس السبيل ويطلب النجاة . فلو تخلت عنه يد الرحمن حينئذ ووكله الى هواء وصد عنه المجتمع لتماهى في غيه وتردى سحيقا حيث لا عاصم له ولا ملاذ الا رحمة مولاه التي وسعت كل شيء (ورحمتي وسعت كل شيء) .

فما أوسع رحمة ربي وما أرحب ساحة عفوه لعباده المقبلين والمذبرين على السواء فالكل خلقه وهم عباده وهو تعالى بالجميع رءوف رحيم .

وباب التوبة ينادى على الحيارى والشاردين الى الله يا عباد الله . فما لكم رب سواه (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ؟) ومن يرحم المخلوق الا خالقه ويغيث المكروب الا مولاه (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) والرسول الكريم يقول : (ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) .

واذا كانت المعصية فى الحياة البشرية تنبع من مرض القلوب وضعف النفوس أمام نوازع النفس والشيطان فان التوبة هى العلاج الناجع الذى أقره وقرره خالق الانسان وهو أعلم بما فيه وبما يشفيه .

فهي صهوة النفس الغافلة ودعوة الكريم الوهاب الى ساحته الرحبية .

وهي أوبة الشارد الى حظيرة الأمن حيث يجد من ربه الصفح والمغفرة فاذا بصمفحته عادت نقية لم يندسها ذنب ولم تعكرها معصية (واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) (فاولئك يبدله الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيمًا) .

وبعد :

فيمثل هذه القيم الغالية وغيرها مما يحفل به هذا الدين الخاتم يسود العدل والأمن ويسعد بنو الانسان .

اذ هي زاد المؤمن وعدنه وجوهره ومظهره هي روح العبادات ومسك العادات وهي تواكب المؤمن في سلوكه مع ربه وعلاقاته بالناس وهي سمات المجتمع السعيد وشارات الأمة الصالحة وهي دليل الصدق وطريق التقوى وسبيل الفلاح . وهي مهمة الأنبياء ومقصد الرسالات .

وصدق نبينا العظيم صلوات الله وسلامه عليه اذ يشير الى جوهر رسالته الخاتمة وما سبقها من الرسالات فيقول (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وصلى الله وسلم وبارك على من كان لمكارم الأخلاق متصما وبجلال الاعمال قائما وبمحامد الصفات متجملا على من قال مرشدا أو معلما (البر ما اطمأنت اليه النفس وما اطمأن اليه القلب والاثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك) .

وعلى من أثنى عليه رب العالمين في كتابه المبين وأنطق الأجيال على توالى الزمان وأشهدهم بذلك على مر الدهور والعصور .

لا بأنه خاتم الأنبياء فحسب .

ولا أمين الرسالات وامام الرسل فحسب ولا شفيع الامم يوم لقاء الله فحسب .

وانما لما تميز به من فرائد الأخلاق وجلال القيم فقال له مزيكا ومعظما وعنه مشرفا ومكرما (وانك لعلى خلق عظيم) .

اخوة الاسلام : نبيكم خاتم الانبياء وأفضل الرسل ودينكم خير الأديان لا عسر فيه ولا حرج وأنتم خير الامم وأمة الوسط . لكم من شرع الله نور وكتاب مبين ومن أخلاق نبيكم قدوة تنير الطريق وتهدي الحائر .

فأظهروا شذا هذا العطر العبق من أخلاق دينكم الرفيعة وانثروا في العالمين عبره - عقيدة تنير الوجدان وسلوكا يظهر الجوارح وتعساونا على البر

والتقوى تتبعكم الأمم وتتسببوا ذرى المجد بما عز الأولون وسادوا وتملأ الحياة
عدلا ورحمة حتى تكونوا بحق كما قال الله لكم وعنكم (كنتم خير أمة أخرجت
للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

والحمد لله رب العالمين

محمد عبد الواحد أحمد

المدخل الى القيم الاسلامية

الدكتور جابر قميحة

كلية الآلسن - جامعة عين شمس

تقديم

...أحمد الله سبحانه وتعالى، وأصلى وأسلم على نبيه محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي جعله الله على خلقه عظيماً، وبعبارة أخرى: الله المهداة... وبعد.

أقدم للقارئ العربي بخاصة والقارئ المسلم بعامة هذا البحث المتواضع الذي جعلت عنوانه (المدخل الى القيم الاسلامية) والعنوان تعبير دقيق عن محتوى البحث، فهو مجرد معالم على طريق الوصول الى القيم الاسلامية والتعرف على السبل المؤدية اليها وقد قسمت البحث الى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: بعنوان: (مع التاريخ ورصيد الفطرة) وكان دراسة تاريخية اجتماعية موجزة لأخلاقيات المجتمع الجاهلي بمفهومه الواسع: البضائيل منها والردائل وموقف الاسلام من هذه الاخلاقيات.

والفصل الثاني: خصائص القيم الاسلامية: أبنت فيه عن سمات الاخلاق الاسلامية بكل أنواعها وألوانها وأثر هذه السمات في بقاء هذه الاخلاق وخلودها.

أما الفصل الثالث والآخر: محمد القيم والمنهج: فقد عرضت فيه صورة نفسية أخلاقية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم - وكيف كان مثلاً أعلى للمسلمين في قوله وفعله، كما بينت في الشق الثاني من الفصل منهجه - عليه السلام - في غرس القيم الانسانية في نفوس أصحابه وفصلت الى حد ما في ملامح هذا المنهج.

وقد أخذت نفسى فى هذا البحث بعدة أمور تبين عن المنهج الذى سلكناه فى هذا البحث • ومن أهمها :

١ - الاعتماد بصورة أساسية على القرآن والسنة فى استخلاص الحقائق والعناصر التى تتعلق بالقيم والمجتمع والشخصيات • وكان اعتمادى الأساسى بالنسبة للسنة على صحيح مسلم والبخارى بصفتها اصح الصحاح وأدقها •

٢ - البعد عن الخلافات التى وردت فى كتب الفقه والتصوف والكلام والأخلاق والفلسفة فيما يتعلق بالأخلاق الإسلامية وشخصية الرسول ، لأننى اعتبرته البحث مجرد تقديم ومدخل الى القيم الإسلامية •

٣ - الاكثار من الشواهد القرآنية وشواهد السنة الشريفة فى بيان أبعاد القيم الإسلامية وخصائصها وتطبيقاتها العملية •

٤ - محاولة ربط هذه القيم بالواقع الانسانى والأخلاقى والقانونى المعاصر فى اجمال خلوصا الى بين جوانب العظمة فى النظرية الأخلاقية الإسلامية •

٥ - ربط النموذج النظرى بالنموذج العملى أو بتعبير آخر الكشف عن مكان هذه القيم فى شخصيات الرعيل الأول وعلى رأسهم أساتذهم ••• أستاذ الحياة محمد بن عبد الله عليه السلام •

ولا أزعج اننى أتيت بما لم يأت به الأوائل ، فان ضيق الوقت وكثرة المشاغل حالت دون ما كنت أرجو من أن يكون البحث عن « القيم الإسلامية » لا عن « مدخل » موصل اليها وذلك كان يقتضىنى اضافة عدة فصول أخرى من أهمها (صورة القيم الإسلامية) يدور حول هذه القيم تفصيلا فى المغرب والسلم •• فى مجال الفرد والأسرة والمجتمع ، والطبيعة الأخلاقية لهذه القيم قيمة قيمة •• الخ • وإذا فاتنى أن أقوم بذلك فى زحمة العمل وضيق الوقت فاننى أمل أن يتحقق الأمل فى المستقبل القريب ببحث لاحق بعنوان القيم الإسلامية : صورتها وابعادها ومجالاتها • (دراسة مقارنة) •

والحمد لله فى الأول والآخر ••••

دكتور جابر قهيجة

ذو القعدة ١٤٠١

سبتمبر ١٩٨١

الفصل الأول

مع التاريخ ... ورصيد الفطرة

لم أجد أصعب في حياتي من البحث في « القيم الإسلامية » ولم يكن ذلك لغموض في الموضوع أو انفلاق في مناحيه ، ولكن كان ذلك لاتساعه وتراخي أطرافه ورحابة مرامييه : فالبحث في القيم الإسلامية يعنى البحث في الإسلام كله ، أليس الإسلام هو دين القيم الإنسانية والأخلاق النبيلة ؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » (١) ؟ ألم يقل رسول الإسلام عليه السلام « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ؟ ألم يصف القرآن الكريم نبي الإسلام بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » (٢) .

ألم يكن أول ما نزل من القرآن يعد في ذاته دعوة لقيمة إنسانية عليا هي القراءة وتلقى العلم الهادف لبناء الإنسانية لا العلم المدمر القاتل ؟

اقرأ ... باسم من ؟ باسم ربك ؟ والربوبية عطف وتعاطف ورحمة ، لذا نقول رب البيت ورب الأسرة .

ومن ربي ؟ انه الذى خلق ... نعم الذى بنى وخلق ... انه التلميح البعيد ... بل القريب ... القريب جدا الى أن القراءة والعلم يجب أن يرتبطا بهدف إنساني نبيل هو « البناء والتشييد » لا الاستعلاء الكاذب ... ولا الاهلاك والتخريب والتدمير .

والدعوة الى القراءة هي دعوة واضحة الى تلقي العلم ... وأكاد أرى أنها دعوة الى ما هو أوسع وأرحب ... انها دعوة الى « التحرك الديناميكي الناشط للبناء والابداع » استجابة للداعى « الذى خلق ، خلق الانسان من علق » .

وكانت « العلمية الحركية الناشطة » من أعظم الأسس التى اعتمدت عليها القيم الإنسانية فى الإسلام . وهذه الدعوة تمثل قاعدة إيمانية قوية عريضة ... فكل أمر ... كل حركة ... كل خطوة ... كل عمل باسم الله ... وعلى اسم الله ...

(١) الاسراء ٩ .

(٢) القلم ٤ .

باسم الله نبدأ ٠٠ وباسم الله نسير ، وإلى الله نتجه ، وإلى المصير ٠ والله هو الذى خلق وهو الذى علم ، فمنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة ، والانسان يتعلم ما يتعلم ، ويعلم ما يعلم ، فمصدر هذا كله هو الله الذى خلق والذى علم ٠٠ علم الانسان ما لم يعلم ٠

وهذه الحقيقة القرآنية الأولى التى تلقاها قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فى اللحظة الأولى هى التى ظلت تصرف شعوره وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجاهه بعد ذلك طيلة حياته بوصفها قاعدة الايمان الأولى (١) ٠

وربانية « المنبع القيمى » هنا ، أو بتعبير آخر : ربط القيمة الإنسانية العلمية الحركية هنا بالمنبع العلوى وهو الله سبحانه وتعالى ، يكسب القيمة « سموا » من ناحية ، ويمنحها قوة ورسوخاً من ناحية أخرى على ما سنعرف بالتفصيل إن شاء الله فى ثنايا هذا البحث وتضاعيفه ٠

« وبين » اقرأ باسم ربك الذى خلق « و » اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٢) « بين هاتين الآيتين ٠٠٠ وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً هى مسيرة النبوة المحمدية الوضيئة ٠٠٠ قرابة ربع قرن من الوحي والنور والهداية والتوجيه السديد فى شتى المجالات ٠٠ قرابة ربع قرن من الاتصال الحى النابض بين الأرض والسماء تكون رصيد ضخمة من القيم الإنسانية ٠٠٠ اعتنقتها أمة فخرجت بها من الظلمات الى النور ٠٠٠ ومن الضعف الى القوة ٠٠٠ ومن الذلة الى العزة ٠٠

لقد أصبحت « الشخصية الإسلامية » ذات نسج جديد حتى قوى متين وصفه لنجاشى الحبشة جعفر بن أبى طالب حين هاجر المسلمون اليها قارين يدينهم : « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأفئ الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسى الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، وبخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدنا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الحباث ، فلما

(١) سيد قطب ٦/٣٩٩ ٠

(٢) المائدة ٣ وهى آخر ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال ٠

قهرونا وظلمونا وضسيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك
واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك » (١) .

عبادة الأوثان • أكل الميتة • اتيان الفواحش • قطع الأرحام • الاساءة
الى الجار • منطق البغى والقوة • كانت هذه الملامح تمثل قائمة القيم
الجاهلية • وهى كما هو واضح - قائمة مختلفة منحرفة ، ألم تر الى هؤلاء
الجاهليين وهم يفخرون « بفضيلة » البغى والعدوان يقول عمرو بن كلثوم :

بغاة ظالمين وما ظالمنا
وقد يمتد الظلم الى أقرب الناس على طريقة :

وأحيانا على بكر أخينا
اذا مالم نجد الا أخانا

وتسربت رواسب من هذه المفاهيم الخاطئة الى نفوس بعض المسلمين
فرددتها فى ساعة من ساعات الضعف البشرى والملاحاة العقيمة : فتميم بن مقبل
يغضب غضبا شديدا لأن النجاشى الشاعر هجاه ... نعم هجاه وهجا قبيحته
بقوله :

قبيحته لا يفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء الا عشية اذا صدر الوارد عن كل منهل
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل
وما سمي العجلان الا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ويعدو تميم مستعديا عمر بن الخطاب على النجاشى ليؤدبه على هذا الهجاه
ويأتى رد عمر « تصحيحا » لمفاهيم جاهلية غالطة : يعلق عمر رضى الله عنه -
على البيت الأول قائلا « ليتنى من هؤلاء » وعلى الثانى بقوله « ذلك أصفى للماء
وأقل للزحام » وعلى الثالث بقوله : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه ، ويعلق
على الرابع بقوله « خير القوم أنفعهم لأهله » (٣) .

★★★

وكانت لغة الدم - كما ألمحنا - هى اللغة المنطوقة واللغة المسموعة فى
الجزيرة العربية ، وكانت الحروب تشتعل لأتفه الأسباب من أجل ناقة كحرب
البسوس ، أو من أجل فرس كحرب داحس والغبراء (٤) حتى أرباب الأديان
السماوية فى الجزيرة العربية كانت لغة الدم هى أرفع اللغات صوتا عندهم :

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣٢٧/١ .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٥١ .

(٣) أنظر : ابن رشيقي : العدة ٥٢/١ ، وأنظر كذلك لعلى وتاجى الطنطاوى : سيرة عمر بن

الخطاب ٥٠٦ .

(٤) أنظر الأغاني ١٦/٦٤٧٨ ،

يقول الفخر الرازى فى تفسيره لسورة الأخدود « وقع الى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار اليهم ذو نواس اليهودى بجند من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثنى عشر ألفا فى الأخاديد وقيل سبعين ألفا ، وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا، وعرضه اثنا عشر ذراعا » (١) .

ومما ينقله التاريخ عن المجتمع الجاهلى وسيادة منطق القوة فيه انه اذا قابل الجاهلى آخر معه طعينة وليس من قبيلته ، ولا من قبيلة معها حلف نقاتلا فاذا قهر صاحب الطعينة أخذته منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه ادهم يلحقهم العار فى مدة حياتهم ، ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم ان تكون أمه حرة نسبية لاسببية جليبة (٢) .

★ ★ ★

وكانت ذاتية الفرد ذائبة فى « جماعية » القبيلة ، فهو تابع لها ذائب فيها فى الشر والخير على حد قول الشاعر :

وما أنا الا من غزية ان غشوت غويت وان ترشدت غزية أرشد

وحرصا على ملكان القبيلة وهيبتهما فى مجتمع الدم والعدوان والقوة كانت القبيلة تنصر من ينتسب اليها أو يحالفها ظالما كان أو مظلوما ، فاذا لم تفعل ذلك لحقتها المسبة والمعرة . يقول قريط بن أنيف العنبرى :

لو كنت من مازن لم تستبج ابلى	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذن لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة ان ذو لثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	فى النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشرقى شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن اساءة أهل السوء احسانا
كان ربك لم يخلق لخشيتته	سواهم من جميع الناس انسانا
فليت لى بهم قوما اذا ركبوا	شتموا الاغارة فرسانا وركبانا (٣)

وبجانب الغدر ومنطق القوة والدم والحروب الدائمة والعدوان الغاشم كان هناك أمراض اجتماعية متعددة وعادات قبيحة كثيرة منها وأد البنات « واذا بشر أخذهم بالأننى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، ينوارى من القوم

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ٣٦٨/٨ .

وانظر كذلك سيرة ابن هشام ٣٥/١ .

(٢) محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ٢٠/١ .

(٣) شواهد الكشاف - التفسير ٣٤٢/٤ وانظر الخضرى السابق ٢٢ .

من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » (١) .

وكان هناك أكل السمحت ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعبادة الأصنام وعبادة الملائكة والجن وانكار البعث ، والايمان بالآلام ، ولعبيهم الميسر ، وحرصهم على الخمر ، وتقننهم في شربها ، وافتخارهم بالحرص عليها ومعاقرتها ، واتلاف المال من أجلها على حد قول عنتره :

وإذا شربت فأنني مـسـسـتـهـلك مالى وعرضى وأفر لم يثلم (٢)
وبعضهم كان يسرف في ذلك كل الاسراف ، يتلف كل ماله على خمره ولذته حتى تنبرأ منه القبيلة كما يقول طرفة :

وما زال تشربى الخمسور ولذتى وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت افراد البعير المعبد (٣)

ثم استهناوا بالحياة لكثرة حروبهم وتوقعهم الفجيعة فى أنفسهم وأحبائهم فانكبوا على لذات الحياة يعلون منها وينهلون ، وهذه خلة مازالت الى الحرب قريبة وكانت فى كل حرب حتى قالوا ان أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجري فى الثورة الفرنسية . ثم هم بين غالب ومغلوب : غالب سبى وغنى وظفر ، فيعيب الخمر بهجة ونشوة ومجلبة للزهو المضاعف ، ومغلوب كسر وسلب ماله وأسر نساؤه ورجاله وفجع فى أحبائه فأظلمت حياته ، وضاق بالدينا ، وضاق به ، فيلوذ بالخمر يتناسى بها همه ملاوة من الزمن (٤) .



ولكننا - حرصا على عملية البحث - يجب أن نقف قليلا لنحسم طبيعة الأمراض الاجتماعية والخلقية التى أصيب بها المجتمع الجاهلى . وهذه الأمراض فى مجموعها يمكن تصنيفها الى نوعين :

الأول : عام شائع يعم المجتمع كله أو أغلبه حتى أصبح جزءا من طبيعته

(١) النحل ٥٨ ، ٥٩ : ربما كانت كراهية البنات عند بعض العرب مطورا من مظاهر التأثر بالديانة الموسوية القديمة إذ كانت الأسرة تتلفى ولادة البنات بغير إربياح ولا عطف ، بينما كانت ولادة الذكر موحية للفخار ومعتبره بركة علوية . أما الأم - فبنص النوراة - تظل نجسة خمسة عشر يوما إذا وضعت بنتا ، وعليها أن تغض سبعين يوما فى تطهير نفسها . أما إذا وضعت ولدا ذكرا فمدة النجاسة ثمانية أيام ، ومدة التطهير خمسة وثلاثون يوما .
(راجع كتاب مركز المرأة ص ٣٦ ، ٣٧ ، راجع كذلك العهد القديم : سفر الملوك الأول وسفر التكوين وسفر الأخبار) .

(٢) التبريزى : شرح القوائد العشر ٢٠٢ .

(٣) السابق ٨٦ .

(٤) الحوفى : الحياة العربية من الشجر الجاهلى ٣٥٠ .

مثل العدوان والاحتكام الى القوة فى حل المنازعات ، وعبادة الأصنام والايامن بالأزلام وشرب الخمر •

الثانى : خاص بطبقة أو فئة معينة من الناس مثل : وأد البنات ، فلم يكن مرضا شائعا فى جميع العرب ، بل كان فى بعض بطون من تميم وأسد (١) وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية ، وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة • (٢)

وكان هناك من أشرف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه ، وكان يشتري البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهم الفقر والخوف منه ، وعرف ذلك عن خالد بن صحصحة جد الفرزدق • (٣)

ولو أن الوأد كان عاما فى العرب لقلت النساء قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات ، ولو انه كان عاما لتباهى به الشعراء ، ولهجوا الذين لا يثدنون لأن الوأد فضيلة وتركه رذيلة • (٤)

وما يقال عن وأد البنات يقال كذلك عن الزنى ، فالحرائر فى الجاهلية حافظن على عفتهم وسمعتهم • ولم يعرف العرب الا زنى الاماء ، فكان بعض الرجال يقتنى الاماء ، ويكرههن على البغاء ليجلبن له مالا ، أو ليلدن له أولادا يبيعهم ، أو ليكرم ضيفه • فمثلا : كان عبد الله بن جدعان نخاسا له ست جواريزن ، وبيع أولادهن • وكان عبد الله بنى أبى بن سلول يجبر جاريته أو جواريه الست على البغاء لأنه كان يبيع أولادهن ويتقاضى منهن ضرائب وكان اذا نزل به ضيف أرسل اليه جارية ليباسرها تكريما له ، فشكت احدهن أو اثنتان منهن الى النبی صلى الله عليه وسلم - فنزل قوله تعالى « .. ولا تکرهوا فتياتکم على البغاء ان اردن تحصن لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يکرههن فان الله من بعد اکراههن غفور رحيم » (٥) •

وكن يميزن بيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل اليهن من يريدن • وقيل انهن كن تسعا أو أكثر معروفات ••• وهن جميعا من سواقط الاماء مثل سريقة جارية زمعة بن الأسود وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاصى بن وائل (٦) •

(١) الخضرى : السابق ٢١/١ •

(٢) الفخر الرازى ٣٢٢/٥ •

(٣) الخضرى السابق نفس الصفحة •

(٤) الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ٢٣٨ •

(٥) النور ٣٣ •

(٦) راجع الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ٣٩٩ •

وهي حقيقة يؤيدها الواقع التاريخي ، ويمكن الاستدلال عليها كذلك بما يأتي :

١ - لجوء بعض العرب - كما أشرنا سابقا - الى وأد بناتهم خوف الفاقة والفقر وعار السبى . فلو كان زنى الحرائر معروفا أو مستساغا كزنى الاماء لكانت البنات مورد رزق طيب ولكانت البنت موضع حب واعتزاز عند الذين عرف عنهم الواد واشتهروا به .

٢ - ما حدث يوم بيعة النساء ، فقد دخل النبي عليه السلام مكة فاتحا وأخذ بيعة الرجال ، ونزل قوله تعالى « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبأيعهن ، واستغفر لهن الله . ان الله غفور رحيم » (١) .

وبعد بيعة الرجال جلس النبي الى الصفا ، وأخذ في بيعة النساء وفيهن هند بنت عتبة - على ألا يشركن . . . ولا يسرقن . . . ولا يزنين . . . وهنا قالت هند : أو تزني الحرة ؟ وفي رواية : ما زنت منهن امرأة قط (٢) .

فهذا الاستفهام الاستنكاري ، وهذا النفي القاطع في الرواية الثانية يدل على أن مجتمع الجاهلية بعامة ، ومجتمع مكة بصفة خاصة لم يعرف زنى الحرائر ، ولم يقره على كثرة انحرافات المجتمع كما بينا من قبل . وحتى زنى الاماء كان محصورا في أماكن محدودة ، وعدد الاماء البغايا لا يتجاوز التسع كما ذكر التاريخ ، وهو عدد قليل جدا بالنسبة لمجتمع مكة التي يقصدها عشرات الألوف في موسم الحج بخاصة . فالزنى اذن لم يصل في المجتمع الجاهلي الى درجة الآفة الاجتماعية الشائعة .

ولكن هل خفيت هذه الحقيقة على النبي عليه الصلاة والسلام ؟ هل غاب عن خاطره أن الحرائر لا يزنين ؟

ونحن لا نشك أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يدرك هذه الحقيقة تماما ولكي يبقى سؤال آخر يتردد في خاطر وهو : كيف يطلب من النساء الحرائر تجنب فاحشة لا يقعن فيها ؟

ان واحدا من المؤرخين و المفسرين - على ما أعلم - لم يحاول أن يجيب عن هذا السؤال أو يقطع فيه برأى . وربما كانت الاجابة الصائبة عن هذا السؤال الأخير فيما يأتي :

(١) المتنحة ١٢ .

(٢) الزمخشري : الكشف ٩٥/٤ .

١ - أن يكون المقصود بذلك الاماء مع أن الحديث موجه الى الحرائر تأدبا منه عليه السلام ، وكسنته في اتساع طريقة « التوجيه غير المباشر » حتى لا يوقع المخطيء في حرج المواجهة . وقد كان من أدبه عليه السلام أنه اذا رأى مخطئا مخالفا يقول « ما بال أقوام يفعلون كذا . . وكذا . . حرصا على مشاعر المخطيء أن تخدش » (١)

٢ - أن مضمون هذه البيعة جزء من التشريع الاسلامى فى باب المحرمات والتشريعات - حتى الوضعى منها وان ارتبطت بأسباب خاصة - تأخذ صفة التعميم بصرف النظر عن الحدث الاصلى الموجب للعقوبة من ناحية ندرة حدوثه أو كثرته مستقبلا . وخاصة أن الاسلام ليس ديناً محلياً أو ديناً مرحلياً ، ولكنه جاء لكل زمان ومكان فما يكون قليلا نادرا اليوم قد يكون كثيرا غامرا غدا ، وما يكون قليلا نادرا فى هذه البيئة قد يكون شائعا فى مجتمع آخر وهذه التعميمية التشريعية هى ما نص عليه الأصوليون بقولهم « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » فاذا ورد نص شرعى عام وجب العمل بعمومه بقطع النظر عن كل اعتبار آخر ، فلا نظر للسبب الذى ورد من أجل النص ، ولا للواقعة التى جاء النص بسببها (٢) .

فالنهى عن الزنى يلزم نساء مكة وغيرهن ، ويلزم الحرائر والاماء ، ويلزم النساء فى هذا العصر والنساء فى غيره ، بل يلزم الرجال أيضا ما دام النهى لا يدل على تخصيص النساء بذلك واستقلالهن به .

وتحريم مالم يكن سائدا فى جزيرة العرب وما لم يكن قاعدة لها مكانها وثبوتها يدل فى ذاته على « عالمية الاسلام » مكانيا من ناحية وعلى « خلود الاسلام » زمانيا من ناحية أخرى : فالزنى فى وقتنا الحاضر وخاصة فى الغرب أصبح مظهرا من مظاهر المدنية .

وحين أشرق نور الاسلام كان الزنى منتشرنا انتشارا واسعا فى كثير من المناطق والدول المحيطة بجزيرة العرب : فهيرودوتس المؤرخ يروى أن كل امرأة طلع عليها النور فى مدينة بابل محتوم عليها ان تذهب مرة فى العمر ناحية هيكل الزهرة (مابيننا) فتواقع أجنبيا ، ولا يسوغ للمرأة بعد أن تكون اتخذت لها موضعا هناك أن تعود الى دارها من قبل أن يقذفها أحد أولئك الأجانب بحفنة من المال يلقي بها على ركبتيها ثم يستدرجها الى خارج الهيكل الى حيث تكون له ، وأن الأجنبي حين يلقي اليها بالمال يقول لها « أسأل الربة ملقيا أن

(١) اسطر السماء للماضى : ٢٤٢/١ والبخارى ٣١/٨ (كتاب الادب) - باب من لم يواجه الناس بالعاب .

(٢) محمد زكريا البردىسى / اصول العقد ٤١٠ .

تكون عنك راضية » ولم يكن يسوغ للمرأة أن ترفض المال المبذول لها قل أو كثر لأنه يعتبر مالا مقدسا ، ثم كان يجب على المرأة أن تتبذع أول رجل رمى إليها بالجمالة غير رادة أو ممتحنة انسانا كائنا من كان (١) .

وكانت أخلاقيات الدول المحيطة بالجزيرة العربية أشد انحطاطا ، وأضرى سقوطا : ففي الدول الرومية الشرقية ، وعلى كثر مصائب الرعية ازدادت الاتاوات ، وتضاعفت الضرائب حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة ، ويمقتونها مقتا شديدا ، ويفضلون عليها كل حكومات أجنبية . . وقد حدث اضطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢ في الاضطرابات ثلاثون ألف شخص في العاصمة .

وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه ، ووصلوا في التبذل إلى أحط الدرجات ، وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أى وجه ثم انفاقه في الترف والترف وإرضاء الشهوات .

ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق حتى أصبح الناس يفضلون حياة العزوبة على حياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية ، وكان العدل كما يقول (سبيل) . يباع ويساوم مثل السلع وكانت الرشوة والخيانة تنال من الأمة التشجيع . يقول « جيبون » في أواخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحه عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم الا ذبولا (٢) .

أما فارس التي شاطرت الروم في حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم ، كان أساس الأخلاق مشرذعا مضطربا منذ عهد عريق في القدم ، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش حتى ان يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته ثم قتلها ، وأن بهرام جوبين الذي تملك في القرن السادس كان متزوجا بأخته . . ولم يكن هذا الزواج يعد معصية عند الإيرانيين ، بل كان عملا صالحا يتقربون به إلى الله (٣) .

وكان الفرس يعبدون النار . وشيعة النصارى تحريف من مذهب

(١) جان أمل ريك : مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوى ١٥ .

(٢) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤ .

(٣) السابق ٣٠ .

والقصة - وان غلب عليها الخيال ، وظهر فيها بصمات قصة الذبيح اسماعيل - تصور مدى حرص العربي على اكرام الضيف ، وخشيته المعرة اذا وارد ضيفه بلا ا طعام .

واذا كان البغى والظلم من أبرز صفات مجتمع الجاهلية فانه لم يخل من النجدة والمروءة والأريحية ، ويدل على ذلك قصة حلف الفضول . وتتلخص القصة كما روتها كتب السيرة في أن قبائل من قريش هي بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة تداعت الى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه ، فصنع لهم طعاما ، فتعاهدوا وتعاهدوا على أن لا يجندا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلومه ، فسمت ذلك حلف الفضول .

وسبب عقد الحلف أن العاص بن وائل استرى بضاعة من « زبيدي » وماطله في ثمنها وامتنع عن الدفع ، فاستعدى عليه بعض الناس فلم ينصروه لشرف العاص ومكانه فيهم . فوقف الرجل على جبل أبي قبيس مطلع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، وأنشد شعرا يعرض فيه أمره ومظلمته ، ويدعو الناس لنصره ، فهب الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ؟ ثم كان الحلف في دار عبد الله بن جدعان . وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، لأنهم قالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر .

وقد شهد محمد عليه السلام الحلف في شبابه . وعن طلحة بن عبد الله ابن عوف الزهري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به في الاسلام لأجبت (١) » .

نعم لم يعدم المجتمع الجاهلي هذا « الصوت الآخر » الذي قد ينتصر علانية على رؤوس الأشهاد ، وقد لا يكتب له النصر ، وقد يستتر أصحابه ، ولكنهم على أية حال - يؤدون دورا في صالح الفضيلة والمروءة والأريحية بقدر ما يستطيعون .

وقد ظهر ذلك في تصرفات بعض القريشيين - على كفرهم - تجاه النبي والمسلمين . لقد قاومت قريش دعوة الرسول عليه السلام ، وطاردوه ، وضيقوا عليه الخناق ، وعذبوا أصحابه ، وقتلوا بعضهم ، ولكن كان أشد ألوان القهر ما عرف باسم « صحيفة المقاطعة » . فقد كتب القريشيون صحيفة تعاهدوا فيها

(١) ابن هشام ١/١٣٨ ، وانظر الجزء ١٩ من الأغاني (٦٥٩٧ - ٦٦١٦) حيث استوفى روايات متعددة ومختلفة في سبب الحلف والمشاركين فيه واثاره ، وذكر أن سن النبي آنذاك كانت ٢٥ سنة .

ألا ينادحوا بنى هاشم وبنى المطلب ، ولا يسايعوهم ولا يكلموهم ، ولا يجالسوهم حتى يسلموا اليهم محمدا عليه السلام . وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة .

وانحازت بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم - الا أبا لهب وولده فائهم ظاهروا قریشا على بنى هاشم - فصاروا فى شعب أبى طالب محصورين مضيقا عليهم أشد التضيق نحووا من ثلاث سنين ، وقد قطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون الا من موسم الى موسم حتى بلغهم الجهد .

وكانت أيام هذا « العزل الاجتماعى » أشد الأيام على نفس الرسول والمسلمين . ولكن من خلال ظلام هذه المحنة ، ومن خلال ركامات الضيق والجوع والأسى ظهرت صور من الرجولة والبرورة والشهامة : بعضها مستتر ، وبعضها ظاهر للعيان لا يبالى بعنجهية أبى جهل وأبى لهب وأمثالهما ممن تولوا كبر هذه الجريمة الفادحة .

كان هناك حكيم بن حزام تأتية العير تحمل الحنطة من الشام فيوجه بعضها - تحت ستار الظلام - الى الشعب ، ويضرب أعجازها فتدخل الشعب فيأخذ المحصورون ما عليها من الحنطة .

ومثله كان هشام بن عمرو : يوقر البعير طعاما حتى اذا أقبل به فم الشعب خلع خطاه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثم يأتى به قد أوقره بزا أوبرا فيفعل به مثل ذلك .

ولم يكتف الرجل بذلك بل سعى الى اكسرام القوم لنقض الصحيفة ، واستجاب له زهير بن أبى أمية ، ومطعم بن عدى وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب . ونجح الرجل فى مسعاه ، وشقت الصحيفة وانتهت بذلك أشق محنة واجهت المسلمين . (١)

ولم يغفل المجتمع الجاهلى كذلك من صدق مع النفس ، وصدق مع الآخرين وتخرج من الكذب والميل : فعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما - أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل اليه فى ركب من قریش وكانوا تجارا فى الشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - مهادنا فيها أبا سفيان وكفار قریش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجماته فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ، فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً ، فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم : انى سائل هذا عن هذا

(١) راجع ابن هشام ٣٥٦/١ وامتاع الاسماع للمفريزى ٢٥ .

الرجل ، فان كذبنى فكذبوه ، فو الله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عليه . ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسميه فيكم ؟ قلت هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت لا . قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال - ولم يكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة - قال : فهل قاتلتبوه ؟ قلت نعم . قال : فكيف كان قتالكم أيام ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال : ينال منا ، وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشرکوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف والصلة (١) .

فأبو سفيان - على كفره - يستنكف أن يكذب ، ويمنع الحياء من الكذب فيصور ما عليه النبي ، وطبيعة دعوته دون أن يميل ، على الرغم من أنه كان لا يزال على الكفر وعبادة الأصنام .



قيسات من الفضائل في ظلمات من الرذائل بعضها فوق بعض : فمجتمع الخوف والدم والرعب لم يخل من الشجاعة والشهامة والنجدة وآداب الفروسية حتى عند كثير من صغاليك العرب .

ومجتمع الجفاف والقحط لم يخل من الكرم والاعتزاز بالضيف .

ومجتمع الميسر والأزلام والخمر لم يخل من رجال حرما على أنفسهم الخمر في الجاهلية لأن الأحق هو « الذي يستر عقله بيده » .

لقد كان مجتمعا من المتناقضات المتضاربة ، والتناقض كان بينا غير خفى بين كثرة تسير في طريق الظلام ، وقلة عرفت الحد الأدنى من الفضائل الإنسانية ولكن كثيرا من الفضلاء من هذا المجتمع الجاهلي لم يكونوا أسوياء على طول الخط فظهر التناقض أو الانقسامية في قائمة القيم الواحدة في الشخصية الواحدة قبل أن يسرى نور الاسلام الى هذه النفوس فيغسل قلوبها ، وينقى أعماقها من جذور الشرك : فعبد الله بن جدعان ، الرجل الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وعقد حلف الفضول في بيته : حلف النجدة ومناصرة المظلوم المضعوف . الحلف الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : بعد أن بعثه الله

(١) البخارى ٥/١ (باب : كيف كان بدء الوحي) .

نبيا ورسولا » لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به
حمر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لأجبت » (١) .

وهو الرجل الذى قالت عنه عائشة « كان فى الجاهلية يصل الرحم ،
ويعطى المسكين » (٢) .

هذا الرجل المشهم الكريم القوى الشجاع استحل لنفسه أن يكون نخاسا
يتاجر فى أحط تجارة وهى الاعراض : فكان له ست جوار يزين ويبيع
أولادهن (٣) .

وهذه البقية الباقية من الفضائل فى مجتمع الجاهليين وإن تلبست
بالروح الجاهلى ربما كانت أقباسا تسربت الى النفس الجاهلية من ديانة ابراهيم
وهى الحنيفية السمحاء ، أو ربما من اليهودية والمسيحية ، وقد كان لهاتين
الديانتين مكانهما فى جزيرة العرب فكانت اليهودية فى بلاد اليمن ٠٠ وكانت
أيضا يترتب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع اسرائيليين فارقوا
الشام حين الاضطهادات التى كانت تتوالى على اليهود فى شمال صنعاء وفى
جهات من البحرين وفى الحيرة لما تنصر النعمان ، وفى قبائل من طيء وفى
عرب الفساسنة بالشام لمجاورتهم المنتصرة من الروم المتدينين بهذا الدين (٤) .

وكان للمسيحية مكانها أيضا فى جزيرة العرب ، ولكنها كانت أضعف
من اليهودية تأثيرا فى نفس العربى « لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام
المسيح صلوات الله عليه هى السلم والاعضاء والابتعاد عن الحروب . ولم يكن
العرب مبتعدين عنها . ولذلك لما جاء عدى بن حاتم الطائى وافدا على رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - قال : انى على دين المسيح فقال له « ألم تكن تأخذ
المرباع من غنائم قومك ؟ » وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شئ من الدين
المسيحى ، ولا اليهودى ، لأن اليهودى يحرق كل ما للوثنيين ، ولا ينتفع به
والمسيحى يبتعد عن الحرب (٥) .

أما سائر العرب فكانت بعد اسماعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده
أى أن اسماعيل - عليه السلام - بنى الكعبة ، وجعلها مطافا - يحجها أولاده
فلما كنروا واحتاجوا الى مبارحة مكة والانتشار فى أجزاء الجزيرة كانوا
يأخذون معهم شيئا من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثرا من آثار بركتها ،

(١) أنظر ص ١١ من هذا البحث ، وأنظر كذلك ابن هشام ١٣٨/١ .

(٢) صحيح مسلم ٤٨٩/١ (باب من مات على الكفر) .

(٣) أنظر ص ١١ من هذا البحث . والخوفى المرأة فى الشعر الجاهلى ٣٩٩ .

(٤) الخضرى السابق ٥٣/١ .

(٥) السابق ٥٤/١ .

فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة ، فانتشر بذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الى المعبود الأعظم .

ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي الى بلاد الشام ، ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب منها مالت نفسه الى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئا وأقامها على الكعبة التي كان من ساداتها ، ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وكثرت بعد ذلك الأصنام حول الكعبة حتى بلغت عدة مئات - ٠٠٠ وكانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقادها أنها آلهة ، وإنما لتقربهم الى الله سبحانه وتعالى كما قال في الكتاب « ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى » (١) .

فالمسيحية واليهودية والابراهيمية كانت لها مكانها في جزيرة العرب على اختلاف في قدر الانتشار ، ومدى تمسك أصحابها بها . مع ملاحظة أن عبادة الأصنام كانت نتيجة غالبة سيئة لهدف طيب نبيل هو حب الكعبة وحب البيت الحرام والبلد الحرام . على أن عبادتها لم تكن مقصودة لذاتها كما ذكرنا ، بل كانت تعبد كوسيلة تقربهم الى الله .

ولكن الذي لا شك فيه أن هذه الديانات غرست غير قليل من القيم في نفوس العرب ، وإن تلبست بغير قليل من الانحراف كما ذكرنا سابقا .

وفى هذا المقام علينا ألا ننسى منبعا آخر من منابع هذه القيم وهو الفطرة الانسانية ، وأصلها كما قال أبو مسلم والقاضي أبو بكر « من الأخذ بما يرشد اليه العقل في الاعتقاد والعمل ، ٠٠٠ والنظر المحض في الآيات الدالة على وجود الصانع ، ووجوب شكره ٠٠٠ والتمييز بين الحسن والقبيح وبين الباطل والصحيح بالنظر في المنافع والمضار » (٢) .

وهذه الفطرة لو تخلت عنها عوامل الافساد والاطلام والقهر والاجبار لاستطاعت أن تسير في طريق الحق ٠٠٠ انها الفطرة التي تحدث عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه وأبواه يمجسانه ، كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء . هل تجدون فيها من جدعاء » .

ومن الذين اهتموا باليقين في الجاهلية : ورقة بن نوفل الأسدي الذي رفض عبادة الأصنام واعتنق النصرانية ، وصار عالما بها .

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي لم يدخل يهودية ولا نصرانية ولكن

(١) انظر الخضرى السابق ٥٤/١ - ٥٥ .

(٢) تفسير المنار ٢/٢٧٨ .

فارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤدة ، وسفح أحلام قريش وأصنامها .

ومن هؤلاء : عثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش (١) .

ولكنها - كما قلت - كانت حالات قليلة في مجتمع الجاهليين وفي هذه الحالات - كما ذكرت - ما تلبس فيها الخير بالشر ، والفضيلة بالرديلة .

★ ★ ★

ثم جاء الإسلام - خاتماً للأديان - وهذه الخاتمة تقتضي أن يكون أكمل الأديان وأوفاهما بحاجات الانسانية ، وأبرعها في معالجة الأدواء التي حوتها (قائمة القيم الجاهلية) واختلف موقف الإسلام من هذه القيم تبعاً لنوعيتها .

١ - قابل بعضها بالرفض ، وقضى عليه قضاء مبرماً .

٢ - وأقر بعضها وشجعه ودعا إليه .

٣ - وسما ببعضها الآخر : فعاد بالنفع على الدين والناس .

وكانت عدة الإسلام في كل أولئك : احياء الفطرة السليمة والترهيب والترغيب ، والتدرج في التشريع لتهيئة النفس لقبول التكليف وأخذ النفس بالأوامر وتجنب النواهي على ما سنعرف بالتفصيل ان شاء الله .

فموقف الإسلام اذن من قائمة القيم الجاهلية كان موزعاً بين هذه الثلاثة :

١ - التحريم .

٢ - الاقرار .

٣ - التسامى والاعلاء .

وستحاول في السطور الآتية تفصيل القول في هذه المواقف الثلاثة :

١ - دعا الإسلام الى وحدانية الله تعالى ، ورفض كل ألوان الشرك ، واعتبر عبادة الأصنام كفراً حتى لو كان تأويل هذه العبادة أنها تقربهم الى الله زلفى .

وقضية وحدانية الله يتعلق ويرتبط بها « وحدة النبوة الخاتمة » بالنسبة لمحمد بن عبد الله عليه السلام . والتفريط فيها تفريط في أساس القضية الأصلية وهي الوحدانية وافراد الله بالعبادة ، لذلك رفض النبي عليه السلام أن يجامل مسيلمة سيد بنى حنييفة بكلمة - على قوته وقوة قومه - عن ابن عباس

(١) انظر الخضرى السابق ٦٠/١ - ٦١ :

رضى الله عنهما قال « قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، فجعل يقول : ان جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته ، فقدمها في بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه النبي صلى الله عليه وسلم - ومعه ثابت بن قيس ابن شماس - وفي يد النبي - صلى الله عليه وسلم - قطعة جريدة حتى وقف على مسيلمة في أصحابه ، وقال « لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها ، ولن أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وانى لأراك الذي أريت فيك ما أريت ، وهذا ثابت يجيبك عنى » ثم انصرف عنه . فقال ابن عباس : فسألت عن قول النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرني أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما ، فأوحى إلى في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة (١) .

وعلى نفس الطريق رفض أبو بكر - رضي الله عنه - أن يحنى رأسه أمام تيار عاصف طالب باسقاط ركن من أركان الاسلام ، وكان منطلق الرفض أعصف من تيار المطالبة وأعتى « والله لو منعوني عقاب بعير كانوا يؤدونه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقاتلتهم على منعه . . . والله لا أرضى منهم الا بالحرب المجلية والخطة المخزية (٢) » .

وكما حرم الاسلام الشرك بالله بكل ألوانه حرم كذلك السرقة وشرب الخمر وكان تحريم الخمر درساً انسانياً خالداً في فلسفة التقنين وكان « التدرج التشريعي » - كما سنعرف - هو أقوم السبل لاقلاع هذه الأمة المخمورة عن الخمر . وكان جوابهم بلسان الحال قبل لسان المقال « انتهينا . . . انتهينا » من حين سمعوا قوله تعالى آية التحريم النهائي للخمر « . . . فهل أنتم منتهون » .

وأقر الاسلام ما رأى فيه فضائل انسانية اتبعها القوم قبل بعثة الرسول فالمجتمع الجاهلي كما عرفنا لم يكن يخلو من قيم فاضلة : لقد رأى النبي عليه السلام في حلف الفضول مثلاً أعلى من الأحلاف الانسانية ، وشهده في دار ابن جادعان ، قبل بعثته ، وشهد له بعد بعثته فقال - كما ذكرنا من قبل -

(١) . صحيح مسلم ٣٢/٥ ، كتاب الرؤيا () .

(٢) أنظر البخاري ١١٥/٩ (كتاب الاعتصام - باب الاقتداء بسنة رسول الله عليه السلام - وراجع كذلك : عبد المتعال الصعيدي في كتابه : القضايا الكبرى في الاسلام (٧٣ - ٧٥) قال عبد الله بن مسعود « فأما الخطة المخزية فإن يقرأوا بأن من قتل منهم في النار ، ومن قتل منا في الجنة ، وإن يدوا قتلانا ، ونفسم ما أخذنا منهم ، وإن ما أخذوا منا مردود علينا وأما الحرب المجلية فإن يخرجوا من ديارهم » .

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الاسلام لأجبت » .

★ ★ ★

٣ - ومن القيم والقدرات والعادات ما أبقي الاسلام على منبعه وأصله الدافع ، ولكنه وجه مسارها الوجهة الانسانية الحيرة الصحيحة . وهو يشبه الى حد بعيد ما يسميه النفسيون « التسامي أو السمو أو الاعلاء » .

ولكن يجب أن يلاحظ أن عملية الاعلاء لا تنجح في صرف الطاقات المكبوتة بطريقة ناجحة ملائمة الا اذا أعيد تنظيم الشخصية بأكملها على أساس جديد لتقوية جميع نواحيها ، وتحقيق وحدتها وتكاملها بتأثير المثل الأخلاقية العليا والتربوية السديدة الصالحة هي التي تحقق اعلاء الغرائز ، وتنقية الميول مما يشوبها من عوامل الأثرة والضعف وذلك بتحقيق وحدة الشخصية وتكاملها وبتقوية الإرادة وتوفير وسائل ضبط النفس (١) .

وحقق الاسلام هذا الاعلاء بربط الشخصية بالدين وقيمه التربوية من ناحية . وربط العمل بالجزء من ناحية ثانية . وتقييم العمل على أساس النية من ناحية ثالثة .

ومن امثلة الاعلاء : موقف الاسلام من الشعر : والمعروف أن العرب أمة شاعرة ، وأن الشعر ديوان العرب سجلت فيه أيامها وتاريخها ومعاشها ودافعت به ، وبه هاجمت ، وبه مدحت ، وبه تغزلت . وكانت القبيلة تقيم الأفراح اذا ما بزغ فيها نجم شاعر : فالكلمة عند أمة البلاغة والفصاحة كان لها فعل السحر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم - اذ قال « ان من البيان لسحرا » .

والشعر الجاهلي - شأن الأدب في كل أمة وخاصة في عهد الطفولة الأممية - كان فيه - من ناحية المضمون الفكري ، الوضيء والوضيع : كان فيه الغزل الفاحش كما كان فيه الغزل العفيف . وكان فيه الهجاء المقلد ، كما كان فيه التغنى بالمناقب والخصال الانسانية العليا . وكان فيه من الأوصاف ما هو موغل في الكذب كما كان فيه ما يتدفق بالصدق (٢) .

ونزل قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ألم ترأنهم في كل واد يهيمون - وأنهم يقولون ما لا يفعلون - الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا

(١) د . يوسف مراد : مبادئ علم النفس ١٩٥٣ .

(٢) من نماذج الشعر الفاحش ما نظمته امرؤ القيس في يوم دارة جلجل (انظر معلقته في

شرح القصائد المشر للتبريزي ص ١٣) .

الله كثيرا ، وانتصروا من بعد هذا ظلمنوا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينتقلبون (١) .

وقد نزلت الآيات الثلاث الأولى . والشعراء . . . يفعلون « ابتداء » . وفيها حكم عام صارم على الشعراء ، فيبكي الشاعر المسلم « عبد الله بن رواحة » ، فنزلت الآيتان الأخريان تستثنيان من هذا الحكم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

فالشعر لم يحرمه الاسلام على اطلاقه ، وقد قال حجة الاسلام أبو حامد الغزالي « أما الشعر فكلام حسن ، وقبيحه قبيح الا أن التجرّد له مذموم . . . وانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره (٢) .

فمدار التحريم والتحليل هنا هو المضمون الفكرى للشعر لا فن الشعر ذاته . فإذا تضمن معنى خبيثا يسيء الى الناس أو الدين فهو حرام ، والا فهو من قبيل المباح الذى لا حرمة فيه ، ونستطيع أن نستدل على صحة ما ذهبنا اليه بما يأتى :

(أ) ما ينسب اليه - صلى الله عليه وسلم - من أحاديث تمجد بعض الشعر وتعظمه ، من ذلك قوله : إن من الشعر حكمة » (٣) وقوله - عليه السلام - « أشعر كلمة تكلمت بها العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل (٤) .

(ب) سماعه الشعر : فقد روى عمرو بن الشريد عن أبيه قال « ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شيء ؟ قلت نعم : قال هيه ، فأنشدته بيتا ، فقال : هيه ، ثم أنشدته بيتا حتى أنشدته مائة بيت » (٥) .

(ج) انشاده فى بعض المواقف أبياتا من الرجز والشعر فيروى أنه عليه السلام كان يمشى اذ أصابه حجر فعثر قدميت أصبعه فقال :

هل أنت الا أصبع دميت . . وفى سبيل الله ما لقيت (٦) .

(د) طلبه من حسان أن يكون لسان المسلمين الناطق وأن يقوم بهجاء

(١) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧ .

(٢) الاحياء ١٥٦٩/٩ .

(٣) البخارى ٤٢/٨ (كتاب الأدب) والاحياء السابق نفس الصفحة .

(٤) صحيح مسلم ١١٠/٥ (كتاب الشعر) .

(٥) السابق نفس الصفحة .

(٦) البخارى السابق ٤٣ .

الكفار رداً على أهاجيهم (١) وكان يشجعه ويشنئ عليه . ويروى أنه جابو عنه أبا سفيان بن الحارث :

هجوت محمداً وأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جزاؤك عند الله الجنة
يا حسان . فلما قال حسان :

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقساء
قال له : « وراك الله حر النار » فقصى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة ،
وسبب ذلك شعره (٢) .

(هـ) وكان يشجع عبد الله بن رواحة ، ويدعو له ، ويقول عنه للمسلمين
« إن أخا لكم لا يقول الرفث هو عبد الله بن رواحة » .

وأخرج الزبير بن بكار عن هشام بن عروة عن أبيه قال : -

ما سمعت بأحد أجراً ، ولا أسرع شعراً من عبد الله بن رواحة يوم يقول
له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « قل شعراً تقتضيه الساعة ، وأنا أنظر
إليك » ثم أبده بصره ، فانبعث عبد الله بن رواحة يقول :

أني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم ما إن خانني بصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن كالمرسلين ونصرا كالذي نصرنا

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : وأنت فثبتك الله . قال هشام
ابن عروة : فثبتته الله أحسن ثبات ، فقتل شهيداً ، وفتحت له أبواب الجنة
فدخلها (٣) .

فالاسلام لم يوقف تدفق الطاقة الشعرية عند الشعراء كما اعتقد البعض
ولكن نهيه كان منصبا على الشعر الفاحش الذي يخرج على قواعد الدين والخلق،
أو بتعبير آخر أصبح الشعر « ملتزماً » بالأيديولوجية الاسلامية الانسانية بعد
أن كان يسير في طريق فوضوية ينهل من مناهل العدا والأنانية والتطلع
العدواني والغريزة الحمقاء .

وتصدق هذه المقولة بوضوح على شخصية شاعر مثل عبد الله بن الزبير
الذي يعد من أشهر شعراء قريش ، وكان من أشد الناس على رسول الله صلى

(١) الاحياء السابق نفس الصفحة .

(٢) العمدة ٥٣/١ .

(٣) الزبير بن بكار . الاخبار الموقيات ٦٣٣ .

الله عليه وسلم وعلى أصحابه بلسانه ونفسه ، ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هرب ابن الزبيرى مع شاعر آخر هو هبيرة بن أبى وهب الى نجران خوفا من النبى عليه السلام (١) .

ويظهر انه كان مطبوعا على الهجاء ، عدوانى الطبيعة ، يدل على ذلك قصة أوردها ابن سلام الجمحى ، وخلاصتها : أن الناس أصبحوا يوما بمكة وعلى دار الندوة مكتوب :

الهى قصيا عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحم بحثا لا خليط له وقولها رحلت غير مضت غير
فأنكر الناس ذلك وقالوا : ما قالها الا ابن الزبيرى ، أجمع على ذلك رأيهم وكادوا يقطعون لسانه (٢) .

فهذا الهجاء الذى لا مبرر له ، حيث لا ثار ولا خلاف فى الدين والمعاش ، واجماع قريش على أن مثل هذا البذاء الفاحش لا يأتیه الا ابن الزبيرى . . . كل أولئك ينم عن « نفسية عدوانية » بطبعها ، ويفسر لنا سلاطة لسانه وفحشه على المسلمين والاسلام ومحمد عليه السلام .

فلما أسلم « سما » الاسلام بطاقتة الشعرية القادرة وصار ابن الزبيرى لسان صدق وحق فى الدفاع عن الاسلام ، وحث المسلمين على الجهاد ، ورتاء من استشيد منهم . ومن أجمل ما نظمه ما قاله فى رسول الله عليه السلام حين أسلم :

يا رسول المليك ان لسانى رائق ما فتقت اذ أنا بور
اذ أجارى الشيطان فى سنن النفى ومن مال ميله مشبور
آمن اللحم والعظام بما قل مت فنفسى الشهيد أنت القدير
ان ما جئتنا به حق صدق ساطع نوره مضى منير
جئتنا باليقين والبر والصند ق ، وفى الصدق واليقين سرور
أذهب الله ضلة الجهل عنا وأتانا الرخاء والميسر (٣)

وفى العرب كما عرفنا قوة وحماسة وشجاعة وطبع مغروس فى أعماقهم باستعمال القوة فى معالجة أمورهم ، فمنهم من افتخر بالظلم ، حتى كاد الظلم يكون قاعدة حياة ، وسلكت « غريزة المقاتلة » مسلكها المحند العائى المنحرف الذى صوره الشاعر فى قوله :

(١) أسد الغابة ٢٣٩/٣ وانظر الشعر والشعراء لابن ننبية ١٤٨/١ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ٢٣٦/١ .

(٣) أسد الغابة السابق ٢٣٩ .

وأحيانا على بكر أحيينا إذا ما لم نجد الا أحيانا

هذه الغريزة المقاتلة القاتلة لا بد أن تستغرق بالاعلاء « والا صارت قدرة » مدمرة قد تكمن الى حين - اذا اكتفينا بالتهدة أو بالمسكنات المؤقتة - ثم تعود كأضرى ما تكون القدرة ، ولكن الاسلام « سما » بهذه الغريزة حين استغرقها في الجهاد في سبيل الله : فبعد سنوات من المسألة والعذاب والمعاناة نزلت أول آية تاذن بالجهاد دفاعا عن النفس وعن العقيدة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » (١) . ثم توالى بعد ذلك عشرات من الآيات تأمر بالقتال ما اقتضى الأمر دون عدوان ، وتنظم شئونه وشروطه وتصور أحوال المسلمين فيه . ومن هذه الآيات :

١ - وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (٢) .

٢ - واقتلوهم حيث ثقتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (٣) .

٣ - ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون (٤) .

٤ - فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٥) .

٥ - وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا (٦) .

٦ - الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا (٧) .

٧ - يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ،

(١) الحج ٣٩ .

(٢) البقرة ١٩٠ .

(٣) البقرة ١٩١ .

(٤) آل عمران ١٥٧ .

(٥) النساء ٧٤ .

(٦) النساء ٧٥ .

(٧) النساء ٧٦ .

ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة. فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم وبئس المصير (١) .

٨ - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم (٢) .

٩ - قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٣) .

١٠ - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤) .

ومن هذه الآيات نستطيع أن نتبين في سهولة انسانية الجهاد الاسلامي واخلاقيته .

١ - فهو ليس قتالا للتخريب والتدمير والغنم والسلب ، ولكن في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

٢ - وهو قتال كان في أغلبه دفاعيا : دفاعا عن النفس والأرض والعقيدة. (فان قاتلوكم فاقتلوهم) .

٣ - والسلام هو الأصل أما القتال فهو الاستثناء أو « تصرف الضرورة » بدليل أن المسلمين ظلوا يتحملون الأذى والهوان ثلاثة عشر عاما ، ولم يؤذن لهم في القتال الا بعد ذلك ثم بعد الأمر بالقتال (ان جنحوا للسلم فاجنح لها) .

٤ - والمؤمن بعد ذلك مطالب أن يكون انسانا في القتال ، فلا يحرق ، ولا يدمر ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل شيخا ولا طفلا ولا رجل دين .

وعليه من ناحية أخرى أن يكون شجاعا قوى الشكيمة ، صعب الملتقى ثابت القدم لا يعرف الى الفرار سبيلا فلا يتراجع الا متحرفا لقتال أو متميزا الى فئة .

٥ - وهو في القتال يجب أن يكون خريضا على تحقيق احدى الحسينين :

(١) الانفال ١٥ ، ١٦ .

(٢) الانفال ٦٠ ، ٦١ .

(٣) التوبة ٢٩ .

(٤) آل عمران ١٦٩ - ١٧٠ .

النصر أو الشهادة : فان كانت الأولى : فقد جعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، وان كانت الثانية فهو في الجنة من الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله .

٦ - ولكن على المؤمن حتى في فترات السلم أن يكون على أهبة الاستعداد لكل قتال طارئ مفاجيء ، فيعد من ضروب القوة ما يستطيع ومن الحكم البالغة « ان الاستعداد للحرب . هو أضمن الوسائل لتحقيق السلم » .

بكل هذه الملامح اتسم « الجهاد الاسلامي » الذي كان البديل القويم للقتال الجاهلي العدواني أو ان شئت فقل هو التسامي والاعلاء من جانبه :

(أ) من ناحية الوسيلة والطريقة : فالمسلم عليه أن يكون « انسانا » متسلحا بروح الاسلام الأخلاقية في التعامل مع أعدائه أثناء القتال وبعده .

(ب) من ناحية الهادفية : فلم يعد القتال في سبيل السلب والنهب والماء والمرعى والتشور على طريقة « بغاة ظالمين وما ظلمنا » .

ولكنه أصبح « في سبيل الله » وهو تعبير جديد على المجتمع الجاهلي يمكن أن يكون مرادفا لتعبير آخر هو « الرسالة الانسانية » و « سبيل الله » من التعبيرات التي ألح عليها القرآن ، وكررها أكثر من مائة مرة .

وبهذا « الاعلاء » استطاع النبي عليه الصلاة والسلام - عمليا - أن يصنع من « البدوى العدواني » مجاهدا من الطراز الأول ، واستطاع النبي أن يفرس في نفس العربي حب الجهاد في سبيل الله : شغل بالجهاد نفسه ، وملأ قلبه . . وشغل وقته ، فكانت بدر وأحد والخندق والفتح وحنين وتبوك . . عدا أكثر من ثمانين سرية خرجت للجهاد في حياة النبي عليه السلام .

وجاء أبو بكر فعقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين بعد موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطرق أبواب فارس والروم . وفي عهد عمر كانت نهاية الأسدين فارس والروم ، كما فتحت مصر ، ومصرت الأمصار .

لم يعد عند العربي المسلم « فراغ » من الوقت يشغله بغير الجهاد . . ولم يعد عنده فراغ نفس يشغله بغير نشر كلمة الله في آفاق الأمصار الممتدة في جهات المعمورة الأربع .



وعودا على بدء أذكر القارئ بخلاصة موقف الاسلام من أخلاقيات المجتمع الجاهلي ، أو ما أسميناه بقائمة القيم الجاهلية . وقد رأينا أن موقف الاسلام يختلف باختلاف طوابع هذه القيم على النحو التالي :

١ - فكان هناك ما باركه الاسلام وأبقى عليه ونماه كالكرم والشجاعة والنجدة

ونصرة المظلوم ، والذي كان مثالها التاريخي الحى حلف الفضول (١) مع
وصل كل أولئك بالمعين الربانى الغنى الثرار .

٢ - كان هناك ما حرمه الاسلام تحريما قاطعا . كالخمر والميسر والأنصاب
والأزلام والغدر والسرقه والزنى .

٣ - وأخيرا كان هناك ما « سما » به الاسلام و « علاه » مع بقاء ما أصله النفى
كالطبيعة القتالية وملكة الشعر .

وارتكازا على هذه المحاور الثلاثة مضافا اليها محور رئيسى رابع هو محور
« الأوامر الاسلامية » ارتكازا على كل أولئك تكونت « قائمة القيم الاسلامية »
التي أخذ المسلمون أنفسهم بها ، واستطاع النبى عليه السلام ومن بعده خلفاؤه
الراشدون أن يصنعوا جيلا تقيا نقيا نشر كلمة الله ، وجاهد بالنفس والمال ،
وكان بخلقه وعلمه قمة لا تنحني لمخلوق ، ولا تلين لهوى فكانوا كما قال عنهم
أستاذهم . استاذ الحياة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم - أصحابى هم
الأنجم الزواهر بأبهم اقتديتم اهتديتم » .

★ ★ ★

وبعد هذه المسيرة الموجزة مع تاريخ القيم الجاهلية وطبيعتها وألوانها -
من صالح وطالح - ومكانها من نفس الجاهلى وفى مجتمع الجاهليين آن لنا أن
نتعرف على طبيعة القيم الاسلامية لنقف على حدودها وسماتها وخصائصها الفارقة
التي تجعل لها ذاتية وكيانا اسلاميا مميزا . وهذا موضوع الفصل الثانى من
هذا البحث .

(١) وهذا يدل على سباحة الاسلام ومرونته وإنسانيته . قال الامام النووى عن أحلاف
الجاهلية « والمخالفة على طاعة الله تعالى والتناصر فى الدين ، والتعاون على البر والتقوى واقامة
الحق فهذا باق لم ينسخ وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « وأيما حلف كان فى الجاهلية
لم يزد الاسلام الا شدة » . صحيح مسلم ٣٩٠/٥ .

الفصل الثاني

خصائص القيم الإسلامية

تمهيد

القيم الإسلامية هي مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحى مع المجتمع ، وعلى التوافق مع أعضائه وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة .

وقد سبق أن ذكرنا أن الآيات الأولى التي نزلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - لم تكن دعوة الى القراءة فحسب . . ولم تكن دعوة الى تلقى العلم وكفى . . ولكنها كانت الى ما هو أشمل وأعمق . . كانت دعوة الى التحرك الديناميكي الناشط للبناء والابداع استجابة للداعى « الذى خلق . . خلق الانسان من علق » وكانت « العلمية الحركية الناشطة » من أعظم الاسس التى اعتمدت عليها القيم الانسانية فى الاسلام .

والقيم الإسلامية فى مجموعها نوعان :

١ - القيم السلبية : أو قيم التخلى : وتتجلى فى هجر ما نهى الله عنه من شرور وموبقات كشرب الخمر والزنى والكذب والسرقة والزنى . . الخ .

٢ - القيم الايجابية : وهى القيم التى كلف المسلم بالتحلى بها وأخذ نفسه بمقتضياتها مثل : الصدق والأمانة والرحمة وصلة الرحم والكرم وحسن الجوار .

ومن فضول القول أن ننبه الى أن المسلم مطالب بالنوعين معا . . مطالب بترك ما نهى الله عنه ، ومطالب بفعل ما أمر الله به « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا . . » (١) .

وأغلب القيم الايجابية يتضمن نهيا عن نقيضها والعكس صحيح فالأمر بالصدق مثلا يتضمن نهيا عن الكذب ، والنهى عن السرقة يعد أمرا ضمنيا بالأمانة . . الخ .

والقيم الإسلامية اتسمت بسمات وخصائص متعددة منها ما يتعلق بمنهج

التكليف وطريقته ، وأغلبها أساسى أصيل لا ينفصل عن طبيعتها وجوهرها
وهذه السمات والأبعاد تكاد تتلخص فيما يأتى :

- ١ - التدرج التكليفى .
- ٢ - الوسطية العادلة .
- ٣ - الهيمنة التشريعية .

وسنحاول فى الصفحات التالية عرض هذه السمات وبيان مظاهر العظمة
فيها :

أولا : التدرج التكليفى

التدرج سمة من أبرز سمات الوجود الحى : فخلق الأحياء يتكامل تدريجيا
نطفة .. علقه .. مضغة .. عظام تكسى لحما .. الخ « ولقد خلقنا الانسان
من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه ،
فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه
خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

والكائن الحى بعد أن يرى نور الحياة يتدرج به الوجود من رضيع الى طفل
.. الى شاب .. الى كهل .. الى شيخ . وهذا ما عرضه القرآن الكريم فى
قوله تعالى « يأياها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم
من نطفة ، ثم من علقه . ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى
الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم
من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى
الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج
بهيج » (٢) .

نعم والأرض هامدة .. يحييها الماء .. ويلقى فيها الحب الذى ينفلق
عن ساق ضعيفة . ثم تنمو وتشتد لتجمل الاوراق والأزهار ، ثم الثمار .. وإيتاء
الأكل .. ثم تنتهى الدورة لتبدأ دورة انبائية جديدة وهكذا ..

ودورات التطور الحضارى ابتداء من العصر الحجري .. لامكان للطفرة فيه
ولكنه اعتمد على « الجرعات الحضارية المتدرجة » ان صح هذا التعبير .
وبين الانسان فى العصر الحجري ، والانسان فى عصرنا الحاضر : عصر الفضاء
والذرة والتكنولوجيا .. بين هذا الانسان الأول والانسان الحاضر ملايين من
السنين لم ينقطع فيها العمل والتجارب والعذاب والنجاح والافاق .

(١) المؤمنون ١٢ - ١٤ .

(٢) الحج ٥ .

فالتدرج اذن هو سنة جوهرية من سنن الحياة • وكان الاسلام - وهو دين الفطرة - على حق حين جعل التدرج والتدريج سمة منهجية من أبرز سماته • لا فى تربية المسلمين على القيم الاخلاقية فحسب بل فى التشريع كله من عبادات الى معاملات الى عقوبات ، واهم ما حققه الاسلام بهذا « التدرج التشريعى » فائدتان :

١ - ضمان تنفيذ العمل (فعلا أو تركا) : بعد أن بهيات النفوس لذلك خطوة خطوة : فالتدرج تيسير يوفر على المسلم الاجهاد والمشقة لذلك كانت « الاستطاعة » شرطا من شروط القيام بالتكليف « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (١) وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : كنا اذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة يقول لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما استطعتم (٢) •

وعن أميمة بنت رقيقة قالت « أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى نسوة بايعنه على الاسلام • فقلن يا رسول الله : نبايعك على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفثه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك فى معروف • فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما استطعتم وأطقتن » (٣) •

والاستطاعة أو الاطاقة من أهم مظاهر التيسير الاسلامى بل هى جوهر هذا التيسير • وهذا التيسير لا يمكن أن يتحقق ، ومن ثم يكون العجز عن التنفيذ أو على الأقل يكون الاعنات والحرص اذا ما نزلت التكاليف طفرة بلا تدرج •

٢ - ترسيخ التكاليف والقيم فى نفوس المؤمنين : فتدريج هذه التكاليف وتوزيعها على مدى زمنى طويل يثبت جذورها فى أعماق المؤمنين ، ويجعله قديرا على حفظها والحفاظ عليها ، حتى تصبح جزءا من كيانه ونسيجه النفسى والعقلى والروحى ، ولو نزلت هذه التكاليف مرة واحدة لأنسى بعضها بعضا •

ولنا فى القرآن المثل الأعلى : لقد نزل منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما فحفظه المسلمون وحافظوا عليه والتفوا حوله وأحبوه واعتزوا به وأخذوا أنفسهم به أمرا ونهيا ، وكان منهم من يتعمد - على قدرته فى الحفظ ألا يحفظ آية جديدة الا بعد أن يأخذ نفسه بالسابقة عليها ويعمل بها فى حياته وحياته أسرته •

(١) البقرة ٢٨٦ •

(٢) مالك : الموطأ ٦٠٨ (كتاب البيعة) •

(٣) السابق : نفس الصفحة •

ان التهيء النفس يجعل النفس تتفيل التكالييف بقبول حسن ، لأن النفس بهذا التهيء تكون قد تفتحت واستعدت للتلقى فيمضى الأمر يسرى فى أعماقها فى سهولة ويسر سريان الدم فى العروق والنور فى الظلمات .

ولأمر ما لم ينزل الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الا بعد سنوات من تحننه شهرا كل عام فى حراء ينقطع فيه عن الناس ويعبد ربه ويتأمل عظمة الله فى سمائه وأرضه بعيدا عن شرور الناس وصراهم ومشكلاتهم (١) .

وقبل نزول أول آية من آيات القرآن الكريم كان محمد ذا نفس نقية وقلب صاف مهيا لتلقى هذا الكتاب العظيم بعد ان انصقلت هذه النفس العظيمة بهذا التحنن وبمهيتين الآخرين :

الأول : صرف الله له عن موبقات الجاهلية ومفاسدها وملاهيها وأصنامها ، وما خصه الله سبحانه وتعالى - به وحماه حتى فى ستره عند بناء الكعبة : اذ أخذ ازاره ليجعله على عاتقه ليحمل عليه الحجارة ، وتعزى ، فسقط الى الأرض حتى رد ازاره عليه فقال له عمه : ما بالك ؟ فقال : انى نهيت عن التعزى (٢) .

الثاني : الرؤيا الصادقة : فعن عائشة - رضى الله عنها - أن أول ما بدأ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة الله به الرؤيا الصادقة : لا يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رؤيا فى نومه الا جاءت كفلق الصبح ، قالت « وحبب اليه الحلوة ، فلم يكن شئ أحب اليه من أن يخلو وحده » (٣) .

وبعد هذه التمهيدات والتهيئات الخلقية والنفسية والروحية كان نزول القرآن حيث التربة معدة لتلقى البذرة الخالدة التى صارت شجرة شامخة آتت أكلها ثمارا دائية القطوف .



والقرآن الكريم - كما أشرنا - لم ينزل فى يوم أو يومين ، ولم ينزل فى عام أو عامين ، بل نزل منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما . فى شكل « جرعات » دينية وخلقية واجتماعية ترتبط بالأحداث والوقائع فكان كالدواء الذى يؤتى نتائجه الطيبة على المدى الطويل وبجرعات قليلة تبعا لمقتضيات الأحوال .

(١) أنظر ابن هشام ٢٤٢/١ ، ٢٤٣ .

(٢) الشفا ٧٣٠/١ .

(٣) ابن هشام ٢٤٠/١ . وأنظر البخارى ٣/١ (باب بدء الوحي) وأنظر ٢١٤/٧ (كتاب

التفسير) .

وكانت قاعدة التدرج التشريعي من أبرز سمات النهج الاسلامي في التشريع وفرض التكاليف مراعيًا في كل أولئك قدرة الناس واستطاعتهم .

وتركزت التكاليف المكية في القرآن على الكليات وأصول العقيدة من توحيد الله وترك عبادة الأصنام وإخلاص العبادة له وحده ، ويذكر الناس بالبعث والجزاء ، ويصف مشاهد القيامة ، ويعرض صور النفخ في الصور والقيام من القبور وتوزيع الصحف ووزن الأعمال والمرور على الصراط ودخول المتقين الجنة ، ودخول الكافرين النار (١) .

فلما انتقل النبي - عليه السلام - الى المدينة ارتفع منسوب التكاليف لتلبي مقتضيات نشأة الدولة الجديدة ، وليتم الشريع الخالد للناس كافة في كل العصور جاءت سور القرآن طويلا بعضها يتكون من مئات الآيات ، وهي تفصل قواعد المعاملات والفرائض والحدود والجهاد والحقوق والقوانين المدنية والتجارية (٢) . فالزكاة مثلا لم تفرض في مكة بل فرضت في المدينة بعد الهجرة بأمد . وصيام رمضان وكذلك زكاة الفطر لم يفرض الا بعد الهجرة بقرابة عام ونصف . والصلاة التي فرضت بمكة في العام الثاني عشر من البعثة ليلة الاسراء والمعراج أتمت ثنائيتها أربعا في المدينة : فعن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها ، قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر (٣) .

ومعنى ذلك أن المسلمين ظلوا قرابة عشر سنوات يصلون ويعبدون الله بغير تحديد الى أن فرضت الصلاة الثنائية قبل الهجرة بعام تقريبا ثم صارت الصلاة رباعية في المدينة (٤) وفي المدينة كانت زيادة التكاليف أمرا منطقيا متفقا مع واقعين :

الأول : هو واقع المسلمين العقائدي : فقد مضى على اسلام أغلبهم أكثر من عشر سنوات ، وهي مدة كافية لصقل نفوسهم وفتح قلوبهم لتقبل كل جديد من التكاليف .

والثاني : هو واقع المسلمين الاجتماعي والسياسي الجديد : فقد أصبح لهم دولة جديدة لها أسسها وأركانها ودستورها وقيادتها . وقد صور القرآن الكريم الفرقا الهائل بين حال المسلمين في مكة وحالهم في المدينة في قوله

(١) أنظر عبد الله شحاتة : علوم القرآن والتفسير ص ٦٢ ، وأنظر كذلك من ص ٦٩ الى ص ٧٤ .

(٢) أنظر السابق ٧٥ - ٨١ .

(٣) البخارى ٩٩/١ (كتاب الصلاة) وأنظر كذلك ابن هشام ١٢/٢ .

(٤) كان الاسراء والمعراج ليلة الاثنين ٢٧ من رجب قبل الهجرة بعام تقريبا (٦٢١ م) . ثم كانت هجرته عليه السلام ووصوله الى المدينة

تعالى « واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ووزقكم من الطيبات لعلمكم تشكرون » (١) .

ولكن التدرج التشريعي يظهر بأجلى صورته وحكمه في تحريم الخمر لقد كان المجتمع الجاهلي مريضاً بشرب الخمر والاقبال عليها وادمانها ، وكان ذلك من أبرز أمراضه الاجتماعية ، يصور ذلك ما ذكرناه سابقاً من أشعار الجاهليين وأدل من كل أولئك قول السيدة عائشة رضى الله عنها . « حتى إذا تاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً » (٢) .

وقد مرت مسيرة تحريم الخمر بمراحل زمنية تمثلها هذه الآيات التي نوردتها بترتيب نزولها :

١ - « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسناً . ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٣) .

٢ - « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » (٤) .

٣ - « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٥) .

٤ - « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلمكم تغفلون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (٦) .

(١) الأنفال ٢٦ .

(٢) البحارى ٤٢/٦ (كتاب فضائل القرآن) .

(٣) النحل ٦٧ .

(٤) البقرة ٢١٩ .

(٥) النساء ٤٣ : وقد ذهب الاستاذ/ عودة في كتابه : التشريع الجنائي الاسلامي : القسم العام ص ٥٠ والقسم الخاص ص ٤٩٨ الى أن آية النساء نزلت قبل آية البقرة ، وهذا غير صحيح . لأن البقرة كانت أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة ونزلت النساء في السنة السابعة بعد الحديبية أما المائدة فنزلت في السنة الثامنة بعد فتح مكة . وقد ألح الشيخ محمد عبده (المنار ٥٠/٧) الى هذا الرأي وان لم يأخذ به . والمشهور ما ذهبنا نحن اليه .

(٦) المائدة ٩٠ - ٩١ .

وهذه الآيات الأربع تمثل موقف الإسلام من الخمر الى أن وصل الى القرار الحاسم بتحريمها تحريماً قاطعاً أي أنها تمثل أربع مراحل تصاعدية في طريق التحريم هي :

- ١ - التوطئة بالتلميح البعيد .
- ٢ - التوطئة بالتصريح المباشر .
- ٣ - التحريم الموقوت .
- ٤ - التحريم النهائي الحاسم .

وسنحاول أن نعرض في ايجاز لكل مرحلة من هذه المراحل حتى نقف على روح الدين الاسلامي وعبقريته في هذه السمة . . سمة التدرج التشريعي :

- ١ - التوطئة بالتلميح البعيد : فالآية ٦٧ من سورة النحل - وهي مكية بلا خلاف تشير الى أن القرشيين يستخرجون من البلح والأعناب حمرا والوانا أخرى من الرزق الحسن . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن في ذلك وجهين : أحدهما : أن تكون منسوخة ، وممن قال بنسخها الشعبي والنخعي . والثاني : أن يجمع بين العتاب والمنة (١) .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، وأراد بالسكر الخمر وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقال ابن العربي : أشبه هذه الأقوال قول ابن عباس ، ويخرج ذلك على أحد معنيين : إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر ، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم ، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا الى منفعة أنفسكم (٢) .

والأقوال السابقة تضعنا أمام ثلاثة آراء :

الأول : أن الآية منسوخة .

والثاني : أن في الآية لونا من العتاب الصريح اذ يستخرجون من الأعناب والنخيل شرابا مسكرا ، زيادة على ما فيها من المن عليهم « بالرزق الحسن » .
والثالث : أن في الآية تصويرا لواقع فلا نسخ اذن ولا عتاب .

والقول بالنسخ لا دليل عليه ولكن الآية تصوير حقيقي لواقع حقيقي ، وراء هذا التصوير قصد رباني كريم « فهو لم يقصد الا الى الموازنة بين السكر

(١) الكشاف ٤١٧/٢

(٢) القرطبي ٣٧٤/٥

والثمرات الأخرى التى يصفها بأنها حسنة ، دون أن يصف هذا السكر نفسه ، وبذلك صار لدى المؤمنين دافع الى الاحساس ببعض التحرج والوسوسة تجاه هذا النوع من الشراب » (١) .

والنص يلح الى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليس رزقا حسنا . وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وانما كان يصف الواقع فى ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلها ، بل فيه توطئة لتحريمها (٢) . وقد يؤيد هذا التخريج تذييل الآية بقوله تعالى « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » فمثل هذا التلميح البعيد بالموازنة يحتاج الى اعمال العقد والحس البينى الرفيع لادراك المقصد الربانى من وراء هذه الكلمات .

٢ - التوطئة بالتصريح المباشر : ثم كانت آية البقرة « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها اثم كبير ومنافع للناس واثمها أكبر من نفعها » .

والبقرة هى أول سورة مدنية ، ويقال ان سبب نزول هذه الآية أن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا يا رسول الله أفنتا فى الخمر فانها مذهبة للعقل ، مسببة للمال ، فنزلت هذه الآية فشرها قوم وتركها آخرون (٣) .

وهذا السؤال يدل على أن المسلمين كانوا بفطرتهم . وبايماء آية النحل يشعرون بالحرَج فى شربها ، حتى انه كان هناك من الجاهليين من حرَمها على نفسه .

كما يدل هذا السؤال على أن المسلم كان حريصا على استكمال مكارم الأخلاق والالتزام بما أتى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والخمر كانت سلعة تجارية فى الجاهلية . والمدينة كانت غاصة بالحنانات . وكثير من المسلمين كانوا يشربون بل يدمنون الشرب ، ومن هؤلاء : على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب الذى وصف نفسه بأنه « كان رجل خمر فى الجاهلية » .

وفى الميسر أو القمار كسب . وهو - وان اشترك فى الخمر فى كونه كسبا ماديا - يختلف عنه فى أن الكسب الذى يحققه طرف يعنى خسارة الطرف الآخر لذلك كان منطق الآية يمثل مرحلة قوية جدا لتهيئ النفوس للتحريم القاطع :

(أ) فقدم الاثم على المنافع .

(١) دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ٨٣ .

(٢) قطب : فى طلال القرآن ٤/٢١٨١ .

(٣) الفخر الرازى ٢/٢١٧ .

(ب) ووصف الائم بأنه كبير ، وجعل المنافع غفلا من الوصفية

(ج) ثم حسم الموازنة بأن ائمه أكبر من نفعهما .

ويرى الفخر الرازي أن الآية تحرم الخمر تحريماً قاطعاً مستنداً بالأدلة الآتية :

(أ) اشتغال الآية على الاثم ، والائم حرام لقوله تعالى « قل إنما حرم ربني الفواحش ما ظهر منها وما بطن والائم والبغي » فكان مجموع هاتين الآيتين دليلاً على تحريم الخمر .

(ب) أن الائم قد يراد به العقاب ، وقد يراد به ما يستحق به العقاب من الذنوب ، وأيهما كان فلا يصح أن يوصف به إلا المحرم .

(ج) أنه تعالى قال « وائمه أكبر من نفعهما » صرح برجحان الائم والعقاب وذلك يوجب التحريم (١) .

ويرفض القرطبي مذهب الفخر الرازي لأن الله لم يسم الخمر ائماً في هذه الآية ، وإنما قال « قل فيها اثم كبير » ولم يقل « قل هما اثم كبير » . وقد قال قتادة إنما في هذه الآية ذم الخمر ، فأما التحريم فيعلم بآية أخرى ، وهي آية المائدة وعلى هذا أكثر المفسرين (٢) .

ويمكن أن نؤيد مذهب القرطبي والجمهور بدليلين آخرين هما :

(أ) أن الآية لو كان فيها تحريم قاطع لكان الصحابة وبخاصة السائلون هم أسبق الناس إلى هذا الفهم ، ولما تطلّعوا بالدعاء إلى الله أن « يبين لهم في الخمر بياناً شافياً » .

(ب) كما أن النبي « صلى الله عليه وسلم » لم يخذل أو يعزّر مسلماً شرب الخمر بعد نزول هذه الآية .

ولكن الآية رجحت جانب الائم على جانب النفع - كما بينا - لذلك هجرها كثير من المسلمين : وكانت الآية بذلك تمثل الخطوة الثانية للتهية النفس نحو التحريم القاطع الحاسم .

٣ - التحريم الموقوف :

بقوله تعالى في سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

(١) الفخر الرازي ٢١٩/٢

(٢) القرطبي ٨٦٨/١

ومناسبة نزول هذه الآية ما روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما ، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدموني فقرات « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون • ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (١) » •

فحرمت الآية ونهت عن أن يأتي المسلم صلاته وهو سكران والآية هي آخر تمهيد للتحريم القاطع الحاسم ، فان من يتقى أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لانتشار الصلوات الخمس في هذه المدة ، فالوقت الذي يبقى للسكر هو وقت النوم من بعد العشاء الى السحر ، فيقل الشرب لمزاحمته للنوم الذي لابد منه ، وأما أول النهار من صلاة الفجر الى وقت الظهيرة ، فهو وقت العمل والكسب لأكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه غير المترفين الذين لا عمل لهم • وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون الا وقد زال السكر ، وصاروا يعلمون ما يقولون (٢) •

وأمام هذه الصعوبة العملية في التوفيق بين أوقات الصلاة وفرصة الشرب والسكر •• هذه الصعوبة التي تكاد ترتفع الى مرتبة الاستحالة أمام العجز أو شبه العجز عن هذا التوفيق أقلع أغلب المسلمين عن شرب الخمر لأنهم كانوا حريصين على حضور صلاة الجماعة مع النبي عليه السلام وأصبح التحريم القاطع قاب قوسين أو أدنى •

٤ - التحريم النهائي القاطع :

بين آية البقرة « ويسألونك عن الخمر والميسر •• » وآية النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى •• » قرابة سبع سنين • وبعد آية النساء بعام أو بعض عام نزلت آيتا المائدة اللتان تحملان التحريم الحاسم القاطع ، وهذا التوالي بعد هذه الفترة الزمنية القصيرة يدل على أن النفوس كانت قد تهيأت تماما لتلقى هذا التحريم الحاسم في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » وكانت اجابة المسلمين « انتهينا •• انتهينا » •

قال أنس بن مالك « انى لقائم على الحي على عمومتى أسقيهم من فضيخ

(١) السيوطي : أسباب النزول ٥٢ •

(٢) المنار : ١١٤/٥ •

لهم ، وأنا أصغرهم سنا ، فجاء رجل فقال : انها قد حرمت الخمر ، فقالوا
اكفئها يا أنس فكفأها » وزيد في رواية أخرى فما راجعوها وما سألوا عنها
بعد خبر الرجل (١) .

وقال أبو ميسرة : نزلت بسبب عمر بن الخطاب فانه ذكر للنبي صلى الله
عليه وسلم عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أجلها ، ودعا الله في تحريمها ،
وقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآيات (٢) .

وقال سعد بن أبي وقاص : نزلت في آيات من القرآن . أتيت على نفر من
الأنصار فقالوا تعالى نطعمك ونستقيك خمرًا - وذلك قبل أن تحرم الخمر قال
: فأتيتهم في حش (بستان) ، فاذا رأس جزور مشوى ، عندهم وزق من الخمر
قال فأكلت وشربت معهم قال فتذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم . فقلت :
المهاجرون خير من الأنصار . قال : فأخذ رجل لحبي جمل فضربنى به فرج
انفى ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فنزل قوله تعالى
» .. انما الخمر والميسر والأنصاب .. الخ « (٣) .

وقيل انما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا فلما
ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه
ورأسه ولحيته فيقول : صنع بى هذا أخى فلان - وكانوا اخوة ليس في قلوبهم
ضغائن - فيقول : والله لو كان بى رءوفا رحيما ما صنع بى هذا حتى وقعت
الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله قوله » انما الخمر والميسر .. الخ « (٤) .

وليس هناك ما يمنع من أن تكون كل هذه الوقائع صحيحة ، وأن تكون
كلها قد تشابعت وتوالت لتتصنع سببا أو أسبابا لنزول آيتي التحريم القاطع ،
فهى جميعا متوافقة ولا تعارض بينها اذ تلتقى جميعا فى ابراز الآثار السيئة
للخمر نفسيا وعقليا واجتماعيا .

وجاءت الأحاديث النبوية مؤيدة لهذا التحريم القاطع ، ولعن النبي
عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة اليه وساقيتها وبائعها وأكل ثمنها
والمشتري لها والمشتراه له ، كما حرم الاسلام أن تتخذ دواء : فقد روى أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل
داء دواء فتداؤوا ، ولا تتداؤوا بالمحرم .. وقد سئل عليه السلام عن الخمر
فى الدواء ، فقال : انها داء وليست بالدواء ، ويروى عنه أنه قال : من تداوى

(١) مسلم ٦٦٤/٤ (كتاب الاشربة) .

(٢) القرطبي ٣٢٨٣/٣ .

(٣) السابق : نفس الصفحة .

(٤) أسباب النزول ٧٧ .

بالخمر فلا شفاء الله (١) . يقول ابن القيم : المماثلة بالمحرمات قبيحة عتلا
وشرعا : أما الشرع فما ذكر في الأحاديث وغيرها ، وأما العقل فهو أن الله
سبحانه وتعالى إنما حرمه لخبئه فانه لم يحرم على هذه الأمة طيبا عقوبة لها
كما حرمه على بني اسرائيل بقوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم
طيبات ما أحل لهم » وإنما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبئه وتحريمه له حمية
لهم وصيانة عن تناوله فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الاسقام والعلل ،
فانه وإن أثر في ازالته لكنه يعقب سقما أعظم منه في القلب بقوة الخبث الذي
فيه ، فيكون المداوى به قد سعى في ازالة سقم البدن بسقم القلب . وأيضا
فإن تحريمه يقتضى تجنبه والبعد عنه . وأيضا فانه داء كما نص صاحب
الشرعية فلا يجوز أن يتخذ دواء . . وأيضا فإن اباحة التداوى به ولا سيما
إذا كانت النفوس تميل اليه ذريعة الى تناوله للشهوة واللذة . . (٢) .

وإذا ما عدنا الى آيتي المائدة فوجدنا أن الله سبحانه وتعالى - في مناقشة
قضية الخمر وتحريمها - قد قطع قطعاً حاسماً في هذا التحريم مخاطباً عقول
المكلفين وحسبهم الايماني في بيان قوى واضح :

(أ) فوجه الخطاب للذين آمنوا . . والايمان هو أعلى درجات الاعتقاد
فالمؤمنون أقدر من غيرهم على تقدير أوامر الله ونواهيه .

(ب) قرن الخمر بالأنصاب وهي الأصنام التي تعبد من دون الله وبالميسر
وهو مضيعة للمال ، وبالأزلام واتباعها يلغى الرأي والعقل . . وربط الخمر
بكل أولئك يشوه صورتها ويجعل النفس تصدر عنها .

(ج) وصف الخمر بأنه رجس ، والرجس هو النجاسة والقذر الذي
تحرص كل نفس شريفة أن تتطهر منه .

(د) وجعل هذا الرجس من عمل الشيطان ومكره وتزيينه وتهيينه .

(هـ) ودعا الى اجتنابه . والاجتناب يعطى معنى ، الابتعاد والاعتزال (٣)
ومادة الاجتناب لم تستخدم في القرآن الا مع كل محرم خبيث :

★ واجتنبوا الطاغوت (النحل ٣٦)

★ فاجتنبوا الرجس والأوثان (الحج ٣٠)

★ واجتنبوا قول الزور (الحج ٣٠)

(١) ابن القيم : زاد المعاد ١١٥/٣ .

(٢) السابق نفس الصفحة .

(٣) القاموس المحيط مادة جنب (الجزء الأول) .

★ اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم (الحجرات ١٢)

ويلاحظ أن الكلمة في الاستعمال القرآن لا تتوقف عند دلالتها الوضعية فحسب وهي الابتعاد والانصراف بل ان لها دلالتها النفسية وانعكاسها الشعوري كذلك ويتلخص في أن هذا الانصراف والابتعاد يجب أن يكون مصحوبا بالكراهية والاقتناع .

من هنا كانت الكلمة في مكانها من السياق أقوى وأعرق تأثيرا من مادة (الترك) التي لم تستخدم في القرآن أبدا للنهي عن المحرمات .

(و) وبينت الآية بعد ذلك أن كل أولئك يهيء الانسان للفلاح والنجاح .

(ز) وتقدم الآية الثانية حيثيات الأمر بالاجتناب فمن شرو الخمر والميسر .

— غرس العداوة والبغضاء بسبب التشاحن كما حدث فعلا في الوقائع التي كانت سببا في نزول الآية .

— الصد عن ذكر الله بعمامة ، وعن الصلاة بخاصة .

(ح) ثم كان الاستفهام التحضيضي أو التهديد في النهاية (فهل أنتم منتهون) ؟

وقد كانت اجابة المسلمين بلسان القول : انتهينا انتهينا ولسان الحال أيضا : انتهينا انتهينا : فكسروا الدنان ، وأراقوا ما عندهم من خمر ، ولم يبك أحد عليها لأن نفوسهم قد هيئت لذلك تماما على مدى عشر سنوات من الاعداد النفسى .

مرض عضال استشرى في نفوس المسلمين وأعصابهم حتى المشاهير منهم — كما رأينا — من أمثال علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص استطاع الاسلام بالترويض التربوي التدريجي أن يستل من أعماقهم جذور هذا الداء عن رضاء واقتناع وتسليم ، والفضل في ذلك لطريقة العلاج المثلى .

وتظهر قيمة الأسلوب الاسلامي في ابطال الخمر وتحريمها : عصرا وشربا وحملا وتجارة وعلاجاً . . اذا ما نظرنا الى محاولة مشهورة لتحريم الخمر في أمريكا وقد أخفقت اخفاقا ذريعا على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلتها الدولة في هذا المجال : فقبل أن يدخل التعديل الثامن عشر على الدستور الأمريكي أقيمت في البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر ، وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات Anti Saloon League نسعى وتجتهد في ترغيب الأمريكيين عن الخمر ، وتشبيبت مضارها في قلوبهم بالقاء الخطب وتأليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات وأفلام السينما ، وأفنت في سبيل هذا التبليغ

عشرات السنين ، وبذلت الأموال ، حتى قدر أن نشرات النشر والاذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة الى سنة ١٩٢٥ مبلغ ٦٥ مليون دولاراً وأنه بلغ عدد الصفحات التي سود بياضها لبيان مساوئ الخمر والزجر عنها ٩ آلاف مليون صفحة . ذلك قبل بدء التجربة .

وأما ما تحملته الأمة الأمريكية في الأربعة عشر عاماً الماضية من النفقات الباهظة فقدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه .

وتدل الاحصاءات التي أذاعها ديوان القضاء الأمريكي للفترة الواقعة بين يناير ١٩٢٠ و أكتوبر ١٩٣٣ انه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون ٢٠٠ نسمة ، وسجن نصف مليون ، وغرم الجناة ما يربو على مليون ونصف مليون جنيه . وصودر من الأملاك ما يساوي ٤٠٠ مليون جنيه (١) .

وكانت النتيجة - بعد هذه الاجراءات القوية المتواصلة . . وبعد هذه المعاناة الطويلة . . لا شيء . . مما اضطرت معه الدولة الى الغاء القانون الغاء نهائياً وإباحة الخمر للناس بلا قيود .

وبالموازنة السريعة بين التشريع الاسلامي والقانون الأمريكي في تحريم الخمر يتبين لنا عبقرية الاسلام التشريعية ، اذ راعى حدود القدرة الانسانية ، والطاقة البشرية في تحمل ما تدعى اليه النفس تدريجياً وعجزها عن تحمل ما يفرض عليها طرفة . . ولا عجب . . فـ الله هو خالق الانسان ، وهو أعلم بطبيعته ، لذلك أفلح التشريع الالهي وأخفق القانون الأمريكي الوضعي .

كانت هذه هي السمة الأولى من سمات « القيم الاسلامية » وهي التدرج التشريعي ، وسنعرض على الصفحات التالية لسمة أخرى جوهرية من سمات هذه القيم وأعني بها سمة (الوسطية العادلة) .

ثانياً : الوسطية العادلة

جاءت اليهودية الموسوية بعد عهد طويل من الوثنيات الضالة ، واليهودية تعتمد في تشريعاتها على ثلاثة مصادر :

الأول : هو التوراة : وهي مجموعة الأسفار التي يقال انه أوحى بها الى سيدنا موسى وكان أول تدوين لأحكام القانون اليهودي تلك الألواح التي أنزلت على موسى على رأس جبل سيناء حيث كلمه ربه بعد مناجاة دامت أربعين ليلة .

والثاني : هو التلمود : وقد صنفه عدد من الأبحار و تم وضعه في القرن الخامس بعد الميلاد .

(١) المودودي : نحن والحضارة الغربية ٥٣ .

والثالث : هو الكتابات الفقهية التي وضعها فقهاء اليهود بعد القرن الخامس الميلادي (١) .

والتوراة : وهي التي يطلق عليها العهد القديم - حوت كثيرا جدا من القواعد الخلقية والاجتماعية وخاصة سفر الخروج وسفر الأخبار وسفر التثنية . ولننشى قليلا مع بعض هذه النصوص لنتبين طبيعة الأخلاقيات اليهودية النظرية منها :

١ - وكلم الله موسى قائلا : اصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعملهما فيكونان لك للمناداة الجماعة ولارتحال المحلات فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع ، واذا ضربوا بواحد يجتمع اليك الرؤساء رؤوس الوف اسرائيل واذا ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة الى الشرق ، واذا ضربتم هتافا ثانيا ترتحل المحلات النازلة الى الجنوب . هتافا يضربون لرحلاتهم . وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون ، وبنوهارون الكهنة يضربون بالأبواق فتكون لكم فريضة أبدية في أجيالكم (٢) .

٢ - أنا هو الرب الهك الذي أخرجك من أرض مصر : من بيت العبودية : لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة ماما في السماء من فوق ، وما في الأرض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهم ، ولا تعبدنهم لأنى أنا الرب الهك اله غيور (٣) .

٣ - حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ، فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وان دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك (٤) .

٤ - كل انسان سب أباه أو أمه فانه يقتل : قد سب أباه أو أمه دمه عليه . واذا زنى رجل مع امرأة : فاذا زنى مع امرأة قريبة فانه يقتل الزانى

(١) انظر : صوفى أبو طالب : مبادئ تاريخ القانون ١١٤ . وانظر « اليهودية » لشلبى ٢٣٧ - ٢٧٩ ويذهب موريس موكاى الى أن الكتاب المقدس قبل أن يكون مجموعة أسفار كان تراثا شعبيا لا سند له الا الذاكرة ، وهي العامل الوحيد الذى اعتمد عليه نقل الأفكار ، وكان هذا التراث يغنى ويرى كذلك ان أسفار العهد القديم كتبت على مدى يربو على تسعة قرون ويلغات مختلفة ، واعتمادا على التراث المنقول شفويا ، وقد صححت واكملت أكثرية هذه الأسفار بسبب أحداث حدثت ، أو بسبب ضرورات خاصة ، وفي عصور متباعدة أحيانا (انظر كتاب : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص ٢٠ ، ٢٣) .

(٢) العدد الاصحاح العاشر (١ - ٩) .

(٣) سفر التثنية ٦/٥ - ٩ .

(٤) سفر التثنية ١٠/٢٠ - ١٥ .

والزانية ، وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه : انهما يقتلان كلاهما دمه عليهما ٠٠ وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فانه يقتل والبهيمة تميمونها ، وإذا اقتربت امرأة الى بهيمة لنزائها تميمت المرأة والبهيمة ٠٠ انهما يقتلان ٠٠ دمه عليهما (١) ٠

ومن هذه النصوص وغيرها كثير جدا نستطيع أن نتبين الطوابع العامة لأوامر العهد القديم ونواحيه وخاصة بالنسبة للأخلاقيات ٠ وأهم هذه الطوابع والسمات :

١ - التنوع : فمنها ما يدعو الى وحدانية الله وافراده وتخصيصه بالعبادة دون اشراك ٠ وبعضها خاص بالمطعومات والمشروبات ما يحل منها وما يحرم ، وبعضها يتعلق بقواعد الحرب ، وبعضها يتناول الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، ومنها ما يحدد عقوبات الجرائم على اختلاف أنواعها ٠ الخ ٠

٢ - التفصيل الشديد بصورة تدعو الى العجب كما نرى فى النص الأول (٢) ٠

٣ - القوة والصرامة فى الحروب والعقاب والجزاءات : فالاله يأمر كقائد حربى وكمملك صارم يجب أن يطاع لأنه الاله ٠ والطريقة الوحيدة لاكتساب عطفه ولاجتناب غضبه ليست الا الخضوع له ٠ والعهد القديم يشمل الشريعة ، وليست الفضيلة الا فهمها وتطبيقها فى كل حالة تعرض والتزامها بنظام وخضوع (٣) ٠

والذى يقرأ العهد القديم يخيل اليه أن موسى وتلاميذه لم يعرفوا أمرا من الأمور ، ولم يقفوا على مسألة من المسائل حتى الصغير التافه منها الا بعهد الرجوع الى « يهوه » ، فكل نزاع ينشب كان يعرض على نبي أو حكيم من أنبياء أو حكماء بنى اسرائيل وكان على ذلك الوسيط أن يعرض النزاع على الاله ثم يعرض حكمه على المتخاصمين ٠ ورغم أن استطلاع رأى الاله كان يتم بعيدا عن أعين المتخاصمين الا انه كان يتخذ بعض المظاهر المادية التى تدل على وجوده ٠ من ذلك ما جاء فى سفر الخروج خاصا ببيان كيف كان موسى عليه السلام يتلقى الوحي ٠ فحينما يطلب اليه أحد الرأى فى أمر معين كان يدخل خيمة تسمى خيمة الوحي ، وبعد دخوله كان يلاحظ ظهور سحب كثيرة على باب الخيمة ، هذه السحب كانت تمثل « يهوه » فى نظر بنى اسرائيل ، وبعد ذلك يخرج النبي موسى من خيمته ، وينطق بالحكم الذى نزل عليه (٤) ٠

(١) سفر اللاويين ١٦/٢٠ - ١٦ ٠

(٢) راجع مثلا الاصحاح ٢٥ من سفر الخروج وفيه يذكر الرب الموصفات الدقيقة والجزليات الصغيرة جدا لتأبوت العهد وللماثلة وملابس هارون الكهنوتية ولم تترك هذه التفاصيل صغيرة ولا كبيرة تتعلق بهذه الأشياء ٠

(٣) أندريه كرسون : المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ٧٦ ٠

(٤) أنظر : أبو طالب السابق ١١٣ ٠

ولكن طال الأمد على اليهودية واليهود فحدث انفصام واسع بين الشرع الالهى وبنى اسرائيل ، وظهر على القيم اليهودية بصمات وثنية ولا أخلاقية صور القرآن كثيرا منها « وتنجرت الديانة اليهودية واستحالت طقوسا جامدة لا حياة فيها ومظاهر خاوية لا روح فيها » (١) .

ثم جاء السيد المسيح ليهدى كما قال « خراف اسرائيل الضالة » والذين كان يخاطبهم فى كثير من الأحيان « بأبناء الأفاعي » . وكانت المسيحية ديانة مرحلية تصدت للاتجاه المادى لليهود واغراقهم فى حب المال والحياة وأكل السحت والربا وأموال اليتامى والتمادى فى الباطل وشهادة الزور والغش فى التجارة حيث كان « حب المادة وعبادة المال » مفتاح شخصية اليهودى .

وجاءت الديانة الجديدة بقائمة من « القيم الروحية » الخالصة ليقتنع الانسان - بعد أن استفرقت مادية الحياة - أن حياته المثل ليست هنا ... ولكنها هناك فى ملكوت السماء .

وخلوصا الى هذا الملكوت كانت « الرهبانية » المتجردة هى الاختيار المسيحى للشخصية المسيحية ، وليترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وكانت « أخلاقية » المسيحية التى دعا اليها المسيح هى قمة التجرد الذى لم تشهد له الأرض مثيلا ، والذى كان رد فعل طبيعى « لماديات » اليهودية واليهود ، ولاقبالهم على متعها وعبيهم من لذائذها .

يقول السيد المسيح : « لقد سمعتم أنه قيل للقديماء : لا تزن أما أنا فأقول لكم ان كل من ينظر الى امرأة يشتهيها فقد زنى بها قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقطعها والحقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم ، وان كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم » .

وقيل من طلق امرأته فليعطيها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم ان من طلق امرأته الا لعل الزنى يجعلها زنى ، ومن يتزوج مطلقه فانه يزنى .

أيضا سمعتم أنه قيل للقديماء : لا تحنث بل أوف للرب اقسامك ، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة : لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ، ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، بل ليكن كلامكم نعم نعم ، لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشر .

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام ٦ . راجع كذلك شلبى فى كتابه (اليهودية) ٢٧٥ ومن أغرب ما دخل اليهودية من تحجر والخراف ما نقرؤه فى التلمود من نفى العصاة عن الله ونسبة الخطأ والخطيئة اليه .

سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ، ومن سألك فاعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترد .

سمعتم انه قيل تحب قريبك ، وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيك ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم (١) .

ومع انه - عليه السلام - أعلن انه لم يجرى لينقضى الناموس أو الأنبياء بل جاء ليكمل (٢) الا أنه رفض أن يرجم الزانية كما كان متبعها في الشريعة الموسوية قائلا « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

ورفض - عليه السلام - استخدام القوة حتى دفاعا عن الدين والحق : فحينما غدر به يهوذا الاسخريوطي ، وجاء معه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب للقبض عليه ومحاكمته استل بطرس أحد حواربي المسيح سيفه للدفاع عنه وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه . فقال له يسوع « رد سيفك الى مكانه ، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (٣) .

انها في مجموعها قيم روحية خالصة تنزع الانسان من غمرات الواقع المادى الحسيس وتسمو بروحه ، فهو لم يخلق لهذه الأرض ، ولكنه خلق « للملكوت السماء » . وكانت دعوة المسيح عليه السلام - كما ذكرنا من قبل - الى الزهادة في الدنيا والابتعاد عن أسباب النزاع ، والوقوف على الحياة الروحية ، لأن اليهود الذين جاء المسيح مبشرا بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بنى الانسان . بل ان التوراة التي بأيديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه أو جحيمه ، ومن فرقه من كان يعتقد أن عقاب الله الذى أوعده به العصاة وثوابه الذى وعد به المتقين انما زمانه في الدنيا لا في الآخرة (٤) .

وبعد فترة طويلة من الرسل تقرب من ستة قرون بعث الله محمدا عليه السلام خاتما للرسل والأنبياء ، وجاء الاسلام الحنيف خاتما للأديان ، ونزل القرآن على محمد فكان آخر اتصال بين السماء والأرض .

(١) انجيل متى : الاصحاح الخامس ٢٧-٤٤

(٢) انظر : متى ١٧/٥

(٣) متى ٢٦ / ٥٣

(٤) راجع : محاضرات فى النصرانية للشيخ أبى زهرة ١٠

وهذه الخاتمية فى الدين والكتاب والنبوة اقتضت ان تقدم السماء للأرض
أنجح الحلول وأقدرها وأشملها حيث لا دين ولا كتاب ولا نبي بعد • ولم يفارق
محمد - عليه السلام - الدنيا الا بعد أن أعلن بصوت الله « اليوم أكملت لكم
دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » •

لقد رأينا مادية اليهودية ، وايفال اليهود فى « الأرضية » والديوية •
وهو اتجاه مرحلى قد يكون صحيحا فى وقت عاش فيه اليهود يجابهون أخطارا
لا تحصى ابتداء من اضطهاد فرعون مصر ومطاردة لهم •

ورأينا « الروحانية المثالية الخالصة » التى تقدم بها السيد المسيح فى عصر
الماديات والمال والسحت فكان ذلك رد فعل طبيعى لاتجاه اليهودية واليهود ••
ولكنه اتجاه مرحلى أيضا لا يمكن أن تعيش عليه البشرية الى الأبد وان صح
ان يكون علاجاً ما لحالات معينة فى وقت معين •

والوجود لا يمكن أن يتنفس برئة المادية البحتة فى معزل عن القيم والمثل
العليا ، والا تحولت المجتمعات البشرية الى مجموعة من الغابات تسيطر عليها
قوة المخالب والأنياب ، ويكون الصراع الدامى المتسعر هو وسيلتها المثلى للوجود
والبقاء ، ويكون الشعار المعتنق البقاء للأقوى •• لا للأصلح •

كما ان الوجود لا يمكن أن يتنفس كذلك برئة المثالية المعنوية البحتة :
تجردية كاملة من ماديات الحياة •• ورهبانية مستغرقة فى ملكوت الله مثبتة عن
واقع الحياة ومعاناتها فى دنيا الناس •

وامام هاتين « اللا امكانييتين » •• امام آخر فرصة للانسان فى اتصاله
بالسماء كان لابد من وضع ضوابط جديدة وقيم جديدة أمام انسان القرن
السابع الميلادى (١) • وهذه القيم تمثل أقوى الحلقات وأخلدها فى سلسلة
البناء الانسانى • والفعت نظر القارىء الى حقيقة مهمة وهى أن الاسلام لا يقلل من
شأن القيم اليهودية والمسيحية - بالنسبة لكثير جدا منها وخاصة ما يتعلق
بجواهر الأمور :

(أ) لأنها قيم ربانية من عند الله •

(ب) لأنها كانت أرقى القيم وأكملها فى عصرها •

(ج) وأخيرا لأن المسلم مطالب بالايمان بها « آمن الرسول بما أنزل
اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد
من رسله » (٢) •

(١) ولد محمد - عليه السلام - سنة ٥٧١ م ونزل عليه الوحي وهو فى سن العاشرة على أرجح

الأقوال

(٢) البقرة ٢٨٥ •

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - المتقين بأنهم « الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون » (١) .

وأخص من ذلك وأدل « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٢) .

ففى هذه الآية الكريمة تصريح بأن التوراة يحكم بها النبيون ومن ضمنهم محمد عليه السلام . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم يهوديا زانيا اعتمادا على حكم التوراة ، وقيل بل رجم يهوديين عند باب مسجده وذلك أول رجم كان فى الاسلام (٣) .

وقد أقرت الشريعة الاسلامية صراحة أحكاما وردت فى الشرائع السابقة مثل الصوم « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » (٤) .

وتنص السنة النبوية على أن الأضحية مشروعة فى ملتنا كما كانت مشروعة فى ملة ابراهيم - عليه السلام - وقال رسول الله - صلعم - « ضحوا فانها سنة أبىكم ابراهيم عليه السلام .. » .

وقد نسخت الشريعة الاسلامية عدة أحكام كانت فى الشرائع السابقة ، ونحن ملتزمون بالابتعاد عنها .

كما أنها ذكرت أحكامها وسكتت عنها - دون اقرار أو رفض - والأرجح عند الفقهاء مشروعيتها بالنسبة لنا . كما جاء فى قوله تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٥) .

والرأى الأخير يتفق مع سماحة الاسلام ومرونته وخاتمته ، ويتفق مع المقولة الاسلامية الخالدة « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو له » . وقد

(١) البقرة ٣ و ٤ .

(٢) المائدة ٤٤ .

(٣) أنظر ابن تيمية : السياسة الشرعية ١٢٢ والبخارى ١٢٩/٩ كتاب الاعتصام

(٤) البقرة ١٨٣ .

(٥) المائدة ٤٥ وأنظر حسب الله : أصول التشريع الاسلامى ٩٥ - ٩٧ وأنظر كذلك :

الرديسى : أصول الفقه ٣٤٣ - ٣٤٧ .

ذكرنا أكثر من مرة أن النبي — صلى الله عليه وسلم — أشاد بحلف جاهلي هو حلف الفضول ، وأعلن أنه لو دعى به في الاسلام لأجاب .

ولكن — على الرغم من أننا مأمورون بالايمان بقيم المسيحية واليهودية التي لا تتعارض مع اسلامنا ولم تنسخ به — أقول على الرغم من ذلك لم تعد القيم اليهودية بماديتها أو القيم المسيحية بروحانيتها المثالية قادرة على تشكيل الانسان المتفاعل مع الحياة بعد أن تخطت البشرية مرحلة طفولتها الأممية .

انسان اليهودية أرضى نرابى مادي يتعامل مع الآخرين بمنطق القوة والحساب المادي في سبيل تحقيق النفع العاجل على المستويين الفردي والجماعي ، حتى جزأه أرضى ، والآخرة .. ملكوت الله لم تذكر في التوراة مرة واحدة .

وانسان المسيحية يحمل قائمة من القيم الملائكية .. سمو — سمو روحي مخلق وزهادة في دنيا الناس .. فالهدف ليس هنا والغاية المنشودة ليست في الأرض ولكنها هناك في ملكوت السماء .

وانتهى الحال بانسان اليهودية الى عبادة المادة من دون الله .

وانتهى الحال بانسان المسيحية الى الاصطدام بالفطرة الانسانية التي من مسلماتها أنه « بالروحانيات والمثل فقط لا يعيش الانسان .. تماما كما أنه بالمادة فقط لا يحيا البشر » .

من هنا كان لا بد من مفهوم جديد للانسان الذي يدب على الأرض ويعمر هذا الوجود وكان نسيج الانسان من المنظور الاسلامي « مادة وروحا تشكل مخلوقا حيا أكرمه الله بنعمة العقل » وهو تعريف يخرج الجمار لأنه مادة بلا روح وبلا عقل .. ويخرج الحيوان لأنه مادة وروح بلا عقل .. فكان العقل هو قمة التكريم للبشر ابتداء من الانسان الأول :

لقد خلقه الله من « مادة » الطين ونفخ فيه من « روحه » وكرمه « بالعقل » الذي وعى حقيقة الأشياء اسما ومسمى .. والعقل هو الذي كفل له أن يكون « خليفة » الله في أرضه « واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (١) .

هذه هي قصة آدم عليه السلام في القرآن ، هي قصة الانسان الأول : خلق من تراب ، وارتقى بالخلق السوى الى منزلة العقل والارادة ، وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض من ذى حياة ، وغير ذى حياة ، وقضى له أن يكسب فضله بجهد ، وان يكون جهده غلبة لارادته وانتصارا لعقله على جسده (١) .

ولكن لنترك قصة آدم عليه السلام — بما فيها من « خصوصيات » — وقفها الله عليه في الخلق ولم تتكرر مع غيره لننظر الى « الانسان البشر » في كل زمان ومكان لئلا نرى تكريم الله له بالحواس — لا لذاتها — ولكن بقدر ما توصل صاحبها الى طريق الفهم والاهتداء والتقوى والصلاح « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفقتين . وهديناه النجدين » (٢) .

وبالنظر العاقل والمنطق المبين يعيش الانسان ويهتدى ويبدع ، نعم « لقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات : جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الابصار ، وميزه بالنطق ، وأعطاه أدواته المحكمة » ولسانا وشفقتين « ثم أودع في نفسه خصائص القدرة على ادراك الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل : وهديناه النجدين ليختار أيهما شاء ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أى النجدين » (٣) .

واذا لم تستطع الحواس أن ترتفع بالحقيقة الانسانية في نفس الانسان ، وتكون وسائل « لتحصيل العلم » والوصول الى اليقين والهدى والايمان فوجودها كعدمها سواء بل ان الانسان في هذه الحالة يكون أخطأ مكانة من البهائم لأن البهائم تستخدم حواسها بأقصى طاقاتها حفاظا على بقائها ، أما هو فقد عطل حواسه التي أنعم الله بها عليه لاستعمالها كصاحب رسالة كرمه الله باستخلافه عنه في الأرض ، وما قيمة العقل اذا ما عطلت طاقته عن الخير ؟ وما قيمة العين اذا لم تبصر طريق الهدى ؟ وما قيمة الأذن اذا لم تصنع لصوت الحق واليقين ؟ « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » (٤) .

وفي كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة أو مضمنة الى العقل أو الى التمييز ولكنها تأتي عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القاريء بعض الاحايين

(١) العقاد : الانسان في القرآن الكريم ٦٦ .

(٢) البلد : ٨ - ١٠ .

(٣) قطب الظلال : ٣٩١٠/٦ .

(٤) الاعراف ١٧٩ .

شيئاً من الزاوية بالعقل أو التحذير منه لأنه هزلة العقائد وباب من أبواب
الدعوى والانتكار .

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب
العمل به والرجوع اليه . ولا تأتي الإشارة اليه عارضة ولا مقتضية في سياق
الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة .
وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على
تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه . ولا يأتي
تكرار الإشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من
أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف
أعمالها وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن
الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ، ولا في العقل
المدرّك ، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح . بل يعم
الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة أو وظيفة
وهي كثيرة . . اذ هي جميعاً مما يكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرّك
والعقل المفكر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء (١) .

وبهذا المفهوم الشامل للعقل دعا الاسلام الى النظر والى التفكير والتأمل .
ونعى على الذين لا يفكرون ولا يتأملون خلق الله ولا يعملون عقولهم خلوصاً الى
اليقين :

- وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢) .
- أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء .
وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأى حديث بعده يؤمنون؟ » (٣)
- أو لم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما
إلا بالحق وأجل مسمى (٤) .
- قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا
ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد (٥) .
- وفي عشرات من الآيات القرآنية بل في مئات منها تكرر لفظة (العقل)
وما ارتبط بها من ألفاظ الفقه والعلم والتفكير على النحو التالي :

(١) العقاد : التفكير فريضة اسلامية ٥ .

(٢) الذاريات ٢٠ - ٢١ .

(٣) الاعراف ١٨٥ .

(٤) الروم ٨ .

(٥) سبأ ٤٦ .

(أ) (عقل) ومشتقاتها (عقلوه - تعقلون - تعقل ٠٠٠ الخ)
ذكرت ٤٨ مرة ٠

(ب) (علم) ومشتقاتها (علم - يعلم - يعلمون ٠٠٠ الخ)
ذكرت ٨٦٦ مرة ٠

(ج) (فقه) ومشتقاتها (تفقهون - تفقه - يفقهوا - يفقهوه ٠٠ الخ)
ذكرت ٢٠ مرة ٠

(د) (فكر) ومشتقاتها (تفكروا - يتفكرون ٠٠٠٠٠ الخ)
ذكرت ١٨ مرة ٠

(هـ) (قرأ) ومشتقاتها (قرأ - اقرأ - قرآن ٠٠٠٠٠٠٠ الخ)
ذكرت ٨٧ مرة ٠

(و) (وعى) ومشتقاتها (تعيها - أوعى - وإعيا ٠٠٠٠٠ الخ)
ذكرت ٤ مرات ٠

ومجموع هذه « المواد » التي ذكرتها ثلاث وأربعون وألف لفظة وكلها تدور على تقدير القرآن للعقل والنظر والتفكير ٠

والمواد التي عرضناها هي المواد المباشرة ٠ وهناك مئات من الألفاظ تدور حول العقل والتفكير بصورة غير مباشرة لم نعرض لها ٠

هذا هو عنصر العقل في الانسان : موقف القرآن منه ، والطريقة المثلى لاشباعه من منطلق الايمان والتفكير في خلق الله ، وتحصيل العلم واستغلال قدراته وطاقاته في البناء والابداع ٠

وثاني الثالوث في النسيج البشرى هو الجسد ٠٠ والجسد هو الكيان المادى الذى بنى على الغرائز : غريزة حب البقاء ٠٠ غريزة التملك ٠٠ غريزة المقاتلة ٠٠ الغريزة الجنسية ٠٠ الخ ٠ والغريزة هي العنصر المشترك بين أفراد النوع الواحد وهي ميل فطرى يدفع الكائن الحى الى العمل فى اتجاه معين تحت ضغط حاجاته الجبرية وهي بطبيعتها تتطلع الى الاشباع ٠

وأغلب هذه الغرائز تدور حول حاجتين : حاجة الفم أو البطن للطعام والشراب ، وحاجة الجنس لكسر الشهوة وهو طريق لحفظ النوع ٠

والاسلام لم ينكر مكان هاتين الشهوتين أو الحاجتين: فى النفس الانسانية ٠

١ - فحل المشكلة الأولى بإباحة الطعام والشراب من طيبات ما رزق الله اعتمادا على العمل الشريف « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (١) ٠ والعمل يجب أن يكون حلالا : حلالا فى مادته وبضاعته:

(١) التوبة ١٠٥ ٠

فلا عمل مشروع بالاتجاه فى الحمر أو لحم الخنزير أو أعراض الناس .
كما يجب أن يكون حلالا فى كيفية التكسب من ورائه : فلا غش ولا
استغلال ولا ربا ولا كذب « وأحل الله البيع وحرم الربا » (١) .

فاذا ما كان بالمؤمن عجز أو فاقة فهناك التكافل الاجتماعى بأروع
صوره ومن مظاهره الزكاة والصدقة .

٢ - وحل المشكلة الثانية بالزواج : فالزواج هو الحل الجذرى لمشكلة الجنس
وكان الزواج فى المجتمع الإسلامى الأول - حيث حسنت النوايا وطهرت
القلوب وسمت الاخلاق - أمرا ميسرا لم تدخله تعقيدات المدنية وفلسفاتها
المتعقنة .

فاذا ما عجز المسلم عن الزواج لسبب ما فهناك اعلاء الغريزة أو
السمو بها بالعبادة والصوم على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ،
وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » (٢) .

والروح هى العنصر الثالث الذى يستكمل به البناء الانسانى بعد العقل
والجسد . . انها الطاقة الغيبية الخفية الحية التى تعتبر بالاجماع سر حياة
الكائن البشرى ، بل سر حياة كل كائن حي . . ومهما قال العلماء فيها أثناء
الحياة وبعد الموت فما زالت سرا غامضا . . وستبقى سرا غامضا لأن الله سبحانه
وتعالى اختص نفسه به « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » (٣) .

وكما ان اشباع العقل يكون بالعلم والاختراع والكشوف .

وكما أن اشباع حاجتى البطن والفرج يكون بالطعام والشراب والزواج .

كان لا بد من اشباع الروح حتى لا يختل توازن هذا الثلاثى الانسانى .
واشباع الروح فى الاسلام لم يأت على حساب العقل والجسد ، ولكنه أتى ليأخذ
مكانه فى حميه المعد له فلا يختل البناء الانسانى ويميل الميزان لغير صالح
الفرد وغير صالح الجماعة .

فكما دعا القرآن الى النظر والتأمل واعمال العقل .

وكما دعا الى التمتع بطيبات الحياة من طعام وشراب وزينة .

(١) البقرة ٢٧٥

(٢) البخارى ٣/٧ (باب النكاح) .

(٣) الاسراء ٨٥

أمرنا كذلك بأن نغرس في نفوسنا الايمان بالله ، وأن نحیی أرواحنا بالثقة : الثقة بالله والثقة بالدين والثقة بالنفس الى أبعد مدى . يقول الله سبحانه وتعالى « لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (١) .

وهذه الكلمات العلوية الموجزة تجمع بين النوعين من الاشباع : اشباع الحاجات المادية ، واشباع الحاجات النفسية أو الروحية .

اشباع الحاجات المادية مثلت له الآيات بالاطعام من الجوع . والاطعام هنا مذكور على سبيل التمثيل لا الحصر ، فالآية تتسع لنعمة الله فى اشباع كل الحاجات المادية الأخرى : كحاجة الانسان للرى من عطش والزواج لحفظ النوع ، والحماية من الحر والبرد بالملبس والمسكن . وهو تفسير يؤيده واقع هذا الانعام من الله - سبحانه وتعالى - على عباده مؤمنهم وكافرهم « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (٢) .

أما اشباع الحاجات المعنوية أو النفسية فقد مثلت له الآية بالتأمين من الخوف . وهى نعمة كسابقتها مذكورة على سبيل التمثيل لا الحصر . والخوف هو آفة المشاعر النفسية كلها ، والخائف المفزوع لا يهناً له طعام ، ولا يلذ له شراب ، ولا يسعد بملبس أو مسكن (٣) .

ولكن كيف يأمن الانسان من الخوف ؟ وكيف يتأتى له أن يكون قوى الروح صلب النفس ؟ ان أصل كل أولئك ومفتاحه فى « عبادة رب هذا البيت » . فى الايمان العميق . . العميق بالله سبحانه وتعالى . . بحيث يصير المؤمن من فئة « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (٤) .

ان قمة الايمان بالله ، هى نفسها قمة العبودية له ، هى نفسها قمة العزة أمام البشر ، هى نفسها قمة النصر والغلبة على كل من يتصدى للمؤمنين .

نعم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حسب ولا كفاية الا الله وبالله ، وعلى ذلك الاختصاص . . اختصاص الله بالحسب والكفاية ، كان استعمال الكلمة فى المعجم القرآنى :

(١) سورة قريش (١ - ٤) .

(٢) ابراهيم ٣٤ .

(٣) يقول العلامة و ل . ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة ٤/١) ، وانحصاراً تبدأ حبس ، ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه اذا آمن الانسان من الخوف تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والانشاء وبعدئذ لا تنفك الطوافز الطبيعية تستنفضه للمضى من طريقه الى فهم الحياة وازهارها ج (١) ص (٤) .
(٤) آل عمران ١٧٣ .

- وان يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله (١) .
 - يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٢) .
 - وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله (٣) .
 - ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٤) .
- والإيمان بالله لا يمنح المؤمن شجاعة وقدرة فحسب ، ولكنه يمنحه الطمأنينة والقرار « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٥) .
- واطمئنان القلب لذكر الله ليس حصيلة روحية فحسب ، ولكنه حصيلة منطقية أيضا فما ذكر الله ؟ انه استشعار وجود الله في النفس والضمير والوجدان ، في الصلاة والصيام والقيام واليقظة والنمائم والمنشط والمكره والسراء والضراء .. انه يشمل كل هذه الأعمال والمواقف (٦) . والله هو القوى المتعال ، وهو القوى القهار الجبار .. وهو نعم المولى ونعم النصير .
- وذكر المؤمن لله يعنى استشعاره لله سبحانه بكل هذه الصفات التى تتضاءل أمامها كل قوى البشر .. من هنا تأتى الطمأنينة نتيجة منطقية لهذا الشعور الإيماني ، فالإنسان بالإيمان ساند ظهره الى جدار من السموات والأرض ، محتم بقوانينها ، سائر دائما فى صف جندهما ، شاعر أنه قوة خادمة للالهية ، عاملة للتعمير وقرار الحياة فيهما ، فاهم أنه قيوم صغير نائب عن القيوم الأكبر تتجدد فيه الحياة ، ويتدفق فيضها المستمر الذى يحيا به مع كل الحيوانات « (٧) » .
- والإيمان بالله يمنح الروح طاقة قادرة على الصمود أمام كوارث الحياة ، وهو فى حالتى احتمالها ووقوعها ثابت لا يهتز ، قوى لا يقهر . ولا يتقهقر ، لأن من مقتضيات الإيمان التسليم قولا وعملا بقاعدة أزلية ربانية هي « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » (٨) .

(١) الانفال ٦٢ .

(٢) الانفال : ٦٤ : واتساعا مع النهج القرآنى فى قصر الحسب والكفاية على الله سبحانه يكون المعنى (حسبك الله وحسب من معك من المؤمنين) خلافا لمن ذهب الى القول بأن المقصود (الله والمؤمنون هم حسبك) ولابن القيم بحث لطيف فى الآية (انظر زاد المعاد) ٦/١ .

(٣) السورة ٥٩ .

(٤) الطلاق ٣ .

(٥) الرعد ٢٨ .

(٦) قد يؤيد هذا التفسير ان الله سبحانه وتعالى فرق بين الصلاة وذكره فى قوله (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) فذكر الله أهم وأشمل من الصلاة وهى جاءت بعده من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعظيم هذا الخاص وبيان أهميته .

(٧) عبد المنعم خلاف : العقل المؤمن ١٢٨ .

(٨) التوبة ٥١ .

والايمان بالله يعطى المؤمن - كما ألمحنا - ثقة بالنفس واعتزازا بها واستعلاء على صغار الحياة وصغائر الاحياء « والله العزة ورسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) .

والمؤمن بالله لا يعرف المهانة والذلة ولا يستسلم للضعف والحزن « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » (٢) .

والايمان بالله بلوازمه ومقتضياته العملية فى القول والفعل هو معيار الأفضلية بالنسبة للفرد ، ومعيار الأفضلية بالنسبة للأمة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣) .

العقل والروح والجسد هى النسيج المادى والمعنوى للانسان الذى كرمه الله على سائر المخلوقات وجعله خليفته فى الأرض ، فمن حقه بل عليه أن يأكل ويشرب ويتزين ويتزوج « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » (٤) . حتى الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالاته أمرهم الله بما أمر به المؤمنين ، فقال تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » (٥) .

ومن حقه - بل عليه - أن يستخدم عقله فى تعامله مع مجتمعه وتعامله مع الطبيعة وتعامله مع نفسه ، والعلم هدف يجب أن يحرص عليه ، والعلم وسيلة يجب أن يتخذها لبناء نفسه وبناء مجتمعه والعمل لصالح المسلمين .

ومن حقه - بل عليه - أن يحرص على المثل العليا والقيم الاخلاقية الراقية وأن يحرص على الالتزام بالفرائض والعبادات .

والطابع العام أو الضابط المهيمن على هذه العناصر الثلاثة العقل والروح والجسد الضابط الذى يحقق « الاتساق » أو « الهرمونية » بينها هو الاعتدال فى المشاعر والأقوال والأفعال . هو الوسطية العادلة بلا افراط أو تفريط . بلا اسراف أو تقصير . وهذا ما نص عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٦) .

يقول الامام محمد عبده « الوسط هو العدل والخيار ، وذلك أن الزيادة على المطلوب فى الأمر افراط ، والنقص عنه تفريط وتقصير ، وكل من الافراط

(١) المنافقون ٨

(٢) آل عمران ١٣٩

(٣) آل عمران ١١٠

(٤) البقرة ١٧٢

(٥) المؤمنون ٥٩

(٦) البقرة ١٤٣

والتفريط ميل عن الجادة القويمة ، فهو شر وهذموم فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أى المتوسط بينهما والمسلمون خيار وعدول لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلو فى الدين المفرطين ولا من أرباب التعطيل المفرطين ، فهم كذلك فى العقائد والأخلاق والأعمال .

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الاسلام على قسمين : قسم تقضى عليه تقاليد بالمادية المحضة فلا هم له الا الحظوظ الجسدية كاليهود والمتركنين . وقسم تحكم عليه تقاليد بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيى الهند أصحاب الرياضيات .

وأما الأمة الاسلامية فقد جمع الله لها فى دينها بين الحقين : حق الروح وحق الجسد فهى روحانية جثمانية ، وان شئت قلت انه أعطاها جميع حقوق الانسان ، فان الانسان جسم وروح . حيوان وملك (١) .

ومن منطلق هذه الوسطية الأخلاقية نهى القرآن عن البخل لأنه تفريط فى حق النفس وحقوق الآخرين ، كما نهى عن التبذير لأنه افراط واسراف فى الانفاق يؤدى الى الخراب « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (٢) .

وهذه الوسطية العادلة صفة من أهم صفات المؤمنين . عباد الرحمن . . . « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٣) .

وفى الصلاة كذلك « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا » (٤) .

والمسلم مطالب بالاعتدال فى العاطفة حبا وكراهية فلا يغلو فى الحب ولا يسرف فى الكراهية عملا بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام « أحبب أخاك هونا ما عسى أن يكون عدوك يوما ما ، وكره عدوك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » .

والمسلم مطالب بالتوفيق بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، بين مطالب الآخرة ومطالب الدنيا « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض . ان الله لا يحب المفسدين » (٥) .

(٢) الاسراء ٢٩ .

(١) المنار ٤/٢

(٣) الفرقان ٦٧ .

(٤) الاسراء ١١٠

(٥) القصص ٧٧ .

ولكن هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ نفسه بهذه القاعدة :
قاعدة الوسطية العادلة في عبادته ومعاشه ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضى أن نتوقف قليلا عند مسلك النبو
صلى الله عليه وسلم في هذه الأمور :

ففي حديث للمغيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت
قدماه . وفي رواية أنه كان يصلي حتى ترم قدماه . فقيل له أتكلف هذا وقد
غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟

– وقالت عائشة – رضى الله عنها – كان عمل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ديمة ، وأيكم يطيق ما كان يطيق ؟ .

– وقالت : كان يصوم حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول :
لا يصوم (*) .

– وعن عوف بن مالك – رضى الله عنه – كنت مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاستأذنته ثم توضأ ، ثم قام يصلي فقامت معه ، فبدأ فاستفتح البقرة :
فلا يمر بآية رحمة الا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب الا وقف فتعوذ ، ثم ركع
فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم
مسجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك .

– وعن جديفة – رضى الله عنه مثله . وقال : سجد نحواً من قيامه .
وجلس بين السجدين نحواً منه . وقال : حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء
والمائدة .

– وعن عبد الله بن الشيخير – رضى الله عنه – أتيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم – وهو يصلي ولجوفه ازيز كآزيز الرجل .
– وقال ابن أبى هالة – رضى الله عنه – كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم متواصلاً بالأحزان دائم الفكرة ليست له راحة (١) .

صورة ملائكية شفافة مضيئة مشرقة ، تمثل قمة السلوك الانساني
الرباني ، فالنبي صلى الله عليه وسلم – فيما أوردناه يقسو على نفسه كل القسوة
وينتصر للروح على حساب راحته ومطالب حياته وجسده . والله سبحانه وتعالى
يقول « ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٢) . ويقول « لقد
كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » (٣) .

(١) ارجع الى الشفا للقاضي عياض الجزء الاول ٢٨٥ – ٢٨٨ .

(٢) الاحزاب ٧ .

(٣) الاحزاب ٢١ .

(*) يفطر حتى نقول لا يصوم : أى يتناول في الإفطار طعاما قليلا كهيئة من لا يتوى الصيام

فإذا كنا مطالبين بطاعة الرسول والاقتداء به في عمله وخلقه وعبادته ، وكان مسلكه عليه السلام بالصورة التي رأينا ، وهذا قليل من كثير وقطرة من محيط – اذا كان الأمر كذلك فأين « الوسطية العادلة » في هذه الأعمال وكلها كما رأينا مثالية لا تدرك ؟ ومن الصعب .. ان لم يكن من المستحيل قيام العباد والتزامهم بها .

ودفعا لهذه الشبهة أو هذه الحاطرة نقول : ان ما صدر عن النبي عليه السلام – وأشرنا الى بعضه وهو غاية لا تدرك – انما صدر من « مقام النبوة » .. من « النبي محمد » لا من محمد النبي (١) . هذه المثالية التي لا تدرك « خصوصية » من خصوصياته والأمة غير مطالبة بأداء ما دل الدليل على أنه خاص به كوجوب تهجدته بمقتضى قوله تعالى « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » (٢) . وجواز مواصلة الصوم ، وقد نهى غيره عنه وقال « وأيكم مثلي ؟ انى أبيت يطعمنى ربي ويسقينى » (٣) .

وشدد النبي عليه السلام – في نهى أصحابه عن الاقتداء به في هذه الخصوصيات أو هذه المثاليات النبوية « فعن عبد الله بن عمرو قال : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقال « ألم أخبر أنك تقوم بالليل وتصوم النهار ؟ قلت : بلى . قال فلا تفعل قم ونم ، صم وافطر فان لمجدك عليك حقا ، وان لعينك عليك حقا ، وان لزورك (زائريك) عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وانك عسى أن يطول بك عمر ، وان من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . فان بكل حسنة عشر أمثالها ، فذلك الدهر كله . قال فشددت فشدد على . فقلت انى أطيق غير ذلك . قال فصم صوم نبي الله داود . فقلت : وما صوم نبي الله داود ؟ قال نصف الدهر (٤) .

وكان عليه السلام يغضب اذا ما طلب المسلمون مزيدا « من التكاليف أو شديدا من الأمر حرصا منهم على مزيد من الثواب ، أو تقريبا لمكانتهم عند الله : قالت عائشة – رضى الله عنها – كان رسول الله – عليه السلام – اذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالوا انا لسنا كهيتتك يا رسول الله ، ان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : ان أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » (٥) .

(١) صاحب هذا التفريق هو المرحوم عباس العقاد في كتابه « عمقيرة السديس » ،

(٢) الاسراء ٧٩ .

(٣) انظر حسب الله : أصول التشريع الاسلامى ٤٩ . وانظر الحديث بشامه في البخارى

١١٩/٩ كتاب الاعتصام .

(٤) البخارى : ٣٩/٨ (كتاب الادب – باب حق الضيف) .

(٥) البخارى : ١١/١ (كتاب الايمان) .

هذه هي الطبيعة الحقيقية للمثالية الإسلامية ، فهي مثالية واقعية ان صح هذا التعبير أو هي واقعية مثالية لا تحلق بعيدا عن معاناة الأرض ودنيا الناس ، ولا تنغمس في الحمأة المنكودة وشهوانية المادة الصماء « والأخلاق الحقيقية هي التي تضع الضمير الانساني في وضع متوسط بين « المثالي » و « الواقعي » وتجعله يدمج بينهما ، وهذا الدمج يؤدي الى تغيير مزدوج في كليهما : ففي عالم الواقع يحدث جديد هو الاتجاه نحو الأفضل . كما أن القاعدة المثالية هي الأخرى باحتكاكها بالحقيقة الحسية تعدل نفسها لتلائم الواقع ، فإذا احتدم النزاع بين واجبين فقد يتعين أن يخلى أحدهما السبيل أمام الآخر ، أو تحتم طبيعة العلاقات المركبة بين الأشياء ايجاد نوع من التوفيق بينهما ، أو يسمح الجانب غير المحدد من القاعدة باختيار حر يؤكد انسانية الانسان .

وهكذا نرى ان الالتزام الخلقى يستبعد « الخضوع المطلق » متلما يستبعد « الحرية الفوضوية » ويضع الانسان في موضعه الحقيقي بين « المادة » « الصرف » و « الروح » « الصرف » (١) .

وهذه الوساطة العادلة « للقيم الإسلامية تعد عملية « توفيق » دقيقة جدا بين « الأعلى » و « الأرضي » ، وهو توفيق ضروري — كما ذكرنا مرارا — لحياة القواعد الاخلاقية وحيوية الالتزام بها ، لانه اذا حدث « انفصام » بين « العلوي » و « الأرضي » بين المثالي والواقعي ، فقد المثالي قيمته العملية ، وأصبح الواقع يتخبط بلا مرشد أو ضابط « فلا الصيغة المجردة لقاعدة عامة ، ولا التحليل الدقيق للحالة الخاصة — معزولا كلاهما عن الآخر يكفى لهداية ارادتنا ، وانما هو ٠٠٠ تركيب « المثل » الشامل القادم من أعلى مع « الواقع » الراهن الذي ليس سوى ايضاح وبيان حتى يوجد الدليل الممتاز لضميرنا ، فبين المثل الأعلى والواقع ، بين المطلق والنسبي ، يوجد الضمير الانساني علامة توحيد يجب أن يستمر في التقريب بين هذين الطرفين ، بأن يؤكد رابطة ما بينهما في صورة العمل الذي يولد من اقترانهما السعيد ، ويرتدى هذه الصفة المزدوجة التي يمثلها في وقت واحد ثبات القانون الأزل ، وجدة الابداع الفني (٢) .

فالعلاقة اذن عملية « توفيق » لا « تلفيق » والفرق بينهما كالفرق بين الطبيعي المنسجم الأجزاء ، والافتعال الذي قد يدل بظاهره على « توافق » ولكن في الواقع انه يفتقر الى عنصر التفاعل الحقيقي بين جواهره وجزئياته ٠٠٠ وفي التوفيق يراعى التناسب العملي بين العناصر المادية والروحية والعقلية تبعا لمقتضيات الحال في نطاق الحدود الشرعية أما التلفيق فلا مراعاة ٠٠٠ المهم فيه

(١) من تقديم د. السيد محمد بدوي لكتاب (دستور الاخلاق في القرآن) ص ١٠٥

(٢) دراز : دستور الاخلاق في القرآن ١٢٦ .

المظهرية ولو بالتعسف والتعننت . وبسبب هذه الفروق الهائلة بين التوفيق والتلفيق كانت الفروق هائلة بين « العمل الناتج » عن كل منهما فناتج التوفيق عمل يتسم بالصدق في المظهر والمخبر ، وناتج التلفيق عمل قد يبهى بمظهره ولكنه في حقيقته خواء . . . لا يحمل دلالة نفسية على تقوى أو صلاح . . . ومن أمثال أعمال « التلفيق » أن رجلا وجد ثمرة ملقاة في شارع من شوارع المدينة ، فرفعه بيده وصار ينادى بأعلى صوته « يا من ضاعت له ثمرة ١٩ يا من ضاعت له ثمرة ١٩ ! » فضربه عمر بن الخطاب بدرته وقال له « كلها يا صاحب الورع الكاذب » .

نعم يا صاحب الورع الكاذب . . . فالمثالية هنا لم تتلبس بلبسها الخفيفي « بالعمل » المعروض . . . والطاقة المبذولة هنا لا « تتناسب » مع طبيعة العمل وما بذل فيه من طاقة مهدرة . لذلك كانت وسطية الاسلام عادلة . . . وعدلها في كون صورتها التطبيقية جاءت « توفيقا » لا « تلفيقا » .

(٣) الهيمنة التشريعية

وأقصد بهذه السمة أن كل قاعدة من قواعد الشريعة الاسلامية لها طابعها الأخلاقي ووراءها الدافع الانساني سواء أكانت قاعدة من قواعد المعاملات أو من قواعد العبادات أو من قواعد الحدود ، وقبل أن نفصل القول في هذه السمة علينا أن نذكر ونتذكر أن الاسلام لا ينظر الى الشكل والمظهر ولكن ينظر الى الجوهر والمخبر ، ومن ثم كان للنية الاعتبار الأول في تكييف الأعمال والحكم عليها :

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال « الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » (١) .

يقول الدهلوى : اعلم أن النية روح والعبادة جسد ، ولا حياة للجسد بدون الروح والروح لها حياة بعد مفارقة البدن ، ولكن لا يظهر آثار الحياة كاملة بدونه ، ولذلك قال تعالى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » (٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - انما الأعمال بالنيات - . وشبه النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من المواضع من صدقت نيته - ولم يتمكن من العمل لما نفع - بمن عمل ذلك العمل كالمسافر والمريض

(١) البخارى ٢١/١ (كتاب الايمان) .

(٢) الحج ٣٧ .

لا يستطيعان وردا مواظبا عليه فيكتب لهما ، وكصادق العزم في الانفاق وهو مملق يكتب كأنه أنفق ، (١) .

فقيمة العمل اذن والحكم عليه يكون بالنية المصاحبة له أى بالدافع أو الباعث الذى دفع صاحبه اليه : وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله (٢) .

ومن ناحية أخرى قد يكون العمل فى ظاهره طيبا نافعا للفرد والجماعة وأمة المسلمين ومع ذلك لا يسقط ثوابه فحسب ، بل أكثر من ذلك يعتبره الاسلام على الرغم من ظاهره ونفعه رذيلة يأثم صاحبها ويعاقب عليها ، وليس أدل على ذلك من الحديث الجامع الذى روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت . قال كذبت : ولكنك قاتلت لأن يقال جرى فقيد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقل عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار ، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المسال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل يجب أن يتفق فيها الا أنفقت فيها لك . قال كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقي فى النار (٣) .

وقد تصدق النية ، ومع ذلك يتأذى العمل بصاحبه الى نتيجة غالبة ولكن يؤجر العامل على عمله هذا ، فقد روى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » (٤) .

والمسلم يتجنب الشر . ويأتى من الخير ما يستطيع طمعا فى الجنة وخوفا من النار . وهذه النية فى ذاتها أو هذا الدافع ذاته لا غبار عليه ، فالمقابل الأخرى ، قد وعد الله به الخيرين من المؤمنين فى عشرات من الآيات :

- (١) حجة الله البالغة ٨٣/٢ .
- (٢) صحيح مسلم ٥٦٧/٤ (كتاب الامارة) .
- (٣) صحيح مسلم ٥٦٨/٤ (كتاب الامارة) .
- (٤) البخارى ١٣٢/٩ (كتاب الاعتصام) .

✽ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون « (١) » .

✽ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا « (٢) » .

✽ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة « (٣) » .

✽ انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها « (٤) » .

وقد يكون للمؤمن من وراء العمل الصالح - غير الهدف الأخرى - هدف دنيوى عاجل ، وهى توفيق الله له فى الدنيا ، وتوسيع باب الرزق وما شابه ذلك ، وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه « ولو أن أهل القرى آمنوا وانفقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٥) .

وإذا كان هذا هو « مقام العامة » فهناك مقام الخاصة « الذين يعبدون الله - لا طمعا فى جنته ، ولا خوفا من ناره - فهذه هى عبادة التجار - كما قالت السيدة رابعة العدوية - ولكنهم يعبدون الله حبا له ورغبة فى رضاه بغض النظر عن الثواب والعقاب » . عن الجنة والنار ، وهم الصفوة التى يقول قائلها « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٦) .

وقد صور الامام الغزالى المقامين وحدد مكان كل منهما فى قوله « الحقيقة ألا يراد بالعمل الا وجه الله تعالى ، وهو اشارة الى اخلاص الصديقين ، وهو الاخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة ، والا فهو فى طلب حظ البطن والفرج ، وانما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط (٧) » .

فالعامل اذن يوزن بميزان النية ، والعمل يكتسب أو يعدم « قيمته الأخلاقية » تبعا للدافع الذاتى وهو ما يسمى بالنية . قال أبو سلمة : قلت لأبى سعيد الخدرى : ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم ؟ فقال : يا ابن أخى : كل لله واشرب لله والملبس لله . وكل شئ من ذلك دخله زهو أو مباحاة أو رياء أو سمعة فهو معصية أو سرف « (٨) » .

(١) التوبة ١١١ .

(٢) الكهف ١٠٧ .

(٣) البقرة ٢٤ .

(٤) الكهف ٢٩ .

(٥) الاعراف ٩٦ .

(٦) الانعام ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٧) الاحياء ١٣٥٩/٨ .

(٨) الاحياء ١٩٦٧/١١ .

وقد أشرنا من قبل الى أن « الهيمنة التشريعية » من أهم سمات القيم الإسلامية ، بمعنى أن كل الأعمال والتكاليف لا تأخذ صورتها السليمة ووجهها الصحيح الا اذا كان لها طابعها الأخلاقي الانساني ، وحقت أغراضها ومراميها الانسانية التي تعد في ذاتها الحكم التي أرادها الشارع من وضعها .

وتتجلى هذه « الهيمنة التشريعية » للطوائع الاخلاقية الاسلامية في جوانب كثيرة جدا من التشريعات أهمها : العبادات والقواعد القانونية وخاصة في مجال المعاملات والمدنيات . وسنحاول أن نلقى الضوء على هذين الجانبين .

أولا - هادفية العبادات :

بنى الله سبحانه وتعالى - الاسلام على خمس قواعد . الشهادتين وهما الركن الأول . أما الأركان الأربعة الباقية فتمثل ما يسمى بالعبادات وهي : اقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا .

وهذه العبادات حددتها لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - كما وكيفا : فالصلاة خمس منها الثنائية والثلاثية والرابعة في أوقات محددة ، وهي تؤدي بهيئة معينة حددها النبي عليه السلام .

والزكاة أنواع منها : زكاة المال وزكاة التجارة وزكاة الفطر وزكاة الحيوان . الخ .

والصوم شهر في العام هو شهر رمضان .

والحج مرة في العمر ، في وقت محدد في العام بأركان وشروط معروفة . والمسلم مطالب بأن يؤدي هذه العبادات - من الناحية الشكلية المظهرية - بالصورة التي تطلبها الاسلام ، فليس له مثلا أن يصلي الظهر ثلاث ركعات ، وليس من حقه أن يصلي المغرب أربع ركعات . ولكننا نلاحظ بالنسبة لهذه التكاليف التعبدية أمرين :

الأول : أن القرآن لم يفضل أغلبها من ناحية الكم والتوقيت ، وما يعرف بشأن تفصيلاتها إنما عرف من السنة بنوعيتها : القولي والعملي .

الثاني : أن القرآن في حديثه عن هذه العبادات يحرص على أن يربطها دائما بأهدافها وقيمها الأخلاقية والانسانية العليا ، وقد رأينا من قبل أن المسلم قد يعذب بعمله « الصالح » اذا كان وراءه نية خبيثة غير صالحة ، وهي قاعدة عامة تصدق على الجهاد والعلم والصدقة . الخ .

ولنقف قليلا أمام المنطق القرآني . وهو يلتفتنا لجوهر العبادة والهدف النبيل الذي شرعت من أجله .

١ - فالصلاة : وهي عماد الدين - ذكرت في القرآن عشرات المرات ،
والعجيب أن التعبير عنها كان دائما « بالاقامة » لا « بالأداء » ٠٠ القرآن يقول
« أقيموا الصلاة » لا « أدوا الصلاة » ويتحدث عن المؤمنين بأنهم يقيمون
الصلاة ٠

يقول الامام محمد عبده في تفريقه الباهر بين الاقامة والأداء : ان الصلاة
متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية : انه صلى ، وان
كان عمله هذا خلوا من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة ،
فاحتيج الى لفظ يدل على هذا المعنى الذي به قوام الصلاة وهو ما عبر عنه القرآن
بلفظ الاقامة ، وقد قالوا ان اقامة الصلاة عبارة عن الاتيان بجميع حقوقها من
كمال الطهارة ، واستيفاء الأركان والسنن ، وهو لا يعدو وصف الصورة الظاهرة
وانما قوام الصلاة الذي يحصل بالاقامة هو التوجه الى الله تعالى والخشوع الحقيقي
له والاحساس بالحاجة اليه تعالى ٠

فاذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلي أنه أقام الصلاة
فانه قد هدمها باخلائها من عمادها وقتلها بسلبها روحها (١) ٠

ولقد أبان القرآن الكريم عن جوهر الصلاة وغايتها في قوله تعالى « اتل
ما أوحى اليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر
ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » (٢) ٠

فرسالة الصلاة هي احياء النفس وتربية الضمير وصقل القلب . وغرس
التقوى في أعماق المؤمن : فاذا ما هم بمعصية كان لصلاته « صوت » قوى
ينهاه و « سوط » لاهب يكبح جماح كل نازع خبيث ٠

أما اذا تخلت الصلاة ، أو شاء صاحبها أن تتخلى عن رسالتها فهي
الاستغفار الذي يحتاج الى استغفار ٠ وعن ابن عباس رضى الله عنهما « من لم
تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله الا بعدا » ٠
وعن الحسن رحمه الله « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته
بصلاة وهي وبال عليه » (٣) ٠

ومن كرامة الصلاة أن الله - سبحانه وتعالى - قرنها أكثر من مرة بخلقة
من أنبل الخلائق الانسانية وهي الصبر :

(١) تفسير المنار ١/ ١٢٨ ٠

(٢) المتكوت ٤٥ ٠

(٣) انظر الكشف ٣/ ٢٠٧ ٠

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ﴾ (١) .
﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين ﴾ (٢) .

كما يقرنها زيادة على ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وصية لقمان لابنه :

﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك »
ان ذلك من عزم الأمور ﴾ (٣) .

والمصلي الذي يحرص على صلاته ويحافظ عليها يفرس الله في نفسه الطمأنينة فلا يعرف الهلع أو الضعف أو الاستسلام في حالة الضراء ، وهو خير معطاء في السراء . استمع الى قوله تعالى « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » (٤) .

فالهلع والجزع من صفات الانسان الذي خوى قلبه من يقين الايمان . واستثناء المصلين من هذه النوعية من البشر يمنحهم - بمفهوم المخالفة - عكس هذه الصفات ويلاحظ كذلك أن الآيات نصت على « ديمومة الصلاة » وهي صفة « تعطى صفة الاستقرار والاستطراد ، فهي صلاة لا يقطعها الترك والاهمال والكسل ، وهي صلاة بالله مستمرة غير منقطعة » . وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذا عمل شيئا من العبادات أثبتته - أي داوم عليه - وكان يقول : « وان أحب الأعمال الى الله تعالى ما دام وان قل » (٥) .

والى هذا المفهوم الجوهرى الانسانى للعبادة كان القرآن يلفت أنظار المسلمين دائما : فالعبادة بجواهر الأشياء لا بقشورها وفروعها . وحينما أراد أهل الكتاب أن يشددوا المسلمين الى معركة فرعية بخوضهم فى مسألة القبلة وتحولها من بيت المقدس الى الكعبة وخاض معهم بعض المسلمين هذا المخاض - حينئذ نزل القرآن ليرد المسلمين الى النهج الصحيح الذى كاد ينحرف بهم عن الجوهر الصادق الى المظهر الذى لا تتأسس عليه العقائد ، ولا تبني عليه قواعد « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى

(١) البقرة ٤٥ .

(٢) البقرة ١٥٣ .

(٣) لقمان ١٧ .

(٤) الماعز ١٩ - ٢٣ .

(٥) سيد قطب : الظلال ٣٦٩٩/٦ .

الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون « (١) » .

ان القرآن يوجه نظر المسلمين الى المضمون الانسانى للعمل .. انه يقول للمسلم : أصدق النية ، وتقدم واثق العزيمة ، وأد العمل بقدر ما تستطيع لله والناس والمجتمع ، أما الذين يهدرون طاقاتهم وجهدهم فى قشور الأشياء ومظاهرها فليسوا من الحق ولا من البر فى شيء .

ان الاسلام يفتح مفهوم البر ليتسع لكل عمل انسانى ، ويتسع هذا المفهوم حتى يكاد يكون مرادفا « للانسانية » بجانبها القولى والفعل ، فالبر كل عمل يفعلُه الانسان قضية لانقياده للملأ الأعلى ، واضمحلاله فى تلقى الالهام من الله ، وضرورته فانيا فى مراد الحق ، وكل عمل يجازى عليه خيرا فى الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يصلح الارتفاقات التى بنى عليها نظام الانسان ، وكل عمل يفيد حالة الانقياد ويدفع الحجب .

والاثم كل عمل يفعله الانسان قضية لانقياده للشيطان وضرورته فانيا فى مراده وكل عمل يجازى عليه شرا فى الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يفسد الارتفاقات ، وكل عمل يفيد هيئة مضادة للانقياد ويؤكد الحجب (٢) .

٢ - والصوم لا يقصد به الاجاعة والاطماء ، فالامتناع عن الطعام والشراب فى نهار رمضان هو المظهر الحسى المباشر للصوم ، ولكن الصوم ليس « عقابا » . يفرض على المؤمن ، انما هو « تربية » علوية لها جانبها الاجتماعى وجانبها النفسى وجانبها الانسانى العام مما لا يتسع هذا المقام لتفصيل القول فيه . وقد قيل لنبي الله يوسف « مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » (٣) .

فالصوم اذن ليس التزاما بالجوع والعطش المقصودين ذاتهما ولكنه التزام خلقى يتخذ من الجوع والعطش وسيلة موصلة الى الخير .. يوسف يجوع لا حبا فى الجوع لذاته ولكن ليذكر آلام الجائعين .. والمسلم يجوع ويعطش ليذكر آلام الجوعى والعطشى .

ان من جوامع الكلم قوله صلى الله عليه وسلم « الصيام جنة » والجنة بضم

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) الدهلوى : حجة الله البالغة ٥٨/١ .

(٣) الشفا ٢٩٩/١ .

الجيم . هي كل ما وقى (١) . فهو وقاية للانسان من النهم والبطنة وأمراض البدن والمعدة كما أثبت الأطباء بالشواهد الجازمة .

وهو وقاية للانسان من التطلعات الشهوانية ومن السقوط والانحراف والاساءة الى الآخرين . فالالتزام الخلقي للصائم يقتضيه ألا يرفث ولا يجهل ، وان امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل انى صائم (٢) .

والانسان تحكمه عاداته ، ويصل به الأمر الى أن يصبح مجموعة من العادات ، وتتحكم فيه العادات الى درجة يصبح معها كأنه آلة من الآلات تسير على نسق معين وتؤدي أعمالا محدودة ، فيبتعد كل الابتعاد عن المرونة التي تفرق بينه وبين الآلات .

والانسان الذي تحكمه عاداته يصبح عبدا لها ، ويتخلى عن شيم الأحرار الذين يعملون في حرية واختيار . وفرض الله الصيام ليحرر الانسان من هذه العبودية ، فان الصيام يقلب العادات رأسا على عقب ، ويعلم الانسان نوعا من المرونة حتى لا يتصرف تصرف الآلة (٣) .

ويطول بنا المقام لو رحنا نستقرئ القيم النفسية والروحية والدروس العملية في الزكاة والحج . وكفيينا أن نقول ان كل هذه العبادات استطاعت أن تربي جيلا من المسلمين فتح مشارق الأرض ومغاربها ، ونشر كلمة الله في أرجاء المعمورة وكان لسان حالهم يقول « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ونحن له عابدون » (٤) .



ثانيا - أخلاقية القواعد القانونية وبنائها على أساس انساني :

وصف القرآن النبي عليه السلام بأنه على خلق عظيم ، ولخص النبي جوهر رسالته في قوله « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، واتساقا مع هذا الجوهر العظيم في شخصية الرسول وشخصية الرسالة كانت كل التكاليف الاسلامية — كما ذكرنا أكثر من مرة — ذات مضامين أخلاقية سامية وأهداف انسانية نبيلة، « فالشريعة الاسلامية » تعتبر من أبرز القوانين التي لا تقيم حدودا فاصلة بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية ، فالنظم القانونية الاسلامية لا تغلق أبوابها في وجه القواعد الأخلاقية بحيث تستطيع هذه المبادئ أن تتسرب بسهولة الى الكيان القانوني » (٥) .

(١) القاموس المحيط : فصل الجيم باب النون (٢١٠/٤) .

(٢) انظر البخارى ٣١/٣ (كتاب الصوم) .

(٣) عبد الحلیم محمود : اسرار العبادات في الاسلام ٨٣ .

(٤) البقرة ١٣٨ .

(٥) أبو طالب : مبادئ تاريخ القانون ٤١٠ .

ومظاهر الهيمنة الاخلاقية على القواعد القانونية الاسلامية كثيرة جدا في
فقه المعاملات بخاصة نجتزى منها بما يأتي :

١ - نظرية التعسف في استعمال الحق :

فالنظرية الاسلامية في الحق ترى أن استعماله يجب أن يعتمد على القيم
الانسانية العليا مثل العدل والمساواة والاحسان والتباعد المعروف وتجنب
الظلم والفساد . وعلى عدد من القواعد الشرعية العامة التي أقرتها الشريعة
قصدا الى ايجاد مجتمع مثالي متكامل سليم صالح .

وبناء على ذلك يجب أن يكون استعمال الحقوق سبيلا الى تحقيق المصالح
وجلبها والى دفع المفاسد وتجنبها سبيلا . يقوم النظر فيه الى المجتمع أولا والى
الفرد ثانيا باعتبارها جزءا منه . فإذا كان في استعمال المالك حقه ضرر بغيره
وجب أن يوازن بين مصلحته المشروعة التي أرادها والمضرة التي تترتب على
استعماله له ، فان رجحت مصلحة المالك سلم له حقه ، وان رجحت مضرة غيره
قيد حقه بما يدفع المضرة .

ويبدو من النظر في أقوال الفقهاء أن ما يترتب على استعمال المالك لحقه
من الضرر بغيره قد يكون ضررا يغلب على الظن وقوعه ، وقد يكون ضررا لا يغلب
على الظن وقوعه ، ثم هو مع ذلك قد يكون ضررا كثيرا ، وقد يكون قليلا .
وقد يكون ضررا مقصودا قصد اليه من أراد من المالك استعمال حقه وثمة يكون
غير مقصود لم تتجه اليه ارادة المالك المستعمل لحقه . كما يبدو أنهم عندما
تعارض المصالح والمفاسد في هذه الأحوال يعمدون الى مراعاة تطبيق القواعد
الشرعية الآتية :

- الضرر يزال .
 - يتحمل الضرر الأخف لدفع الضرر الأشد .
 - يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ، ويجب تقديم المصلحة العامة
على المصلحة الخاصة .
 - دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح .
 - الضرورات تبيح المحظورات (١) .
- وثمة ضوابط ومعايير تجعل استعمال المالك لحقه تعسفا ، وهذه
المعايير هي :

- إذا لم يقصد المستعمل لحقه سوى الاضرار بغيره .

(١) انظر على الخفيف : الملكية في الشريعة الاسلامية ص ١٠٠ وما بعدها .

— اذا كانت مصلحته التى يبتغيها من استعماله حقه تتعارض مع مصلحة عامة او مصلحة خاصة تفوقها بحيث ترى مصلحة قليلة الأهمية ، ولا تتناسب البتة مع ما يصيب غيره من ضرر عظيم بسببها ، ولم يكن ذلك الضرر نادر الوقوع .

— اذا كانت المصلحة التى يبتغيها المالك من استعمال حقه تؤدي الى الاضرار بغيره ضررا فاحشا بينا ، وكان فى استطاعته تحقيق مصلحته بطريق آخر لا يؤدي الى هذا الضرر .

— اذا كان الضرر المترتب على الاستعمال عظيما محتمل الوقوع وليس بالأمر النادر .

— اذا كان المالك على علم بترتب الضرر الفاحش ، وكان فى استعماله لحقه مترفها لا يلحقه ضرر من تركه وأقدم مع ذلك عليه (١) .

وفى مجال الحديث عن التطبيقات العملية لنظرية التعسف فى استعمال الحق تحدث الفقهاء عن حق الجوار وقالوا ان للجوار على جاره من الحقوق الأدبية والخلقية ما يجعله ملزما بالمحافظة على أمواله وحقوقه . وعلى ذلك فليس للجوار أن يتخذ من داره مصنعا تنبعث منه رائحة كريهة ، أو يحدث صوتا مزعجا أو هزات قد توهن الجدران وتقلق السكان ، أو يفتح نافذة على ملك جاره ، أو يقيم بناء يمنع الضوء والهواء عن جاره .

لكن : هل يمنع الانسان من هذا قضاء أم ديانة ؟

المقدمون من الأحناف ومعهم الشافعى وأحمد على أن القياس لا يمنع المالك من التصرف فى ملكه كيف شاء ، وحق الجوار عليه لا يحد من تصرفه فى ملكه : فله أن يتخذ منها مصنعا أو متجرأ أو مسكنا ، وله أن يحضر فيها ما شاء من حفر وآبار الى غير ذلك من سائر التصرفات ، ولا يمنع من ذلك بقوة القضاء ، لكن من الناحية الخلقية فانه يجب عليه أن يحافظ على احساس جاره وشعوره ويعمل على راحته واکرامه فان خالف فلا سلطان لأحد عليه فى الدنيا ، وحسابه على ذلك عند الله .

، والمتأخرون من الأحناف ومعهم الامام مالك تخلفوا عن القياس فى هذا الحكم واستحسنوا أن يلزم الجوار بالامتناع عن عمل فيه اذى واضرار ببناء جاره أو راحته ، وخصوصا أن الناس ساءت أخلاقهم وتركوا ما أمرهم به الدين من مراعاة الجوار ، فوجب الزامهم بهذا قضاء والزامه بنتيجة فعله وازالة ما ينتج عنه الضرر (٢) .

(١) السابق ١٠٤ .

(٢) النظر : سلام مذكور : الفقه الاسلامي ٢١٩ .

ومن تطبيقات نظرية التعسف على الدائن - وهو صاحب حق لا ينكر - أن عليه أن يمهل المدين إذا كان المدين معسرا استجابة لقوله تعالى « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » (١) . يروى أن رجلا أصيب في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم « خذوا ما وجدتم وليس لكم الا ذلك » (٢) .

فالشريعة تقتضى الرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله ، لذلك نجد صاحب مرشد الحيران يقرر في م ١٦٤ انه « إذا كان المالك مديونا ديننا ثابتا عليه شرعا يجوز نزع ملكية الزائد عن حوائجه الضرورية المحتاج اليها في الحال ومنها مسكنه الضروري إذا لم يكن له مال من جنس ما عليه من الدين الشرعى ، ويباع قضاء إذا امتنع عن بيعه بنفسه لقضاء دينه من ثمنه ، ويبدأ في البيع بالأيسر فالأيسر بقدر الدين » (٣) .

٢ - نظرية الضرورة :

يعتبر رفع الحرج أصلا من أصول الشريعة الاسلامية ، ويعنى بالحرج تحمل المرء مشقة زائدة عن المشقة المعتادة في التكاليف وذلك مرفوع عن المكلفين لأمرين :

الأول : أن المكلف مطالب بأعمال متنوعة لابد له من القيام بها ، فإذا تجاوز حد الاعتدال من ناحية فقد تعرض للانقطاع أو التقصير في ناحية أخرى ، وتوجه اليه اللوم على ذلك ، كمن يكثّر من العبادة حتى يقصر في حق الزوجة والولد ، ويهمل السعى في طلب الرزق .

والثاني : أن تحميل النفس من التكاليف ما يشق يبغضها اليها ، ويؤدي بها الى الانقطاع عن التكاليف جملة ، ومن أجل هذا جعل الله الشريعة سهلة سمحة محبة الى قلوب المؤمنين » (٤) .

قالت عائشة - رضى الله عنها - ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين أمرين قط الا أخذ أيسرهما ما لم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس منه (٥) .

(١) البقرة ٢٨٠ .

(٢) القرطبي : ١١٨٠/٢ .

(٣) أبو طالب : السابق ٤١١ .

(٤) انظر حبيب الله : أصول التشريع الاسلامي ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٥) البخاري : ٣٧/٨ (كتاب الادب) .

لذلك كانت نظرية الضرورة لونا من لوان التيسير على الناس ودفع الحرج عنهم وهى تعتبر تطبيقاً مهماً للاتجاه الأخلاقى الذى يسود التشريع الإسلامى ، فهى تسود فى كثير من المبادئ القانونية الإسلامية ، وتعتمد على كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وقد عبر الفقهاء عن هذه المبادئ بتعبيرات مختلفة منها : لا ضرر ولا ضرار ، المشقة تجلب التيسير ، الضروريات تبيح المحظورات ، الضرر يدفع بقدر الامكان (١) .

فالضرورة تلجئ الإنسان الى الاضطراب . والاضطرار عند علماء الشريعة هو الاجاء الى الفعل من الإنسان أو غيره ، فهو يشمل الاكراه الذى يكون الدافع فيه على الفعل من الإنسان ، ويشمل غيره ، وهو ما يكون الدافع فيه على الفعل القوة الطبيعية .

وهذان النوعان يتساويان فى أن كلا منهما قد يبيح المحظور تمشياً مع قاعدة الضرورات تبيح المحظورات . والأحناف يقسمون الاكراه من ناحية اباحة الفعل والترخيص فيه الى ثلاثة أقسام :

الأول : نوع يبيح الفعل كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر اذا كان الاكراه تاماً لأن هذه الأشياء مما يباح عند الاضطراب .

الثانى : لا يبيح الفعل لكنه يمنع المؤاخذه وهو اجراء كلمة الكفر على اللسان مع اطمئنان القلب بالايمان اذا كان الاكراه تاماً ، وهو يحرم فى نفسه مع ثبوت الرخصة المانعة من المسئولية ، لأن كلمة الكفر مما لا يحتمل الاباحة بحال . فكانت الحرمة قائمة الا أنه سقطت المؤاخذه لعذر الاكراه .

الثالث : لا يبيح الفعل ولا يرخص فيه : كقتل المسلم بغير حق ، أو قطع عضو من أعضائه ولو كان الاكراه تاماً لأن قتل المسلم بغير حق لا يحتمل الاباحة (٢) .

ولنظرية الضرورة تطبيقات متعددة من أهمها : التطبيقات المتعلقة بعقد الایجار : من ذلك انقاص الأجرة فى حالة هلاك الزرع فى العين المؤجرة ، وامكان فسخ عقد الایجار بالعذر ، وقد يكون العذر راجعاً للعين المؤجرة كمن يستأجر حماماً فى قرية ثم يهجر الناس تلك القرية ، وقد يرجع العذر للمؤجر كمن يضطر لبيع عين مؤجرة ليوفى من ثمنها ديناً عليه اذا لم تكن لديه وسيلة أخرى يستطيع بمقتضاها وفاء ذلك الدين ، وقد يرجع العذر للمستأجر كانتقاله من حرفة الى أخرى أو افلاسه . (٣) .

(١) أبو طالب : السابق ٤١٢ .

(٢) راجع سلام مذكور : نظرية الاباحة عند الاصوليين والفقهاء ٣٨٨ - ٣٩١ .

(٣) أبو طالب : السابق ٤١٢ .

وقد وضع الفقهاء « للحالة » حتى تكون من قبيل حالات الضرورة شروطا أربعة هي :

- أن تكون الضرورة ملجئة بحيث يجد الفاعل نفسه أو غيره في حالة يخشى منها تلف النفس أو الأعضاء
- أن تكون الضرورة قائمة لا منتظرة : فليس للجائع ان يأكل الميتة قبل أن يجوع جوعا يخشى منه .
- ألا يكون لدفع الضرورة وسيلة الا ارتكاب المحرم ، فإذا أمكن دفع الضرورة بفعل مباح امتنع دفعها بفعل محرم : فالجائع الذي يستطيع شراء الطعام ليس له أن يحتج بحالة الضرورة اذا سرق طعاما .
- أن تدفع الضرورة بالقدر اللازم لدفعها ، فليس للجائع المضطر الى أكل الميتة أن يأكل منها الا بقدر اذهاب الهلكة عنه (١) .

ونظرية الضرورة في الشريعة الاسلامية تتمشى مع أحدث النظريات القانونية التي ظهرت في الفقه الحديث في هذا الصدد ، وقد عبر عن ذلك الفقيه الفرنسي لابيير بقوله « تعتبر نظرية الضرورة في الفقه الاسلامي أشد ما تكون جزءا وشمولا عن فكرة يوجد أساسها في القانون الدولي العام في نظرية الظروف المتغيرة . وفي القضاء الاداري الفرنسي في نظرية الظروف الطارئة . وفي القضاء الانجليزى فيما أدخله من المرونة على نظرية استحالة تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الاقتصادية التي نشأت بسبب الحرب ، وفي القضاء الدستوري الأمريكى في نظرية الحوادث المفاجئة (٢) .

ونظرية الحوادث أو الظروف الطارئة التي أشرنا اليها والتي تجد أصلها في نظرية الضرورة الاسلامية — نظرية الحوادث الطارئة تعبر عنها الفقرة الثانية من المادة ١٤٧ من القانون المدنى المصرى . تقول الفقرة الاولى من هذه المادة « العقد شريعة المتعاقدين » فلا يجوز نقضه ولا تعديله الا باتفاق الطرفين أو للأسباب التي يقررها القانون .

وتنص الفقرة الثانية — وهى شاهدا هنا — « ومع ذلك اذا طرأت حوادث استثنائية عامة لم يكن فى الوسع توقعها ، وترتب على حدوثها أن تنفيذ الالتزام التعاقدى ، وإن لم يصبح مستحيلا ، صار مرهقا للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة جاز للمقاضى تبعا للظروف وبعد الموازنة بين مصلحة الطرفين أن يرد الالتزام المرهق الى الحد المعقول ، ويقع باطلا كل اتفاق على خلاف ذلك » .

(١) انظر : عودة التشريع الجنائى الاسلامى : القسم العام ٥٧٧ .

(٢) أبو طالب السابق ٤١٢ .

وتتلخص فكرة هذه النظرية أن هناك عقودا يتراخى فيها التنفيذ الى أجل أو الى آجال ، ويحصل عند حلول أجل التنفيذ أن تكون الظروف الاقتصادية قد تغيرت بسبب حادث لم يكن متوقعا ، فيصبح تنفيذ الالتزام شاقا على المدين . ومهقا له الى الحد الذى يجعله مهددا بخسارة فادحة . الأمر الذى يجيز للقاضى أن يتدخل ليوزع تبعه هذا الحادث على عاتق الطرفين .

ومثال ذلك أن يتعهد شخص بتوريد سلعة تم يحدث قبل حلول ميعاد التوريد أن يرتفع ثمن هذه السلعة الى ثمانية أضعاف ثمنها وقت العقد ، وذلك بسبب قيام حرب فجائية أدت الى تعذر ورود السلعة من الخارج فيصبح هذا الشخص مهددا بخسارة جسيمة تجاوز الحد المألوف فى مثل هذه الحالة وحينئذ يجوز للقاضى أن يعدل التزام المدين بحيث يقف به عند الحدود المعقولة (١) .

وواضح أن الفقرة الأولى من المادة المذكورة تعبر عن القاعدة العامة فى العقود أما الفقرة الثانية فتتمثل الاستثناء الوارد على هذه القاعدة ، وهو استثناء يعتمد أول ما يعتمد على قواعد العدالة التى توجب مراعاة الظروف .

وشبيهة بالشروط التى اشترطها فقهاء المسلمين فى حالة الضرورة كانت الشروط التى اشترطها فقهاء القانون فى الحادث الطارىء حتى ينتج أثره القانونى ، فاشترطوا فى هذا الحادث من حيث طبيعته ومنشأه :

- أن يكون استثنائيا أى نادر الوقوع كزلازل أو حرب أو وباء .
- أن يكون عاما كالأحداث السابقة لا خاصا بالمدين كمرضه أو موت ابنه .
- ألا يكون متوقعا وقت إبرام العقد .
- أن يستحيل تحاشي وقوعه .

ويشترط فى الحادث الاستثنائى من حيث نتيجته أن يترتب عليه جعل الوفاء مهقا للمدين ارهاقا يهدده بخسارة فادحة . ويقدر الارهاق تقديرا موضوعيا لا شخصيا أى يعول فى تقدير الارهاق على مدى اختلال التوازن الاقتصادى بين التزامات الطرفين بقطع النظر عن ثروة المدين (٢) .

فالنظريتان : نظرية التعسف فى استعمال الحق ، ونظرية الضرورة التى تركت بصماتها واضحة فى نظرية القوة القاهرة ونظرية الظروف الطارئة استقتا

(١) عبد المعيم الصادة : مصادر الالتزام ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) راجع فى تفصيل ذلك : سليمان مرفص : موجز أصول الالتزامات (٣٥٥ - ٣٦٢) .

من منبع أصيل هو « الانسانية » والانسانية هي القيمة العليا التي تجعل العدل فوق القوة ، والروح فوق الحرفية والرحمة فوق القانون . . . فالقانون في الاسلام وسيلة لا غاية . . . وحتى القانون - بهذا التحديد - تتقدم عليه نوازع الرحمة والعفو والأمان والاعذار : حينما جاء ماعز الى النبي - صلى الله عليه وسلم - مقرا بالزنى رده النبي عدة مرات وكان « يستجوبه » استجواب الرؤوف الرحيم الذي يفتح أمام المتهم ألف باب وباب للتراجع « لعلك باشرت بها . لعلك فاخذتها . . . لعلك . . . لعلك » ولكن ماعزا يصر على أنه ارتكب الزنى الموجب للحد . . . لأنه يحرص على حد قوله أن « يتطهر بالحد » نعم فالخطيئة لم تقتل فيه عنصر الطهر النادم أو الندم الطهور .

ورجم النبي - صلى الله عليه وسلم - الغامدية بعد أن ردها كذلك عدة مرات حتى وضعت حملها . . . ثم حتى فطمت طفلها الذي جاءت به من إسفاح . واشترك خالد بن الوليد في رجمها ، وسبها خالد لأن دما منها أصاب وجهه ، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال « مهلا يا خالد . فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (١) .

وفي عهد عمر سجل المسلمون انتصارا حاسما في « تستر » ببلاد فارس ولكن عمر لم يفرح للنصر بقدر ما حزن حينما علم أن المسلمين قتلوا في تستر مسلما ارتد عن الاسلام قال عمر والحزن يعتصر قلبه « فهلا أدخلتموه بيتا ، وأغلقتهم عليه ، وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستتبتموه ، فإن تاب والا قتلتموه ؟ ثم قال « اللهم اني لم أشهد ولم آمر ولم أرض اذ بلغني » (٢) .

وللعلماء كلام انساني كثير في الحدود : منه ان الحد لا يجب على جاهل بالتحريم لأنه - صلى الله عليه وسلم - سأل الزاني عن حكم الزنى . فقال : أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من أهله حالا . وان الحد لا يقام على الحامل ، وانها اذا ولدت الصبي أمهلت حتى ترضعه وتقطمه . وأن الامام لا يجب عليه أن يبتدئ بالرجم ، وأنه لا يجوز سب أهل المعاصي اذا تابوا وانه يصلى على من قتل في حد الزنى . وان المقر اذا استقال في أثناء الحد وفر ترك ولم يتم عليه الحد فقبل لأنه رجوع ، وقيل لأنه توبة قبل تكميل الحد ، فلا يقام عليه كما أو تاب قبل الشروع فيه (٣) .

وأخيرا وقبل أن نترك هذا الفصل علينا أن نتنبه الى ملمح قرآني قوي

(١) زاد المعاد ٢٠٦/٣ (والمكس : النقص والظلم) .

(٢) الطغطاويان : سيرة عمر بن الخطاب ٣٥١ .

(٣) زاد المعاد السابق نفس الصفحة .

يدور في فلك الهيمنة التشريعية للأخلاق في الأحكام والأعمال والتكاليف ، وأعني بهذا الملمح القرآني « الحضور الرباني » أو « حضور اسم الله » في الأوامر والنواهي والأحكام والقصص والأخبار والمعاملات ومظاهر الطبيعة والعقاب والنعيم ٠٠٠ الخ : ففي أول آية قرآنية « اقرأ باسم ربك ٠٠ » ربطت القراءة أو العلم باسم الرب الخالق الباني للإحياء بأن العلم يجب أن يكون ذا هدف إنساني في بناء نبيل كما أشرنا من قبل ٠

والمداينة أمر لا تخلو منه حياة الأفراد والمجتمعات ، بل هي أصل من أصول الاقتصاد حالياً في العلاقات المصرفية على مستوى الأمة الواحدة بأفرادها في علاقاتها الاقتصادية ٠

وآية المداينة هي أطول آية في القرآن وأكثرها تفصيلاً (١) ٠ ومع ان الآية تتعلق بالتعامل المادي البحت إلا أن القرآن يذكر المتعاملين باسم الله ويهز في نفوسهم وجدان التقوى وحياة الضمير « ٠٠ ولا يَأْب كاتب أن يكتب كما علمه الله ٠ » ٠٠ وليلل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ٠٠ » ٠٠ واتقوا الله ويعلمكم الله ٠٠ فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ٠٠ والله بما تعملون عليم ٠

التذكير بالتقوى والعدل واسم الله ٠٠ كلها أمور تحول بين الإنسان وغرام المادة وجاذبيتها القوية : فلا يسقط في حماة الشيطان بالغش أو الكذب في الكتابة أو الشهادة أو الاملاء ٠

وآيات الربا والميراث والوصية والقتال والزواج ٠٠ الخ تنحو هذا المنحى وتتخذ نفس الاتجاه ، وكلها تحرص الحرص كله على تربية الوجدان الأخلاقي في الإنسان ٠

الفصل الثالث

درجته

القيم ... والمنهج

سئلت عنه السيدة عائشة - رضى الله عنها - فقالت : كان خلقه القرآن :
يرضى برضاه ويسخط بسخطه (١) .

ولم تبالغ السيدة عائشة ولم تسرف فى القول لان القرآن لم يذكر أية قيمة من القيم الأخلاقية الا وكان لها مكانها فى شخصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى أقواله وأفعاله .

ووصفه ابن أبى هالة بقوله « كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح » (٢) .

وحينما سألته على بن أبى طالب - كرم الله وجهه عن سنته قال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهد خلقى ، وقرة عيني فى الصلاة » (٣) .

المعرفة .. العقل .. الحب .. الشوق .. ذكر الله .. الثقة .. قائمة من القيم الأخلاقية الانسانية العظيمة ، صنعت النسيج النفسى لهذه الشخصية العظيمة ... وكل صفة منها يمكن ردها الى مآصلها القرآنى . بل ان القرآن قد ألج على كل واحدة منها بعشرات من الآيات ، ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى صدق السيدة عائشة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

لقد عصمه الله من مفاتن الجاهلية من صغره ، وكان فى شبابه وقبل أن يبعثه الله نبيا ورسولا موضع ثقة المجتمع الجاهلى فهو عندهم « الأمين » .. وهو الصادق الذى لا يعرف الكذب بشهادة أبى سفيان أمام قيصر الروم ، ولم يكن أبو سفيان قد أسلم آنذاك .

(١) أنظر الشفا ٢٠٧/١ .

(٢) السابق ٢٤٦/١ .

(٣) السابق ٢٨٨/١ .

ومن عجب أن قریشا التي جمعت عصابة شر : من كل قبيلة فتى لضرب محمد ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه في القبائل فلا تقدر هاشم ولا بنو عبد المطلب ان يثأروا لدمه . . قریش هذه لم تكن تستأمن على ودائعها الا محمدا عليه السلام ، ومن ثم خلف النبي عليا وراءه في مكة ليؤدي الودائع لأصحابها ، وهاجر هو وصاحبه أبو بكر . .

انها الأمانة التي لا تفرق في المعاملة بين المسلم والكافر ، وكان هو أول الآخذين أنفسهم بقوله تعالى « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (١) .

وفي أرض الجهامة والعبوس والقسوة : قسوة الطبيعة وقسوة الأرض وقسوة الحياة . وقسوة قلوب كالحجارة بل أشد قسوة « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله » (٢) .

في هذه الأرض ظهر محمد رحمة مهداة ، فأحب أصحابه وأحب أصحابه حبا لما يحبوه آباءهم وأبناءهم وأخوانهم ، وبالرحمة استطاع أن يكبح جامح النفوس وأن يلين جامد القلوب ، ونحقق فيه قوله تعالى « فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٣) .

نعم لانفضوا من حولك ، ولكنك كنت « الرحمة المهداة » التي جمعت حولها قلوب القساة الأفظاظ فاذا هي ألين من الماء وأنقى من صفحة السماء إنه « محمد رسول الله » والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . . » (٤) .

ورحمته جمعت حوله من حرما الرحمة ، واستضعفوا في الأرض . . . هؤلاء الذين أمره ربه أن يصبر نفسه معهم . . مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فأحبهم وأحبوه . ووعدهم الله « ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أدنا » (٥) .

(١) النساء ٥٨ .

(٢) البقرة ٧٤ .

(٣) آل عمران ١٥٩ .

(٤) الفتح ٢٩ .

(٥) النور ٥٥ .

ومرت الأعوام ٥٠ وكما وعد محمد : تملك بدوى فقير سوارى كسرى ،
وأذن مستضعف آخر من قمة الايوان ٥٠ وذلك المستضعفون الحفاة ملك قيصر ،
وامتدت للإسلام امبراطورية لا تغيب عنها الشمس .

ولم تكن رحمة محمد تقف عند حد ، فهي متسعة الأرجاء ممتدة المناحي :
فقل القاضى عياض عن بعض العلماء قوله « من فضل محمد أن الله أعطاه اسمين
من أسمائه فقال : بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١) .

وكان رحيمًا بالأطفال محبا لهم : قال أبو هريرة : قبل رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا .
فقال الأقرع : ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر اليه رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : من لا يرحم لا يرحم » (٢) .

ويروى انه عليه الصلاة والسلام - صلى بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها
على عاتقه فاذا سجد وضعها ، واذا قام حملها (٣) .

وكان رحيمًا حتى مع المخطئين ، وقد أشرنا فى الفصل السابق الى موقفه
من ماعز وموقفه من الغامدية . فاذا ما كان الخطأ ناتجا عن جهل بقواعد الدين
أو قواعد التعامل والعلاقات الاجتماعية لم يقس على الخاطئ بل أخذه بالرأفة
وجه نظره فى هواة . فحينما رأى المسلمون اعرابيا يبول فى المسجد حاولوا
أن يمنعوه ويؤذوه فأمرهم النبي أن يتركوه ولا يقطعوا عليه بوله لأن ذلك
يحزنه ويؤذيه ، ثم يدعوا بدلو من ماء يصب على مكان التبول ويرشد الأعرابي
فى رأفة وهواة الى ما يجب عليه عمله فى مثل هذه الحال (٤) .

ولم يحرم الحيوان حظه الأوفى من رحمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فقد نهى أن يتخذ الناس الحى - أى الطير والحيوان - غرضا توجه اليه
السهام (٥) .

وهو عليه السلام القائل « ان الله كتب الاحسان على كل شىء فاذا قتلتم
فأحسنوا القتل . واذا ذبحتم فأحسنوا الذبح . وليجد أحدكم شفرته ، وليرج
ذبيحته » (٦) .

(١) الشفا ٢٥١/١

(٢) البخارى ٩/٨ (كتاب الادب) .

(٣) الشفا ٢٥٩/١

(٤) انظر البخارى ١٤/٨ (كتاب الادب) .

(٥) صحيح مسلم ٦٢٤/٤ (كتاب الصيد والذبائح) .

(٦) السابق ٦٢٢/٤

ومن أعجب ما يروى في باب رحمته بالحيوان ، انه عليه السلام حينما زحف بالآلوف ذات العدد الى مكة لفتحها رأى كلبة تهز على أولادها ، وهى حولها ترضعهن ٠٠٠ فخشى الرسول عليه السلام أن يسحقها الزاحفون هـى وأولادها دون أن يشعروا ٠ فأمر جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها حتى لا يعرض لها أحد الجيش ولا لأولادها (١) ٠

وأنذر عليه السلام بعذاب الله من يعذب حيوانا : أليس هو القائل : عذبت امرأة في هرة أوثقتها ، فلم تطعمها ، ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض (٢) ٠

حتى في الخلاف والقتال ٠٠ حتى حينما تتشابك الرماح بلا هوادة وتتعانق السيوف في وحشية ٠٠ حتى حينما تنهاوى كثير من القيم ، ويستبد بالمتلاحمين الغضب والكراهية والبغضاء والنقمة ٠٠ حتى في هذه الحال : شجارا أو قتالا : ليبقى هناك الحد الأدنى من الانسانية ، وهو كما قال الرسول - عليه السلام - « تجنب الوجه فان الله خلق آدم على صورته » (٣) ٠

وضرب الوجه بسيف أو نحوه ان ترك تشويها فيه عاش صاحبه طيلة حياته منغص النفس معذب القلب ناقما على الحياة بعد أن فقد جمال صورته ورواءها ٠ وان كانت الضربة لطمة أو نحوها فهي الاهانة التي لا تغفر ، وقد تجر الى القتل وسفك الدماء لذلك جعل الله سبحانه وتعالى - ضرب الوجوه من أشد ألوان التحقير والاهانة في الآخرة « ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق » (٤) ٠

نعم ٠٠ في منطق الاسلام ٠٠ الرحمة مطلوبة ٠٠ الانسانية لازمة ٠٠ حتى في مقام درج الناس فيه على اسقاط الرحمة والانسانية من قائمة حسابهم ٠

واذا كان هذا هو مكان الرحمة في قائمة القيم المحمدية فلا عجب أن يربطها النبي بالخير بل يجعل الخير بأوسع معانيه متوقفا عليها « من يحرم الرفق يحرم الخير » (٥) ٠ انه يحرم خير الدنيا حين يفقد - بفضاظته وقسوته - حب الآخرين فهم منه نافرون ، وهم له كارهون ٠٠ انه يحرم خير الآخرة ، لأنه حصا العمل الصالح في الدنيا والقلب الذى يفقد الرحمة لا يعرف الطريق الى العمل الصالح ٠ وكم من لمسة حانية فتحت مغالق القلوب وألانت شماس الأخلاق ، وركم من كلمة طيبة مرجت أزمت ، وحلت مشكلات معضلات ٠

★★★

(١) امتاع الاسماع ٣٦٦ ٠

(٢) مسلم ٤٧٩/٥ ٠

(٣) السابق ١٧٢/٥ ٠

(٤) الانفال ٥٠ ٠

(٥) مسلم ٤٥٣/٥ (كتاب البر) ٠

ومن الصفات التي ترتبط بالرحمة أوثق ارتباط حلمه - عليه الصلاة والسلام - ٠٠ كان حايما وسع بحلمه كل من أساء اليه ٠٠ لقد عاد الى مكة فاتحا بعد أن خرج منها مهاجرا فارا الى ربه بدينه ٠٠ بعد ثلاثة عشر عاما من المعاناة والعذاب ٠٠ ولو أنه - اذ فتح مكة - قتل رؤوس الكفر في قريش ما لامه أحد ، ولو أنه - اذ فتح مكة - صادر أموال أهلها ٠٠ أو على الأقل أموال رؤوسها وزعمائها لكان تصرفه هذا لونا من ألوان « التعويض » أو « الاسترداد » بعد أن « نهب » القرشيون أموال المسلمين ودورهم .

ولكن قلب محمد لم ينغلق عن هؤلاء الكافرين ، فظل الى آخر لحظة يطمع في إسلامهم ، وكان دعاؤه لهم - وهم المسيئون اليه - « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » . وفي مكة ٠٠٠ في المدينة المفتوحة يخطب الرسول الطافر في الألوف الذين انحنى رؤوسهم ذلة وانكسارا وخوفا من سيف القائد النبي الفاتح . وجاء الحكم عفوا عاما ورحمة دافقة وإنسانية لا تعرف التوقف « اذهبوا فأنتم الطلقاء » (١) .

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : كنت أمشي مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فادركه أعرابي فجذب بردائه جبذة سديدة . قال أنس : فنظرت الى صفحة عاتق النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته . ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك . فالتفت اليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء (٢) .

وعفو النبي عن المسيء كان دائما عفو القادر الذي لا يعجز عن النصر والغلبة ولم يكن عفو الضعيف المستضعف لأن التصرف هنا لا يسمى « عفوا » ولكنه استسلام المقهور المغلوب الذي يعجز عن غالبه ، ولا يملك له شيئا .

وهو عليه السلام كان يعفو في مواقف يكون العفو فيها أكبر من أن تتحملة طاقة البشر : عفا عن وحشي الحبشي قاتل أحب الناس الى نفسه : عمه حمزة . وعفا عن هند بنت عتبة التي دبرت مؤامرة قتل حمزة ، ولاكت كبده يوم أحد . واستبد به الحزن والغضب في هذا اليوم المحزون فأقسم أن يقتل بعمره سبعين من الكفار فنزل قوله تعالى يذكره بمقام النبوة « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله » ولا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق مما يمكرون » (٣) .

(١) راجع سيرة ابن هشام ١٦/٣ - ٤٤ .

(٢) البخاري ٢٩/٨ (كتاب الأدب) ،

(٣) النحل ١٢٦ و ١٢٧ .

والعفو عند المقدرة وهو التطبيق العملي لفضيلة الحلم لا يتحقق في نفس يعرف الغضب اليها سبيلا ، لذلك كان من أبرز صفات المتقين كظم الغيظ والعفو والاحسان الى الناس (١) . ويلفت الرسول عليه السلام أنظار المسلمين الى أن القوى الحقيقى هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، وليس هو الصرعة الذى يثلب هذا ويصرع ذاك (٢) .

وفى فلك الرحمة أيضا تدور فضيلة الوفاء . . الوفاء للأصدقاء والأقارب وذوى الفضيلة والجيران والخلان . . انه الثبات على الاحسان وحسن الذكر وحسن العمل على بعد العهد واتساع الفراق . وكان الوفاء خليقة بارزة من خلائقه عليه السلام ، ومن عجائبه فى ذلك أنه بعد احدى الغزوات سأل أصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نعم فلانا وفلانا وفلانا . قال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا نعم فلانا وفلانا وفلانا : ثم قال هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا قال لكنى أفقد جلييبا فاطلبوه . فطلب فى القتل فوجده الى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فوقف عليه فقال : قتل سبعة ثم قتلوه . هذا منى وأنا منه ، فوضعه على ساعديه ليس له الا ساعد النبى - صلى الله عليه وسلم - فحفر له ووضع فى قبره (٣) .

وجلييب كان من عامة الناس ، لم يكن من وجهاء الصحابة ولا أغنيائهم ، بل كان قصيرا دميما ، رفض أنصارى وزوجته أن يزواجه ابنتهما لدمامته لولا أن الفتاة نزلت على أمر رسول الله فدعا لها النبى بالخير ، فصارت هى وجلييب من أكثر الناس خيرا (٤) .

ووفاء النبى للسيدة خديجة بعد موتها أشهر من أن نقف عنده طويلا ، لقد ظل - عليه السلام - يذكرها دائما بالخير والحب أمام نساؤه جميعا وخاصة عائشة وهى أحب نساؤه اليه بعد خديجة . قالت عائشة : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال : اللهم هالة بنت خويلد . فغرت فقلت وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر فأبدلك الله خيرا منها (٥) . وكان اذا سمع من عائشة مثل ذلك قال : « نعم خديجة : انى رزقت حبيبا » (٦) .

(١) الذين يلقون فى السراء والضراء والكاطمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين « آل عمران ١٣٤ » .

(٢) انظر الحديث فى البخارى ٣٤/٨ (كتاب الأدب) .

(٣) مسلم ٣٣٥/٥ (كتاب الفضائل) .

(٤) أسد الغابة ٧٧٢/١ .

(٥) مسلم ٢٩٣/٥ (كتاب الفضائل) .

(٦) السابق نفس الصفحة .

ومن وفائه عليه السلام - لها ولذكرها أنه - كما تروى عائشة : كان يديج الشاة ويهدى منها لأهل خديجة وأقاربها وصواحبها (١) .

ويرسم الامام الغزالي صورة حية نابضة للوفاء الحقيقي فهو النبات على الحب ، وادامته الى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه فان الحب انما يراد للأخرة ، فان انقطع قبل الموت حبط العمل ، وضاع السعى ، ولذلك قال عليه السلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله « ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة ولذلك روى أنه - صلى الله عليه وسلم - أكرم عجزوا أدخلت عليه ، فقليل له في ذلك فقالت : « انها كانت تأتينا أيام خديجة ، وان كرم العهد من الدين (٢) » .

والصبر هو الخليقة العملية التي تعتمد على الرزاة وقدرة العقل ومغالبة الشهوات وأهواء النفس . والصبر نوعان : صبر عن اللذائذ والمغريات ، وصبر على الشدائد والكربات ، والأول « امتناع » والثاني « ثبات » . الأول كالصبر عن الطعام والشراب بالصيام . والثاني كالصبر على الأذى والفقر والحرمات . الخ .

وكلاهما له في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وجود وأى وجود . يقول عليه السلام « ليس أحد ، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله ، انهم ليدعون له ولدا ، وانه ليعاقبهم ويرزقهم » (٣) .

لقد كان عليه السلام يلبس في الغالب الثميلة والكساء الحسن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخصوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر (٤) .

قالت عائشة - رضى الله عنها - « لم يمتلئ جوف النبي - صلى الله عليه وسلم - سبعا قط ، ولم يبيت شكوى لأحد ، وكانت الفاقة أحب اليه من الغنى ، وان كان ليظل جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع ، فلا يمنعه صيام يومه ، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد أبكى له رحمة مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع ، وأقول نفسي لك الفداء ، ولو تبليت من الدنيا بما يقوتك ؟ فيقول يا عائشة : مالى وللدنيا ، اخواني من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرم مأبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجذني أستحي ان ترفهت في

(١) انظر البخارى ١٠/٨ (كتاب الأدب) .

(٢) احياه علوم الدين ٩٧٥/٥ .

(٣) البخارى ٣١/٨ كتاب الادب .

(٤) الشفا ٢٠٤/١ .

معيشتي أن تقصر بي غدا دونهم ، وما من شيء أحب الى من اللحوق بإخواني وأخلائي (١) .

ان زهادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هنا هي زهادة القادر الميسور وليست تقشف المحروم المقهور . أو بتعبير آخر هي « الزهادة الارادية » لا « الزهادة الاضطرارية الاستسلامية » . ولا أقصد بذلك أنه كان غنيا واسع الثراء ، ومال - على ثرائه - الى جانب الشظف والزهة والتقشف . ولكني أقصد أن الله عرض عليه الدنيا بحلوها وروائها . عرض عليه - بصوت جبريل - أن يجعل له الأخشيين ذهبا فاختر جانب المساكين . اختر جانب الكفاف حتى لا تشغله متع الحياة عن أصحابه . الغر الميامين . حتى لا تشغله حلاوة الدنيا عن مرارة الجوع الذي يمزق قلوبا وأكبادا ، وهو القائل « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » (٢) .

وحينما مالت نفسه بعض الميل عن الفقراء الى بعض أغنياء قريش طمعا في اسلامهم ، وكان شرطهم أن يخلو مجلسه من هؤلاء الفقراء نزل قوله تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٣) .

وحينما كان النبي عليه السلام - مشغولا بأمر جماعة من كهراء قريش يدعوهم الى الاسلام جاءه عبد الله بن أم مكتوم الفقير الأعمى - وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم - يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله فعبس في وجهه وأعرض عنه لأنه شغله عن القوم الذين كان يطمح في أن يقوى الاسلام بدخولهم فيه ، فنزل القرآن يعاتب الرسول عتابا شديدا ويقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوى حاسم ، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها :

« عيس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهي . كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام برة » (٤) .

وصار ابن أم مكتوم من أحب الناس الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستخلفه على المدينة وعلى الصلاة بها حينما خرج لقتال المشركين في بدر (٥) .

(١) الشفا ٢٣٣/١

(٢) البخارى ١١٨/٨ (كتاب الادب) .

(٣) الكهف ٢٨ - وانظر : السيوطى أسباب النزول ٧٩ - ١١٥ .

(٤) عيس ١ - ١٦ . وانظر السيوطى : أسباب النزول ١٧٩ ، قلب : الظلال ٣٨٢١/٦ .

(٥) امتاع الاسماع ٦٣ .

واستخلفه مرة أخرى حين خرج لغزوة قرارة الكدر (١) وقربه اليه يوم فتح مكة وجعله بين يديه وهو يسعى بين الصفا والمروة وكان ابن أم مكتوم ينشد :

يا حبيذا مكة من وادى
أرض بها أهلى وعوادى
أرض بها أمشى بلا هادى
أرض بها ترسخ أوتادى (٢)

وكان النبي بعد ذلك اذا رآه هش له وبش وقال : أهلا بمن عاتبني ، فيه ربي .

هذه هي طبيعة « الصبر المحمدي » . صبر عن متع الحياة ولذائدها على سهولتها ويسرها لو أراد . وصبر على الجوع والشظف وزهادة الحياة . وصبر على إيذاء الكفار وجفائهم وكبرهم وعنجهيتهم فما انحنى وما استسلم . وصبر مع أصحابه الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجه الله .

وموقف النبي عليه الصلاة والسلام - من الفقراء والمساكين واحتفائه بهم في مجالسه يشهدنا الى صفة أخرى من صفاته عليه السلام وهي « التواضع » : ارتعش رجل في حضرته فقال له : « هون عليك فليست بجبار ولا ملك ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد .

نعم : لم يكن جبارا ولا ملكا ، فتواضع لله ، ورفع الله ، خرج من مكة مهاجرا فارا بدينه ، وعاد الى مكة فاتحا ظافرا ولكن لم يأخذه زهو الفاتحين ولا جبروت الغزاة ، بل عزل أحد قواد الفتح وهو سعد بن عبادة حين استشعر شيئا من الزهو والخيلاء فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا وكان صوت النبوة أقوى وأعلى : لا ياسعد . بل اليوم يوم المرحمة ، اليوم تقدس الحرمه ، اليوم أعز الله قريشا (٣) .

ودخل النبي الفاتح مكة وهو يركب ناقته القصواء ، وقد آحنى رأسه على رحله تواضعا حتى كادت لحيته تمس الرجل من شدة التواضع ، وهو يقول : لا عيش الا عيش الآخرة (٤) .

وقبلها اشترك مع المسلمين في حفر الخندق ، وكان يحمل معهم التراب حتى يعلو الغبار وجهه ويعلق بلحيته وكان يشاركونهم رجزم ويرفع صوته بالرجز معهم (٥) .

(١) السابق ١٠٧ .

(٢) السابق ٣٧٧ .

(٣) ابن هشام ١٧/٣ وامتاع الاسماع ٣٧٥ .

(٤) النظر امتاع الاسماع ٣٧٧ .

(٥) ابن هشام ١٤٣/٢ .

ان المتواضعين هم أهل الجنة ، أما المتكبرون فهم حطب جهنم ، حدث النبي - عليه السلام - أصحابه ذات يوم فقال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره • ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر (١) •

وعلام يغتر آدمي ويستبد به الكبير ؟ ان كان كبره لقوة بدنه فمريض ساعة يهدم قوة سنوات • والموت يحول الانسان في لمحة من نبض الحياة الى خمود التراب أيتكبر لمال أصاب ؟ ان المال أغلاه وأعلاه للملك ، والله هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز بن يشاء ويذل من يشاء •

هل كان في الأرض أعنى من قارون ؟ استبد به غرور المال • • فأوصله غروره الى بغى الكفر • • وانتهى به كفره الى الدمار » ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه تشنوء بالعصبة أولى القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين • وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا ننس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين قال : انما أوتيته على علم عندي ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه في زينته وقال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم • وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون • فحسبنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين • وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لحسف بنا ، ويكونه لا يفلح الكافرون • تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » (٢) •

انها قصة الكبر الكاذب الذي يتنكر للقيم الايمانية في كل عصر • • فينسى آدمي بشريته ، ويحاول أن ينازع الله حاكميته ، ثم تكون الفاجعة الحتمية والانكسار الذي لا قيامة منه •

وكل عصر لا يخلو من « قارونه » أو « قوارينه » • ولو تدبر الانسان المتكبر قصة قارون كما أوردتها القرآن لخلع نفسه من حمأة الغرور وعاش انسانا « رفيعا » بفضيلة التواضع •

ولعل أشد ألوان الكبر ما جاء من ناحية النسب • • من جهة الآباء والأجداد •

(١) البخارى ٢٤/٨ (كتاب الأدب - باب الكبر) •

(٢) القصص : ٧٦ - ٨٣ •

وقد عالج أبو حامد الغزالي هذا النوع من الغرور بقوله : فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوى شرف .. لقد صدقت ولكن بثس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب ان كان خسيسا فى صفات ذاته ، فمن أين يجبر حسنه بكمال غيره ، بل لو كان الذى ينسب اليه حيا لكان له أن يقول « الفصل لى ومن أنت ؟ وانما أنت دودة خلقت من بولى . أفترى أن الدودة التى خلقت من بول انسان أشرف من الدودة التى خلقت من بول فرس ؟ هيهات بل هما متساويان ، والشرف للانسان لا للدودة .

الثانى : أن يعرف نسبه الحقيقى فيعرف أباه وجده :

فان أباه القريب نطفة قدرة ، وجده البعيد تراب ذليل .. فمن أصله التراب المهين يداس بالأقدام ، ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر ؟ وأخس الأشياء ما اليه انتسابه . اذ يقال يا أذل من تراب ، يا أثن من الحمأة ، ويا أقذر من المضغة . فان كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد .. فالنطفة والمضغة أقرب اليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك . ثم ان كان ذلك يوجب رفعه لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته ؟ وان لم تكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فاذا أصله من التراب ، وفصله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل ، وهذه غاية خسة النسب . فالأصل يوطأ بالأقدام ، والفصل تغسل منه الأبدان ، فهذا هو النسب الحقيقى للانسان ، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب (١) .

ومع أن محمدا هو خاتم النبيين ، وأكرم البشر على الله . وامام الأنبياء فى الاسراء الا أنه - تواضعا منه عليه السلام رفض أن يفضل على سائر الأنبياء « لا تفضلونى على يونس بن متى ، ولا تفضلوا بين الأنبياء ، ولا تخبرونى على موسى ونحن أولى بالشك من ابراهيم ، ولو لبثت مالبث يوسف فى السجن لأجبت الداعى » (٢) .

وناداه أحد المسلمين ذات مرة « ياخير البرية » فقال ذاك ابراهيم « (٣) . وفى هذا المقام علينا أن ندرك أن بين الفضيلة والرذيلة خيطا رفيعا يجب أن نفتح أعيننا له حتى لاتزل بنا أقدامنا - بحسن نية - من الحق الى الباطل ، ومن الفضيلة الى الرذيلة . وبصورة أكثر تحديدا علينا أن نعى أن بين فضيلة

(١) احياء علوم الدين ١٩٧٤/١١ .

(٢) الشفا ١/٣٦٥ .

(٣) السابق نفس الصيغة .

التواضع ورذيلة الضعة خيطا رفيعا • جده رفيع : فالتواضع نزول من كبار النفوس وعظماء العقول الى من هم أقل علما وفهما وأخفض منزلة وعيشا والتبسط معهم ومعالجة أمورهم ومحاولة الارتفاع بهم مكانا ووعيا ونظرا •

أما الضعة فهي في ايجاز - ادعاء النواضع أو النزول الى مستوى السفلة باسم التواضع •• بينما حقيقة الأمر اذلال للنفس واحتقار لها في سبيل هدف دنيوى رخيص خسيس •

كذلك الغرور أو الكبر انه تعال على خلق الله ، وزهو منقوش ، ونظر الى بنى آدم من عل مع فقد فضائل النفس وصلاح القلب ونقاء الضمير •

أما استعلاء الايمان فيعنى الترفع على طينية الأرض والزهد فيما يتكالب عليه الناس ويريقون ماء الوجه من أجله ، انه العزة التى ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله : « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » (١) • فاعتزاز المؤمن بربه ودينه ونفسه يمنحه طاقة المواجهة : مواجهة الحياة بالعمل الطيب ، ومواجهة المحتاجين بكل عون شريف ومواجهة أعداء الدين والحق والوطن بالقوة والصلابة والشموخ ، ثم تكون العاقبة في النهاية الحسنى التى ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون • والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢) •

واستعلاء الايمان يجعل الحقيقة الايمانية في نظر صاحبها أقوى وأثرى من أقطار هذه الأرض بما جمعت ، وتبعث فيه الحمية التى لا تعرف التوقف ولا المهانة فاذا هو الكاسب في كل حال : ان انتصر فهذا كسب عظيم ، وان استشهد فذاك كسب أعظم •

لذلك كان المؤمن من واقع هذه العزة ، ومن معين هذا الاستعلاء الايماني مطالباً بالتمسك بحقه وعدم التفريط فيه أو النزول عن بعضه •

لقد جاء مسيلمة الكذاب - كما ذكرنا من قبل - الى المدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خلق كثير من بنى حنيفة • وكان مسيلمة بقوة شخصيته وقدرته على الاستهواء في مركز القيادة منهم ، وكان بنو حنيفة من أقوى قبائل العرب وأعتاها وأمنعها •

قال مسيلمة « لو جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته » أشار النبي الى

(١) المنافقون ٨ •

(٢) يونس ٢٦ ، ٢٧ •

قطعة جريدة في يده وقال « لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها ، ولن أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ٠٠ » (١) .

وكان النبي يستطيع أن يصانع هذا الزعيم القوي ولكن النبوة في هذه الحال تكون قد تخلت عن « المنطق الإيماني » في الاستعلاء الذي يعتمد على المعين الرباني في تصريف الأمور .

وعلى نفس الدرب - درب الاستعلاء الإيماني - سار الصديق أبو بكر حين أصر على مقاتلة المرتدين أو منعوه عقابا بعير كانوا يؤدونه لرسول الله .

وعلى نفس الدرب سار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في مواجهة الملك الغساني : جبلة بن الأيهم حين أصدر أن يلطمه الغزاري الفقير كما لطمه (٢) .

وعلى الدرب سار عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حين رفض أن يسلم أحد جنوده لعصابة السبئية والمجورين الذين حاصروه يوم الدار ، وكان دمه ثمنا لموقف استعلاء إيماني يدركه أمثاله من الهداة المهديين (٣) .

وهو نفس الدرب الذي هوى فيه علي بن أبي طالب شهيدا بعد أن رفض التهاون في حق من حقوق الخلافة الراشدة .

واستعلاء الإيمان يقتضي أن يكون المؤمن شجاعا في الحق صريحا في القول صادقا في العزيمة لا يعرف الانحناء والالتواء والخشوع والاستسلام والتهاون في عزة النفس وشرف الذات .

وبهذا المفهوم لاستعلاء الإيمان ومن هذا المنطلق الواضح أرى من الأمانة أن نقف قليلا أمام حديث لرسول الله قد يثير شبهة عند البعض أو خلطا في الفهم وكل ذلك لا أساس له إذا فهمنا الحديث فهما جيدا . ونص الحديث - وهو يروي عن عائشة رضي الله عنها - أن رجلا استأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما رآه قال : بشئ أخو العشيرة وبشئ ابن العشيرة ، فلما جلس تطلق النبي - صلى الله عليه وسلم - في وجهه وانبط اليه ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يا رسول الله : حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ،

(١) مسلم ١٣٢/٥ (كتاب الرؤيا) .

(٢) انظر القصة كلها في الاغانى ٥٤٦٥/١٥ - ٥٤٦٧ وفي سيرة عمر بن الخطاب للطبراني ٣٦٠ - ٣٦٥ .

(٣) راجع عثمان بن عفان للدكتور هيك ١١٥ - ١٢٤ . والجاسي هو كسر بن الصلت الكندي أحد الذين دافعوا عن عثمان وهو محاصر في بيته . وقد طالب المهاجرون تسليمه فرفض عثمان وقال : لم أكن لأقتل رجلا نصرني وانتم تريدون قتلي . فالتجسوا الدار واشعلوا النار في بابها وسقيفتها وقتلوا عثمان .

ثم تطلعت في وجهه وانبسبت اليه • فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
يا عائشة : متى عهدتني فحاشا ، ان شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه
الناس انقاء شره (١) •

فقد يتوهم متوهم أن موقف النبي السابق في صورتيه يتعارض مع
ما عرف عنه من جرأة في الحق ووضوح في أقواله وأفعاله • كموقفه مع
مسيلمة الكذاب ، وقد يتوهم أن هذه المداراة تعد من ألوان التنازل عن استعلاء
الايमान •

ودفعا لهذا الوهم أو هذه الشبهة علينا ان نعى ما يأتي :

١ - ذكر الامام النووي أن المعنى بهذا الحديث هو عينيه بن حصن (٢) •
وقد كان من الأعراب الجفافة المؤلفة قلوبهم ، ومن جفائه انه دخل على
النبي من غير اذن فقال له : أين الاذن ؟ فقال ما استأذنت على أحد من
مضر •

وكان ممن ارتد وتبع طليحة الأسدي ، وقاتل معه فأخذ أسيرا • وحمل
الى أبي بكر - رضى الله عنه - فكان صبيان المدينة يقولون : يا عدو الله
أكفرت بعد ايمانك ؟ فيقول : ما آمنت بالله طرفة عين •

ودخل على عمر مرة فقال له : يا ابن الخطاب ، والله ما تقسم بالعدل
ولا تعطى الجزل •

ومع ان عثمان بن عفان كان قد تزوج ابنته الا انه دخل عليه ذات يوم ،
وأغلق له القول وأساء معه الأدب (٣) •

فتاريخ الرجل يقطع بصدق وصف النبي عايه السلام له •

٢ - انبساط النبي - صلى الله عليه وسلم - له وطلاقته وبشاشته في وجهه
والإنة القول له انما كان تألفا له ولأمثاله على الاسلام •

٣ - عرف النبي صلى الله عليه وسلم - بالحياء والأدب والبشاشة والتبسم
في وجوه الآخرين حتى الذين يسيئون اليه • عن قيس بن جرير قال :
ما حجبني النبي - صلى الله عليه وسلم - منذ أسلمت ، ولا رأني الا
وتبسم في وجهي (٤) • وقصص احسانه الى من أساء اليه أكثر من
أن تحصى •

(١) البخارى ١٦/٨ (كتاب الأدب) ومسلم ٤٥١/٥ (كتاب البر والصدقة والاداب) •

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٤٥١/٥ •

(٣) انظر أسد الغابة ٣٣١/٤

(٤) البخارى ٢٩/٨ •

فاستقبله لعينيه بهذه الطريقة ، إنما هو من باب الأدب والحياء وإكرامه لمن قصده ، وذلك لا يتعارض مع وصفه للرجل بما وصف .
يقول النووي « ولم يمدحه النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا ذكر انه أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه ، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام » (١) .

٤ - ولا تعارض بين بشاشة النبي ولينه في القول مع عينيه ، وشدة في القول مع مسيلمة الكذاب لأن الأول لم ينل بكلامه من أصل العقيدة ونظام القرآن والاسلام في حياة النبي على الأقل لذلك كان النبي يأمل دائما أن ينتفع الاسلام بهذا الاعرابي الجافي القوى الشجاع وهو الذي وصف في التاريخ بأنه من « الزعماء أو القادة الجرارين » أي القادرين على الاقتحام ، لذلك كان النبي دائما يحاول كسر العنجهية فيه وتحطيم الساتر الصفيق الذي يقف به عند العتبة الأولى من عتبات الاسلام فأعطاه من سهم المؤلفة قلوبهم ... وكذلك أبو بكر الصديق ، ولو انه نفع الاسلام بطاقته وشجاعته لكان قائدا عظيما في سلسلة القادة العظام مثل سعد وخالد وعمر بن العاص ، ولكنه وقف بإسلامه عند أولى العتبات ... ومات مسلما على أية حال .

أما مسيلمة فجاء الى المدينة مساوما .. يطلب مقابلا ضخما لاسلامه واسلام قومه « ان جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته » فالمسألة هنا في حاجة الى حسم قاطع لا يعرف الملاينة لأنها قضية من القضايا العليا ، وكان قول النبي هو الفيصل الحاسم ، رفع قطعة جريدة في يده وقال : لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها ، ولن أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » .

وعاد مسيلمة الى وطنه موكوسا منكوسا وادعى النبوة وكتب لمحمد عليه السلام كتابا يقول فيه « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله : أما بعد فاني قد أشركت معك في الأمر ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون » .

وكان رد النبي « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى . أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وانتهى أمره على ما هو معروف في التاريخ قتل كافرا ومزق قومه في موقعة اليمامة ولو استجاب النبي لطلبه أو بعض طلبه لكان في ذلك تنازل عن

(١) مسلم السابق .

« الاستعلاء الايماني » وحاشا للنبي أن يفعل ذلك فله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

نعم : ان الملاينة والشدة يصدران من محمد في مواجهة رجلين جافيين غير سويين ، لا يدلان على تناقض في طبيعة المعالجة ولكن يدلان على واقعية وبعد نظر انه تصرف من يعطى الشخصية ما يناسبها ، ومن يعطى الموقف أنسب ما يعطى من الأقوال والأفعال ، فالطبيب يلجأ الى تصميم جرح وقد يشير بقطع العضو الجريح وهو في كلتا الحالتين الطبيب البارع ، والطبيب يشير على مريضه بالدواء المطلوب وقد يستجيب مريض ، ويتعصى على الدواء مريض فيمضى الأول في طريق الشفاء ، وتتكاثر على الثاني العلل والأدواء .
والطبيب هو الطبيب براعة وذكاء وقدرة وبعد نظر .

★ ★ ★

الرحمة . الأمانة . الحلم . الوفاء . الصبر . الزهد والتقشف
التواضع . العزة . واستعلاء الايمان . . قليل جدا من كثير جدا من « قائمة القيم » التي كانت لهذا الرجل العظيم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه . هذا الرجل العظيم الذي جمع كل هذه الخصائص والصفات لو لم يكن نبيا بأمر الله لكان نبيا بداعية هذه السمائل الوضيئة العريضة . انه كان وسيظل المثل الأعلى « للبشرية في كل العصور . . ولكن هذه « المثالية » أو هذه « العلوانية » هل كانت « ملائكية » أكبر من دنيا الناس وفوق طاقة البشر ؟

وفي مقام الاجابة عن هذا السؤال لنخرج من حسابنا « خصوصياته » عليه السلام ، فهي مما يدخل في « مقام النبوة » وقد نهى النبي - عليه السلام - عن التمثل به فيها ، وشدد في هذا النهي .

ولنخرج من حسابنا كذلك أمور المعاش التي تخضع للخبرة والعادات والتقاليد والأعراف ، فقد حدد النبي موقفه منها في قوله « أنتم أعلم بشئون دنياكم » الزراعة . . الصناعة . . المأكل . . المشرب . . السفر . . كلها أمور تخضع لقواعد الاجتهاد والتطور على مدار الزمن بشرط ألا تصطدم بقاعدة من قواعد الشريعة الغراء .

يبقى بعد ذلك هديه عليه السلام في العبادات والحرب والسلام وقواعد الحكم والشورى ، وقواعده السلوكية انعكاسا لخصائصه الخلقية العظيمة من صدق وشجاعة وكرم وعفة . . الخ وكل ذلك نحن مطالبون به . . وهو في كل ذلك كان خير تجسيد « للمثالية الواقعية » . . خير تجسيد « للوسطية العادلة » .

وتأكيدا لنفى « يوتوبيه المتال » أو خياليته كان تركيز القرآن الكريم على « بشرية » محمد :

— قل انما أنا بشر منكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (١) .

— قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد ، فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين « (٢) .

وبهذه « البشرية » يتصدى محمد — بأمر ربه — للكفار حين يطلبون مقابل إيمانهم به . يطلبون « قائمة » قد تكون سهلة هينة على الله ولكنها فوق طاقة « البشر » من ناحية ، وتحقيقها لن يخدم قضية الايمان من ناحية أخرى :

— « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا « (٣) .

ومن منطلق هذه « البشرية » من منطلق هذه « المنالية الواقعية » كان الأمر بطاعة الرسول ، وهى طاعة تدخل فى حدود الامكان :

— يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون (٤) .

— قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين « (٥) .

— وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون (٦) .

— من يطع الرسول فقد أطاع الله (٧) .

— وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (٨) .

(١) الكهف ١١٠

(٢) فصلت ٦

(٣) الاسراء ٩٠ — ٩٣ .

(٤) الانفال ٢٠

(٥) النور ٥٤

(٦) آل عمران ١٣٢

(٧) النساء ٨٠

(٨) الحشر ٧

— ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (١) .

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته ، وقرن طاعته بطاعته ، ووعد على ذلك بجزيل الثواب ، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب ، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه .

قال المفسرون والأئمة : طاعة الرسول في انتمزام سنته والتسليم بما جاء به . . . وقالوا ما أرسل الله من رسول الا فرض طاعته على من أرسله اليه وقالوا : من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه ، وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الاسلام فقال : «وما آتاكم الرسول فخذوه» وقال السمرقندي: يقال : أطيعوا الله في فرائضه والرسول في سنته . . . وقيل أطيعوا الله فيما حرم عليكم والرسول فيما باخكم ، ويقال : أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية ، والنبي بالشهادة له بالنبوة (٢) .

وأيا كان التفسير فالأقوال كلها تلتقي على ضرورة طاعة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأن طاعته من طاعة الله ، ولا يستقيم اسلام من يفرق بين الطاعنين ويذهب مذهب من يقول عندنا كتاب الله يكفيننا .

فإذا ما آمنا بأن متالية الرسول كانت « مبالية واقعية » وان طوابعه الأخلاقية تمثل « علوانية أرضية » ، واننا مأمورون بطاعته على مدى العصور . . . وإلى الابد بحكم عمومية الرسالة وخاتمية النبوة ، وإيماننا بكل ذلك يقودنا الى أول ملمح من ملامح المنهج المحمدي في غرس القيم في نفوس المسلمين وهو أنه — عليه السلام — كان قدوة عملية صالحة للمسلمين : ما نهى عن شيء وأناه ، وما أمر بشيء الا وكان أسرع الناس الى القيام به .

وحينما شرعت الصلاة كان أول ما قال : صلوا كما رأيتموني أصلي . . .

وفي ساعات الفزع كان هو أسرع الناس الى النجدة والتصدي واغاثة الملهوف : فزع أهل المدينة ليلة لصوت رهيب ، وجلبة عاتية مزقت نياط الليل البهيم ، فانطلق أناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — راجعا قد سبقهم الى الصوت ، وقد استبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري ، والسيف في عنقه وهو يقول : لن تراعوا « (٣) .

قال علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — انا كنا اذا حمى البأس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، وقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي — صلى الله عليه وسلم —

(١) النساء ٦٩ .

(٢) انظر الشفا ١٧/٢ — ١٨ .

(٣) انظر الشفا ٢٣٨/١ .

وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا (١) *

وكان عليه السلام - قدوة أروع لا فى مواقع النصر - فحسب - ولكن فى محن الانكسار : فى أحد اشتد الكرب بالمسلمين وانكشفوا عنه بعد أن خالفوا أمره .. وخلص اليه الكفار .. فكسرت رباعيته ، وشج وجهه وكلمت شفته ومع ذلك ثبت فى موقعه مع قلة من المؤمنين تعد على أصابع اليد الواحدة ، وتمكن - ودمه يغطى وجهه - من قتل رأس من رءوس الكفر هو أبى بن خلف طعنه رسول الله برمح فى عنقه .. وبلغ من فزعه أن قال وهو يحتضر : فوالله لو بصق على محمد لقتلنى « (٢) » *

وفى المرحلة الأولى من غزوة حنين حين اشتد الزهو بالمسلمين وأعجبهم كثرتهم .. انحدرت عليهم هوازن .. وانكشف الكل عن رسول الله الا القلة القليلة .. ووقف محمد قدوة فى الثبات والشجاعة وهو ينادى الكثرة المفزوعة « أين أيها الناس ؟ هلموا الى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله (٣) » *

وفى الحندق - كما ألمعنا فى الفصل السابق - كان يحضر مع أصحابه ويحمل معهم التراب والغبار يغطى وجهه ولحيته ، وهو يشساركم أهازيهم وأرجازهم *

نعم : بالقدوة الحسنة استطاع النبى ﷺ يغرس قيم الاسلام فى نفوس أصحابه ، وأن يعمق فى نفوسهم حب الحق والخير والشجاعة والوفاء والاخلاص *

وليس هناك ما يهز الايمان بالقيم الانسانية مثل الانقسام بين « الداعى » و « المدعويين » بين « المعلم » و « المريدين » بين الدعوة والتنفيذ .. بين القول والعمل ، وهذا هو الذى نساءه الله - سبحانه وتعالى - على بنى اسرائيل « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٤) *

عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى : قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية « (٥) » *

والداعية حين يكون قدوة حسنة للناس فيما يدعو اليه انما يقدم بذلك

(١) السابق ٢٣٧ *

(٢) راجع ابن هشام ٢١/٢ - ٢٥ *

(٣) انظر السابق ٥٠/٣ *

(٤) البقرة ٤٤ *

(٥) مسلم ٨٣٧/٥ (كتاب الزهد) *

الدليل العملى على « واقعية » الدعوة ، وامكانية أخذ الناس أنفسهم بها ، فيسعى الناس إليها هرولة ، ويزيد المؤمنون بها إيماناً .

وكم أخفقت دعوات — على بريقها ورواء مبادئها — لأن قيادتها ودعاتها لم يكونوا للناس أسوة وقدوة ، فكانوا كبنى إسرائيل أمروا الناس بالبر ونسوا أنفسهم .

وملمح ثان من ملامح المنهج التربوى المحمدى وهو استغلال الوقائع والأحداث للتوجيه والارشاد : أمرا بالخير والحق ونهيا عن الشر والباطل والنبي عليه السلام فى مثل هذه الحال كان ينطلق من الخاص الى العام ومن الفردى الى الجماعى .

وربط التوجيه بالواقعة يوضح طبيعة التوجيه ويقنع الناس به من ناحية ويكتب لهذا التوجيه الاستقرار والديمومة من ناحية أخرى ، وذلك لارتباطه بحدث يسهل تذكره واستعادته ، فهو نوع من ربط التجريدى بالمحسوس وكأنما الحدث هنا يقوم بالدور الذى تقوم به « الوسائل التعليمية » فى عملية التعليم .

عن حكيم بن حزام قال : سألت النبى — صلى الله عليه وسلم — فأعطاني ثم سألته ، فأعطاني ، ثم سألته : فأعطاني ، ثم قال لى يا حكيم : ان هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى ياكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى « (١) » .

فالواقعة الخاصة هنا .. واقعة مسلم متطلع الى المال منهوم بحبه فليعطه الرسول حتى يسكن وحش النهم ولو الى حين .. ثم بعد ذلك ليأت دور القيم الخالدة : على المسلم أن يتحلى بالرضا والقناعة وعفة النفس والاعتماد عليها فى التكسب ، وليتسع المقام كذلك لتقرير قاعدة اقتصادية واجتماعية وانسانية وهى : اليد العليا خير من اليد السفلى .. المعطى خير من الآخذ ولننظر فى مجتمعاتنا المعاصرة : أن الدولة التى تعطى المنح وتمنح القروض والمعونات هى اليد العليا .. هى صاحبة المكانة العظمى بين الدول والمجتمعات . أما الدول الآخذة فهى المتخلفة أو « النامية » تأدبا .. هى اليد أو الأيدى السفلى التى تمتد دائما لتسعد — ولو الى حين — بالعطاء « الساقط من اليد أو « الأيدى » العليا .

وحيثما تسرق المرأة المخزومية « الشريفة » وحين تشعر قريش بأنها ستتحده

(١) البخارى ١١٦/٨ (كتاب الادب) .

يصيبها الفرع وتهرع الى الحب ابن الحب أسامة بن زيد ليشفع لها عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويغضب الرسول ويقول مسنكرا « أتشفع في حد من حدود الله !! ثم قام فخطب قائلا « يا أيها الناس ، انما ضل من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف نركوه ، واذا سرق الضعيف فيهم آفاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (١) .

الناس أمام القانون سواء . المراكز الاجتماعية لا تعطى قوة القانون التفريق في المعاملة القانونية أدى ويؤدي الى ضياع الأهم وهلاكها .

مبادئ وقواعد عظيمة قررها الرسول عليه السلام - بمناسبة خطبته وقعت فيها امرأة من علية القوم .



فالنبي كان يعتمد على اذواق المشهود في تقرير المبادئ الانسانية وقريب من هذا أنه كان يستعين بالأمال والقصص والأشباه والنظائر لتقرير ما يحرص على غرسه في نفوس أصحابه من قيم . وانسنه غاصة بالأمثلة التي تدور في هذا الغلك نكتفي منها بنموذجين :

- عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، فاذا كلب يلهث يأكل النوى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء . فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا يارسول الله ، وان لنا في البهائم أجرا : فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر » (٢) .

- ويروى عنه عليه السلام أنه قال « مثل الثائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو انا خرقنا في نصيبنا خرقتا ، ولم نؤذ من فوقنا !! فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » (٣) .

وهذا الحديث يبرز أهمية الشعور بالمسؤولية الاجتماعية وبوجودة المصلحة في المجتمع كله ، وهي مسؤولية كل فرد في الأمة مهما صغر موقعه الوظيفي في

- (١) البخارى ١٩٩/٨ (كتاب الحدود) .
- (٢) البخارى ١٧٣/٣ (باب الابار) .
- (٣) البخارى ١٩٠/٨ (كتاب الحدود) .

المجتمع • ولكن المسؤولية تعظم بالنسبة للقائمين على أمر الأمة وقيادة سفينتها ، وهذا الشعور الجماعي بالمسؤولية يحتم على كل فرد أن يكون صالحا فى ذاته من ناحية - وأن يمنع المنكر والانحراف - بقدر طاقته - من ناحية أخرى ، غير مستثنين بما يرى من مظاهر الفساد مهما كان ضئيلا فمعظم النار من مستصغر الشرر • وصدق الشاعر العربى اذ قال :

إذا نحن طامنا لكل صغيرة • • فلا بد يوما أن تساع الكبائر

ومن أهم ملامح التوجيه النبوى - وقد أشرنا الى ذلك من قبل - أنه عليه السلام - لم يكن يواجه المخطئ بخطئه - الا اذا وجد لمواجهة ضرورة من دين أو خلق - بل كان يجعل الخطاب بضمير الغائب ، وبصيغة الجمع غالبا ، وبمعنى من الجميع - « ما بال أقوام يفعلون كذا • وكذا • • » •

استعمل عليه السلام رجلا من الأسد يقال له ابن التبييه فلما قدم قال : هذا لكم وهذا لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ما بال عامل أبغضه فيقول هذا لكم ، وهذا أهدى الى ، أفلا قعد فى بيت أبيه أو فى بيت أمه حتى ينظر أيهدى اليه أم لا ، والذى نفسى بيده لا يئال أحد منكم منها شيئا الا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه » (١) •

والنبي بهذا الأسلوب غير المباشر فى التوجيه يدل على أنه - عليه السلام - كان يحترم آدمية الانسان ، على أن الهدف من التشريع هى الإصلاح لا التشهير • والتشهير بالمخطئ قد يدفعه الى الاصرار على السير فى طريق الخطأ والخطيئة • وقد غضب النبى عليه السلام على خالد بن الوليد حين سب الغامدية وهو يقيم عليها حد الرجم لزنائها •

ومسلك النبى هذا انعكاس عملى لفضيلة نفسه عرفت عنه وهى عفة اللسان وصونه من الهجو والفحش والبذاء حتى فى حق الأعداء حينما شج يوم أحد وسال دمه وكسرت رباعيته قال له أصحابه « لو دعوت عليهم » فقال : « انى لم أبعث لعانا ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومه فانهم لا يعلمون » (٢) •

وكان المسلمون يلجأون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتونه ويسألونه فيما بعث لهم من أمور الدين والدنيا ، وكثيرا ما كان القرآن يتكفل بالاجابة وقد أورد القرآن الأسئلة والاجابات عليها فى خمسة عشر موضعا منها :

★ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى

(١) مسلم ٤٩٧/٤ (كتاب الامارة) •

(٢) الشفا ٢٢١/١ •

والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم (١) .

★ يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب (٢) .

★ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٣) .

★ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين « (٤) » .

ويلاحظ أن أغلب هذه الآيات مدنية ، وان سورة البقرة - وهي أول السور المدنية نزولا - أعمر السور بالأسئلة والأجوبة اذ كان المسلمون يتطلعون الى معرفة الكثير في المجتمع الاسلامي الجديد الذي كان يمثل الأساس القوى للدولة الاسلامية الوليدة .

واذا لم يقدم القرآن الجواب على ما يطرحه المسلمون من أسئلة كان النبي عليه السلام يجيبهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وكان يعطي لكل سؤال حقه من الاجابة : ايجازا أو تفصيلا تبعا لمقتضيات الحال ، والاجابة دائما شافية كافية بحيث لا يترك النبي السائل وفي نفسه إثارة من حرج ، أو إثارة من جهل بأى جانب من جوانب الموضوع الذي يسأل عنه :

سأله رجل ذات مرة : يا رسول الله : أستأذن على أمي ؟ فقال : نعم ، قال الرجل : انى معها فى البيت . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أستأذن عليها ، فقال الرجل : انى خادماها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أستأذن عليهما . أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا : فاستأذن عليها (٥) .

هكذا بصدر رحب وانسانية صافية يقنن الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل بعقل وحكمة مثيرا فيه عاطفة « البنوة » التى تكره أن ترى من الأم ما يسىء اليها واليه ..

(١) البقرة ٢١٥ .

(٢) المائدة ٤ .

(٣) الاعراف ١٨٧ .

(٤) الأنفال ١ وانظر البقرة ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ الإسراء ٨٥ ، الكهف

٨٣ ، طه ١٠٥ ، النازعات ٤٣ .

(٥) الموطأ ٥٩٧ (كتاب الاستئذان) ؟

وأخر هذه الملامح التربوية في تعليم الدين والحياة والخلق أن يضع النبي نفسه موضع السائل على سبيل ما يسمى « بتجاهل العارف » والمسلمون يجيبون فإن كانت الإجابة سديدة أقرها • وإن كانت الإجابة غالطة صححها وأبان عن الصواب وإن كانت الإجابة ناقصة أكملها • ومن أمثلة ذلك :

★ عن أبي بكر عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنيثكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله • قال : الاشرار بالله ، وعقوق الوالدين » (١) •

★ عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ولا تحترق ورقها » فوقع في نفسى أنها النخلة •• (٢) •

★ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبى فاذا امرأة من السبى تبتغى اذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها ، وأرضعته ، فقال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا لا والله وهى تقدر على ألا تطرحه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٣) •

★ ومن الأسئلة التى طرحها النبي على المسلمين وجاءت اجاباتها غالطة فصحيحها : سؤاله عن الصرعة فكان الجواب أنه الذى يقلب هذا ويصرع ذلك قال النبي «ليس الشديد بالصرعة انما العنيد من يملك نفسه عند الغضب» •

وكذلك سؤاله عن المغلس : جاءت اجابتهم بأنه من لا درهم له ولا متاع ويصحح النبي هذا المفهوم الغلط : ان المغلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح فى النار •

والسنة الشريفة حافلة بهذا اللون الذى يقوم على طريقة « السؤال والجواب » وسواء أجاءت اجابة المسلمين كاملة شافية ، أو ناقصة وأكملها النبي عليه السلام ، أو غالطة وطرح النبي عليه السلام البديل الصحيح يخلص

(١) البخارى ٤/٨ (كتاب الادب) •

(٢) السابق ٣٩ •

(٣) مسلم ٩٧/٥ (كتاب التوبة) •

النبي عليه السلام الى القيمة الدينية أو الخلقية أو الحقيقة الاجتماعية أو الدرس النفسى الذى حرص أن يعيه المسلمون بهذه الطريقة فى التعليم والتربية .

وهذا الاتجاه النبوى يتفق مع أحدث الطرق وأنجحها فى التعليم وهى ما تسمى « بالطريقة الاستنباطية » وهى الطريقة التى تعتمد على عرض الأمثلة المساعدة ومن فهم هذه الأمثلة واستيعابها والموازنة بينها تستخلص القواعد والحقائق المنشودة .

ومن أصول هذه الطريقة اعتمادها على « طرح الأسئلة المنتجة » التى يصل بها المعلم عن طريق التلاميذ الى حقائق الدرس سواء أكانت حقائق جزئية فى مراحل الدرس المختلفة أو حقائق كلية فى آخر مرحلة من مراحل الدرس . ومن أهم قواعد أن يحرص المدرس على إثارة كوامن المعارف والخبرات المختزنة عند التلاميذ للانتفاع بها فى الخلوص الى الحقائق التى يهدف اليها المعلم .

نعم كانت « الطريقة الاستنباطية فى التربية احدى طرائق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكلها تهدف دون تعنت أو تعسف الى خلق المسلم الصالح الذى يجمع بين الدين والدنيا . بين العلم والعمل بين الحق والواجب .



وبعد هذه المسيرة نعود فنكرر أن السيدة عائشة لم تبلغ حين قالت عنه - صلى الله عليه وسلم - كان خلقه القرآن : يرضى برضاه ويسخط بسخطه . فقد كان مجموعة من القيم الانسانية فى أرقى صورها من ناحية ، وأصابعها للتطبيق من ناحية أخرى .

واستطاع أن يفرس هذه القيم فى أعماق الرعييل الأول متبعاً منهجاً واضحاً محدد الملامح والسمات :

- فكان قدوة حسنة يسبق فعله قوله .
- واتخذ من الأحداث وسيلة لتقويم أخلاق المسلمين وتربيتهم .
- واستعان فى سبيل ذلك بالقصص والأمثال .
- وفتح صدره للمسلمين يسألون ويستفتون وهو يجيب عن كل ما يسأل حتى ما كان تأفها لا قيمة له فى مسيرة المجتمع .
- واستعان - وهو أستاذ الحياة - بأسلوب المعلم الذى يسأل تلاميذه ويريد به ليخلصوا للحق والحقيقة فى مجال النفس والخلق والمجتمع .

وكان الحصيلة جماعة من الأنجم الزواهر .. أشرقت بنور الله في مشارق
الأرض ومغاربها فإذا الظلم والظلام بلا صولة ولا جولة ولا صولجان .. وبهذه
الجماعة صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل والكفر والضلال في أسفل
سافلين ..

خلاصة البحث

١ - كان المجتمع الجاهلي غاصا بالمفاسد : عبادة الأوثان • شرب الخمر • الظلم والقهر • والاحتكام الى السيف في حل القضايا حتى كانت الحرب تستمر عشرات السنين لأتفه الأسباب •

وبعض هذه الأمراض الاجتماعية والخلقية كان عاما كالذي ذكرنا ، وبعضها كان خاصا ببعض قبائل العرب الضعيفة مثل وأد البنات • على انه من الحقائق التي يجب أن نعيها بالنسبة للمجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية •

(أ) انه لم يكن أسوأ المجتمعات فقد كانت المجتمعات التي تحيط به وخاصة مجتمعا الفرس والروم أشد سقوتا وتكالبا على المفاسد والردائل • وهذا يقتضينا أن نفسر المجتمع الجاهلي تفسيره الصحيح ليشمل كل المجتمعات السابقة والمزامنة لبعثة الرسول وهذا يتفق مع طبيعة الرسالة المحمدية • خاتمة الرسائل التي جاءت للناس عامة عربيهم وعجميهم في كل الأوطان وكل الأزمان •

(ب) انه لم يخل من الفضائل الانسانية من شجاعة وكرم ونجدة واغاثة الملهوف • يدل على ذلك :

★ حلف الفضول الذي حضره محمد شابا وأثنى عليه نبيا وهو حلف عقد في الجاهلية لنجدة المظلوم •

★ نقض بعض الجاهليين - وهم كفار - لصحيفة مقاطعة قريش للنبي وآله من بنى هاشم وامدادهم بالطعام والكساء في ظلمة الليل سرا •

★ استنكار هند بنت عتبة أن يكون هناك الحرة الزانية فالزانيات عدد من الاماء المحترفات لا يزيد عددهن عن ست أو سبع •

★ انقاذ بعض كرام الجاهليين للوليدات اللائي يحاولن آباؤهن وأدهن بشرائهن من ما لهن الخاص حرصا على حياتهن •

وكانت هذه الفضائل هي البقية الباقية من بصمات الأديان في النفس العربية : الابراهيمية واليهودية والمسيحية • واستجابة لصوت الفطرة التي يولد عليها كل مولود •

٢ - وجاء الإسلام فكان له ثلاثة مواقف من القيم الجاهلية شرها وخيرها -

الموقف الأول هو التحريم :

فقد حرم ما غص به المجتمع الجاهلي من شرور وموبقات : حرم الشرك بالله أول ما حرم ودعا الى عبادة الواحد الديان .. الفرد الصمد .. وحرم وأد البنات وحرم الظلم والعدوان وحرم الخمر والميسر والأزلام .

الموقف الثاني هو الاقرار :

فقد أقر البقية الباقية في المجتمع الجاهلي من فضائل كالكرم والشجاعة والنجدة حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم أثنى على حلف جاهلي هو حلف الفضول وقال انه لو دعى به في الاسلام لأجابه .

الموقف الثالث التسامى أو الاعلاء :

ويتلخص في الإبقاء على «المنبع القيمي» مع تحويل مساره من « الانحراف الخلقى » الى الوجهة السوية الصحيحة . فاستغل الطاقة الشعرية في الدفاع عن الدين والاشادة بكمكارم الأخلاق . وحول غريزة الغضب وحب القتال والعدوان الى تعشق الجهاد وحرصا على نشر الدين واعلاء كلمة الله . ومن أشهر هؤلاء الشعراء الذين سما الاسلام بطاقتهم الشعرية عبد الله بن الزبير الذي كان في الجاهلية من أفحش الناس وأهجهم فلما أسلم صار شاعر حق وصدق ودين .

٣ - والقيم الإسلامية نوعان :

(أ) القيم السلبية أو قيم التخلي . وتظهر في ترك الموبقات والشرور كالخمر والفدر .

(ب) القيم الايجابية أو قيم التحلى : مثل الصدق والرحمة والأمانة والكرم ... الخ .

وهذه القيم في مجموعها تنقسم بسمات ثلاث :

السمة الأولى : التدرج التكليفي :

بمعنى أن هذه القيم بصورتها لم يأت التكليف بها طفرة واحدة والا مل الناس وعجزوا عن أخذ أنفسهم بها ولكنها جاءت بالتدريج تبعا للأحداث والاحتياجات ومقتضيات الأحوال .

والتدرج سمة كونية فى الخلق والحياة بالنسبة للانسان والحيوان
والنبات .

وأهم ما حققه الانسان بهذا التدرج فائدتان :

(أ) ضمان تنفيذ العمل والاستجابة للشرع أمرا ونهيا .

(ب) ترسيخ التكليف والقيم فى نفوس المؤمنين .

وقد ظهر هذا التدرج التشريعى فى كل التكليف الاسلامية على وجه
التقريب كالصلاة والصيام . ولكن أشهر مثال لهذا التدرج هو تحريم الخمر
التي لم تحرم التحريم القاطع الا بعد تمهيد نفسى استمر قرابة عشر سنوات
فلما حسم القرآن المسألة بآية المائدة « انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام
رجس من عمل الشيطان » الخ كانت الاجابة العملية للمسلمين انتهينا
« انتهينا » .

وقيمة التدرج تظهر اذا ما عرفنا ان أمريكا أخفقت أخفاقا ذريعا فى
تحريم الخمر حين فرضت فجأة فى مطلع العقد الثالث من هذا القرن قانون
تحريم الخمر وأنفقت عليه مئات الملايين من الجنيهات واستخدمت القوة
والسطوة دون جدوى فعادت الى اباحة الخمر مرة ثانية .

الأسمة الثانية : الوسطية العادلة :

فبعد اغراق اليهودية فى المادية العاتية . . وبعد اغراق المسيحية فى
الروحانية والرهبانية . . جاء الاسلام على فترة من الأديان وجاء محمد على فترة
من الرسل . . ليصنع « الأمة الوسط » ، وكانت الأخلاق الاسلامية بعيدة عن
حدى الغلو : الايغال فى المادية والايغال فى الروحانية ، وكان المنطق والمنطلق
الأخلاقي الاسلامى هو قوله تعالى « وابتنغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس
نصيبك من الدنيا » .

ولكن الاسلام لم يقف من الأخلاق اليهودية والأخلاق المسيحية موقف
العداء فقد أقرت الشريعة الاسلامية أحكاما كانت موجودة فى الشرائع السابقة
مثل الصوم والأضحية ورجم الزانى وتحريم الخمر . ومن سماحة الاسلام انه
يمجد « القيمة الأخلاقية » فى ذاتها ، ألم يمجّد حلف الفضول : حلف العدل
والنجدة والأريحية قبل الاسلام وبعد الاسلام ، وهو الحلف الذى عقده
جاهليون لم يعرفوا الايمان بالله ؟ .

وشرع من قبلنا يعد مصدرا من مصادر التشريع فى الاسلام فيما سكّت
عنه ديننا ولم يتعارض مع قواعده . ولكن « المفهوم القيمى » الاسلامى ،

كمفهوم خالد غير مرحلى ابتعد كما قلت عن الايغال فى مادية اليهودية والايغال فى رهبانية المسيحية ، والتزم الحد الوسط فى الفضائل . فكانت المثالية الاسلامية بهذه الوسطية « مثالية واقعية » وان شئت فقل « مثالية أرضية » قادرة على « المعاشية » والبقاء والخلود .

والمسلم بهذه « الوسطية الأخلاقية » انما يحقق « التوازن الهرمونى » بين العناصر الثلاثة للنسيج البشرى وهى : العقل : الجسد . الروح . وهذا التوازن يعنى فى حقيقته القيام بعملية « توفيق » بين مطالب العقل من علم ومعرفة ومطالب الروح من عبادة وصفاء وإيمان ومطالب الجسد من طعام وشراب وجنس مشروع .

والجور على حق العقل فى الاشباع يؤدى الى الجهانة الحيوانية .
والجور على حق الروح فى الارواء يؤدى الى الجمود والتجحر النفسى .
والجور على حق الجسد يؤدى الى الاصطدام بالفطرة الانسانية .
وعملية « التوفيق » بين مطالب العناصر الثلاثة تحقيقاً للوسطية العادلة .
تختلف فى جوهرها عن عملية « التلفيق » فالتلفيق يعتمد على الافتعال والتعسف والتعننت والمظهرية دون مراعاة لمقتضيات التناسب الاشباعى لهذه العناصر الثلاثة .

السمة الثالثة للقيم الاسلامية هى الهيمنة التشريعية :

وأعنى بهذه السمة أن الطابع الأخلاقى والدافع الانسانى وراء كل قاعدة من قواعد الشريعة الاسلامية ، سواء أكانت قاعدة كلية أو قاعدة جزئية . من هنا جعل الاسلام المقام الأول « للنية » فى تكييف الأعمال والأقوال وتقييمها . وقد قرر النبى عليه السلام هذه القاعدة فى حديثه المشهور :
« انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى »
وتظهر « الهيمنة التشريعية » للطوابع الأخلاقية الاسلامية بصفة خاصة فى جانبين :

(١) العبادات الاسلامية :

من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فكل هذه العبادات لها جانبان الجانب الشكلى المظهرى ، وهو جانب الأداء بالألفاظ والشكل والصورة التى نص عليها الشارع . والجانب الموضوعى الغائى وهى أن تحقق هذه العبادات ما شرعت من أجله وهو تربية الضمير وتنقية الوجدان وحسن معاملة الآخرين . لذلك أمر القرآن باقامة الصلاة لا « أدائها » والاقامة أكمل وأرقى من الأداء ، وهذا يتفق مع الهادفية الأخلاقية للصلاة التى لخصها الله سبحانه وتعالى فى قوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والصوم تربية للنفس على الصبر والانتصار على عبودية « العادة » واستشعار آلام الآخرين بالجوع والعطش ، والاحسان الى الناس بالمعاملة الطيبة ، فلا جهالة ولا رقت حين يكون المنطق الحاكم هو « اللهم انى صاتم » .
والزكاة انما سرعت تطهيرا للنفس وتزكية للمال « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . فاذا صحب الصدقة من أو أذى فقد حبط العمل وبطل الثواب .

(ب) القواعد القانونية :

حيث تحرص الشريعة على أن تبني هذه القواعد على أسس أخلاقية ، وأن تراعى الجانب الانسانى عند الاقتضاء وتنعكس هذه المراعاة فى نظريتين مشهورتين : الأولى هى نظرية التعسف فى استعمال الحق : فتملك الحق لا يكون مطلقا بل هو مقيد باحترام حقوق الآخرين وعدم الاضرار بهم ، والا كان هذا تعنتا وتعسفا يتعارض مع أمر الرسول عليه السلام ، بأنه « لا ضرر ولا ضرار » .

وقد وضع الفقهاء المسلمون للحق قواعد وضوابط مازالت حتى الآن تمثل أرقى ما عرفته البشرية فى هذا المجال .

أما النظرية الثانية التى تدل على أخلاقية القواعد القانونية الاسلامية فهى (نظرية الضرورة) ولها تطبيقات كثيرة جدا نص عليها الفقهاء ، وكلها تطبيقات تراعى الجانب الانسانى :

منها مثلا : أن الضرورات تبيح المحظورات فحرصا على حياة من لا يجد الا الخمر لدفع الظم القاتل يبيح له الاسلام شرب الخمر ولكن بقدر ما يدفع عن نفسه الهلاك .

والمدى الذى هلك ماله بفعل قهرى لا دخل له فيه يمهل الى ميسرة أو يخفف عنه الالتزام بسبب الضرورة الحالة التى أخرت بالمدين وأهلك ماله .

وقد كان لهذه النظرية الاسلامية تأثيرها البالغ فى القانون الوضعى فيما يتعلق بنظرية القوة القاهرة أو الحوادث الطارئة .



٤ - وتقرير القيم لا يغنى عن وجود المثل الحى الذى تتجسد فيه هذه القيم ، ويتمثل به الناس أقوالا وأفعالا . . . وقد كان محمد هو هذا المثل الأعلى الذى تمثلت فيه قيم الحب والسماحة والرحمة والوفاء والصبر والزهد فيما يتهالك عليه الناس ويتكالبون ويتقاتلون .

لقد تجلّى - عليه السلام - بكل المناقب الجديرة بخاتم الأنبياء ، وكل منقبة من هذه المناقب كانت في أرقى صورة وأشمل مفهوم : فرحمته - على سبيل المثال اتسعت لأحبابه وأصحابه واتسعت لأعدائه فدعا لهم بالهداية ، واتسعت للطفل الصغير وللشيخ الكبير واتسعت للحيوان الأعجم

وما يقال عن الرحمة يقال عن الوفاء والعفو والحلم والصبر والعزة والتواضع إلى آخر قيم الإنسان الكامل .

وإذا كانت بلاغة الأقوال في مراعاة مقتضى الحال ، فبلاغة الأفعال في استخدام الصفة الخلقية في الموقف الذى تتناسب معه : فمن الخطأ وضلع الندى في موضع السيف ومن الخطأ كذلك وضع السيف في موضع الندى . وقد كان عليه السلام يحلم ويعفو حينما يكون الحلم والعفو بميزات العقل والشعور « ضرورة انسانية » لا بديل لها .

وكان عليه السلام يشتد - في غير ظلم - إذا كانت الشدة انتصارا لحق ودين : فعفا عن الأعرابي الجافى الذى أساء إليه وجذبه من ثوبه الخشن جذبة أثرت في عنقه ولكنه لم يلن لمسيلة الكذاب حينما جاء إلى المدينة « يساوم » على مركز « الخلافة » بعد الرسول . . . إنها عبقرية المعاملة والأفعال التى كانت المظهر التجسدى لعبقرية الخصائص والصفات

★ ★ ★

هـ - ولم يكن محمد « ملاكا » هبط من السماء . . . إنما كان بشرا مثلهم يوحى إليه . وكان هذا الاعلان القرآنى يدل دلالة قاطعة على أن المثالية المحمدية هي « مثالية الامكان » وليست « مثالية الاعجاز » هي « مثالية الواقع » وليست « مثالية الخيال اليوتوبى » .

وكان هو القدوة الصالحة التى تدل على هذا الامكان : « صلوا كما رأيتموني أصلي » كان دائما يتقدم أصحابه في السلم والحرب بالقول الصادق والعمل المخلص الشجاع ليتمثلوا به ويقتدوا ، فهم فيه الأسوة الحسنة .

وكانت هذه القدوة هي الملمح الأول في منهج محمد في التربية الأخلاقية .

وببراعة النبى الملهم لم يكن يترك حدثا - خاصا أو عاما - الا واعتصر منه دلالة ، واستخلص منه عبرته ، وعلم المسلمين الدروس التى تتعلق به وترتبط .

وهو في دروسه يستعين كثيرا بما يحبب ويشوق . . . يستعين بالتشبيهات والتصوير والحكم والأمثال . . .

وهو في تعاليمه لا يفضح المخطئين بل يجعل التوجيهات غير مباشرة
تدل على موضع « العيب » ، ولا يهم موضع المعيب . . المهم « الناتج الأخلاقي »
لا « التشهير الفاضح » فهو لم يبعث لعانا ولا شتاما .
ثم كانت قاعدة أو قاعدتا « السؤال والجواب » .
يسأله المسلمون وعليه أن يجيب ويرشد ويوجه .
وهو بدوره يسأل المسلمين سؤال العارف العالم الذي يسأل تلاميذه
ومريديه تنشيطا لهم وتفتيحا لأذهانهم واختيارا لقدرة ما يعلمون ثم تكون له
الكلمة الحاسمة بعد ذلك لأنه كان - على أميته - أعلم العلماء .
وكانت هذه الملامح ابتداء من القدوة العملية الصالحة وانتهاء بقاعدة
« السؤال والجواب » هي عناصر « المنهج المحمدي » في غرس القيم الأخلاقية
في نفوس المسلمين .

(المراجع)

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - أحياء علوم الدين : حجة الاسلام أبو حامد الغزالي - دار الشعب - القاهرة .
- ٣ - الأخبار الموفقيات : الزبير بن بكار : تحقيق الدكتور سامي مكى العاني - بغداد .
- ٤ - أسباب النزول : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي / القاهرة ١٩٦٣ .
- ٥ - أسد الغابة في معرفة الصحابة : عز الدين بن الأثير (دار الشعب / القاهرة) .
- ٦ - أسرار العبادات في الاسلام : د. عبد الحليم محمود : المضربة للتأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٦) .
- ٧ - أصول التشريع الاسلامي : على حسب الله (الطبعة الأولى ١٩٥٢ مكتبة الجامعة - القاهرة) .
- ٨ - أصول الفقه : محمد زكريا البرديسي ط ٢ / ١٩٦١ مطبعة دار التأليف / القاهرة .
- ٩ - الأغاني : أبو الفرج الاصفهاني طبعة دار الشعب .
- ١٠ - امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع : المقرئ : تقى الدين أحمد بن علي تحقيق وتعليق : محمود شاكر لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ .
- ١١ - الانسان في القرآن الكريم : عباس العقاد . دار الهلال ١٩٦١ .
- ١٢ - التشريع الجنائي الاسلامي (القسم العام) عبد القادر عودة ط ١ ١٩٤٩ - دار النشر / القاهرة .
- ١٣ - التشريع الجنائي الاسلامي (القسم الخاص) عبد القادر عودة ط ٢ ١٩٦٤ - دار العزوبة / القاهرة .

- ١٤ - التشريع والفقه فى الاسلام تاريخا ومنهجيا : مناع القطان ط ١
١٩٧٦ وهبة / القاهرة .
- ١٥ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) الامام محمد عبده ط ٣
١٩٦٧ دار المنار .
- ١٦ - التفكير فريضة اسلامية : عباس العقاد . دار الهلال . القاهرة (د.ت)
- ١٧ - تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات شرح شواهد الكشف (ملحق
بالجزء الرابع من الكشف) محمد الدين أفندى .
- ١٨ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ابن عبد الله محمد بن أحمد
الانصارى القرطبي - دار الشعب - القاهرة .
- ١٩ - حجة الإسلام البالغة : شاه ولي الدين بن عبد الرحيم الدهلوى / دار
التراث ١٩٧٧ .
- ٢٠ - الحياة العربية من الشعر الجاهلى : د. أحمد الحوفى ط ٢ - ١٩٥٢
مكتبة نهضة مصر .
- ٢١ - دستور الأخلاق فى القرآن : د. محمد عبد الله دراز . ط ١ - ١٩٧٣
بيروت .
- ٢٢ - ديوان الحظيثة : جرجول بن أوس . تحقيق عيسى شأبا (دار صادر
بيروت) .
- ٢٣ - زاد المعاد فى هدى خير العباد : أبو عبد الله بن القيم الجوزى (صبيح
بالأزهر / القاهرة) .
- ٢٤ - السيرة النبوية لابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافى
تحقيق محمد فهمى السرجانى / المكتبة التوفيقية ١٩٧٨ - القاهرة .
- ٢٥ - سيرة عمر بن الخطاب : على الطنطاوى وناجي الطنطاوى : المكتبة
العربية / دمشق .
- ٢٦ - السياسة الشرعية : ابن تيمية / طبعة دار الشعب / القاهرة .
- ٢٧ - شرح القصائد العشر : الخطيب أبو زكريا يحيى بن على التبريزى
(ادارة المطبعة المنيرية - القاهرة ١٣٦٩ هـ) .
- ٢٨ - الشعر والشعراء : ابن قتيبة - ط ٣ - ١٩٧٧ تحقيق الشيخ أحمد
شاكر .
- ٢٩ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى : القاضى عياض بن موسى اليحصبى

- الأندلسى تحقيق محمد أمين قره على وآخزين (مؤسسة علوم القرآن - دمشق) .
- ٣٠ - صحيح البخارى : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخارى الحنفى / دار الشعب / القاهرة .
- ٣١ - صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى أبو الحسين حافظ بشرح النووى الشافعى تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة (دار الشعب / القاهرة) .
- ٣٢ - طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى . تحقيق محمود شاكر (مطبعة المدنى / القاهرة) .
- ٣٣ - العدالة الاجتماعية فى الاسلام : سيد قطب . ط ٢ دار مصر للطباعة / القاهرة .
- ٣٤ - العقل المؤمن أو الدين عن طريق الفكر : عبد المنعم خلاف ط ١ - ١٩٥١ دار الكتاب العربى - القاهرة .
- ٣٥ - عثمان بن عفان : د . محمد حسين هيكل . دار المعارف ١٩٧٣ .
- ٣٦ - الفقه الإسلامى : د . محمد ستام مذكور ط ٢ - ١٩٥٥ مطبعة الفجالة / القاهرة .
- ٣٧ - فى ظلال القرآن : سيد قطب . ط ٩ دار الشروق ١٩٨٠ .
- ٣٨ - القاموس المحيط : الفيروز آبادى : مجد الدين محمد بن يعقوب (مطبعة الحلبي بالقاهرة) .
- ٣٩ - القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم : موريس بوكاي (دار المعارف ١٩٧٩) .
- ٤٠ - قصة الحضارة : ول ديورانت : ترجمة د . زكى نجيب محمود ط ٢ ١٩٥٦ لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة .
- ٤١ - القضايا الكبرى فى الاسلام : عبد المتعال الصعدي (مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة) .
- ٤٢ - الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد) .
- ٤٣ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الجوارزمي (دار الفكر - بيروت) .
- ٤٤ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن على الحسينى الندوى - الطبعة الثانية ١٩٥١ (دار الكتاب العربى / القاهرة) .

- ٤٥ - مبادئ تاريخ القانون : د. صوفى أبو طالب ١٩٥٧ / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة
- ٤٦ - مبادئ علم النفس العام : د. يوسف مراد : ط ٢ دار المعارف ١٩٥٤ .
- ٤٧ - المجتمع الاسلامى : د. أحمد شلبى ط ٢ - ١٩٦٣ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة
- ٤٨ - محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية : محمد الحضرى : الجزء الأول / الطبعة السادسة ١٣٧٠ المكتبة التجارية / القاهرة .
- ٤٩ - محاضرات فى النصرانية : محمد أبو زهرة ط ٢ مطبعة مخيمر القاهرة ١٩٤٩ .
- ٥٠ - المرأة العربية فى الشعر الجاهلى : د. أحمد الحوفى مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
- ٥١ - مركز المرأة فى قانون حمورابى وفى القانون الموسوى : جان أمل ريك تعريب سليم العقاد المطبعة العصرية بمصر ١٩٢٦ .
- ٥٢ - مصادر الالتزام : د. عبد المنعم فرج الصلحة ١٩٦٠ (الحلبي / القاهرة)
- ٥٣ - المشكلة الاخلاقية والفلاسفة : اندريه كرسون . ترجمة عبد الحليم محمود وابو بكر زكري دار احياء الكتب العربية - القاهرة .
- ٥٤ - مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للفخر الرازى : محمد الرازى فخر الدين - المطبعة الحسينية المصرية - القاهرة
- ٥٥ - الملكية فى الشريعة الاسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعية : على الخفيف الطبعة الاولى ١٩٦٦ (معهد الدراسات العربية - القاهرة)
- ٥٦ - موجز أصول الالتزامات : سليمان مرقص : مطبعة لجنة البيان العربى / القاهرة ١٩٦٢
- ٥٧ - الموطأ : الامام مالك بن أنس تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقى (دار الشعب)
- ٥٨ - نحن والحضارة الغربية : أبو الاعلى المودودى - بيروت ١٩٥٩ .
- ٥٩ - نظرية الاباحة عند الاصوليين والفقهاء : د. محمد سلام مذكور (دار النهضة العربية ١٩٦٥)
- ٦٠ - اليهودية : د. أحمد شلبى : ط ٥ ١٩٧٨ - مكتبة النهضة المصرية

الأساس الاسلامى للأخلاق

الدكتور

احمد. محمد الخوفى

عضو مجمع اللغة العربية

وأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

كلمة تمهيدية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد .

فهذه سلسلة متلاحقة من الدراسات التى تتناول الفكر الاسلامى فى شتى عصوره ، وتعرض نقائسه التى يجب على المسلمين أن يياها بها ، وألا يقتصروا على المباهاة ، بل لا بد أن يحاكموها ، ويستمدوا منها الحث على التفوق والابتكار والسيادة .

ولقد توخينا فى السلسلة الايجاز الوافى ، والوضوح الكاشف ، والحق الفاصل .

كما خالصناها من الجدال العقيم ، ومن الخلاف المتشعب ، ومن التهجم على الرأى المغاير .

ونرجو أن تكون هذه السلسلة مصدرا للثقافة الراشدة ، والمعرفة الهادية ، وينبوعا من ينابيع الخير والحق ، وعونا على الدراية بالاسلام الصحيح ، والله المستعان .

مقدمات

كان الناس وما زالوا يمتدحون الفضائل ، ويهشون لها ، ويمدحون المتصفين بها ، ويصطنعونها لأنفسهم بالحق تارة وبالباطل تارة ، وكانوا وما زالوا يذمون الرذائل ، ويعيرون الموصومين بها ، وينفرون منها ، ولا يرتضونها لأنفسهم أو لذويهم ، وإن لحقت بهم حاولوا الخلاص من عارها .

فماذا تريد بالفضائل ؟

اننا نريد بها الأخلاق الطيبة الحميدة من كرم وشجاعة وعفة وغيره وحلم ورحمة وأمانة وما شاكلها مما يليق بالإنسان الراقي المتحضر . وماذا نريد بالرذائل ؟

نريد بها الأخلاق السيئة الكريهة من بخل وجبن وفجور وبلادة وحقد ووحشية وخيانة وما شاكلها مما لا يليق بالإنسان راق متحضر .
ومعنى هذا أن الفضائل والرذائل جميعا أخلاق .

نعم ، ولكننا نميز كلا منها بالوصف ، فنقول الأخلاق الطيبة ، والأخلاق السيئة ، ونقول من كرائم الأخلاق كذا ومن مساوئ الأخلاق كذا .

وما من شك في أن الأخلاق الفاضلة هي الصرح الذي تحتضم به الأمة .
هذه أعاصير الفوضى ومن زلازل الفساد ، لأنها كما قال شوقي :

وأنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لهذا يسعدني أن أقدم هذه الدراسة الإسلامية ، لعل فيها لمحة إلى مذهب الخديده سنة الإسلام للأخلاق الطيبة ، يتميز على المذاهب الفلسفية التي وضعها الدارسون منذ زمن بعيد إلى اليوم .

وأدعو الله أن يوفقني إلى ما فيه الحق والخير ، إنه سميع مجيب .

أحمد الحوفي

المذاهب الأخلاقية

ما الأخلاق ؟

هذه الأخلاق التي تحدث القدماء والمحدثون بها ، والتي لا يعبري انسان من لبوسها ، لأن منها الطيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والعفة ، والفجور ، والشجاعة والجبن (١) ، هل هي في حاجة الى تعريف ؟

نعم ، انها معروفة لنا جميعا ، ولكنها تحتاج الى تعريف يكشف عن أصلها وعن ينبوعها .

ولعل أسهل ما تعرف به أنها مقصودة مرادة ، وان شئت فقل انها عزيمة مكررة معتادة ، توجه الى الخير أو الى الشر .

وذلك لأن العادة كثيرا ما تكون عفوية غير مقصودة سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، فلا تسمى خلقا .

وكذلك العزيمة قد تدفع الى العمل مرة أو بضع مرات ، فلا تدخل في نطاق الأخلاق ، كالذي يعلم أن صديقه مريض فيعتزم على زيارته ، ويسرع بتنفيذ عزمته ، والذي يرى شخصا في البحر مشرفا على الغرق ، فيسارع الى نجاته ، والذي يقضى بين خصمين بالعدل أو بالظلم مرة واحدة في حياته ، فان عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكرارا ينبىء عن عادة مقصودة أو عزيمة معتادة .

ولابد من عنصر الاختيار والحرية ، لأن الذي يبذل ماله مضطرا مجبرا لا يسمى سخيا .

لهذا نقول ان العزيمة اذا اعتادت عملا صار خلقا ، فالذي تعود الصدق يسمى صادقا ، فصار الصدق خلقا من أخلاقه ، والذي تعود الأمانة يسمى آمينا ، والأمانة من أخلاقه ، والعفيف هو الذي تسيطر عليه العفة في جميع حالاته ، والفاجر هو الذي تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يردعها .

(١) الخلق في اللغة السجية والطبع سواء أكان حميدا أم غير حميد ، ولهذا يوصف الخلق المدوح بأنه كريم أو عظيم أو حميد أو رفيع ، ويوصف الخلق المذموم بضد هذه الأوصاف .

ومعنى هذا أن ميلا من الميول طبع الشخص بطابعه زمنا طويلا ، فصار خلقا ثابتا له .

فاذا كانت الميول الغالبة على شخص خيرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، وإذا كانت الميول المسيطرة عليه شرا كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العلو وذاك السفلى درجات متفاوتات وطبقات متعددة .

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر .

أما الغاية التى يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهى السعادة التى يشعر بها وينعم ، وهذا هو ما أراده الغزالي بقوله :

(وغاية هذا الخلق أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا ، فالسعى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع (١) .

ولقد سبق الامام الغزالي الى تحديد الخلق بما يكاد يتفق وذلك التعريف ، فقال انه هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة الى فكر وروية .

فاذا كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا .

وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقا سيئا .
وانما قلنا انها هيئة راسخة ، لتتحقق المداومة على الفعل ، لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ .

وانما اشترونا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال ان خلقه السخاء والحلم .

فهنا أربعة أمور : أحدها فعل الجميل والقبيح ، والثانى القدرة عليهما ، والثالث المعرفة بهما ، والرابع هيئة للنفس بها تميل الى أحد الجانبين ، ويتيسر عليها أحد الأمرين ، اما الحسن واما القبيح .

وليس الخلق هو الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل ، اما لفقد المال أو المانع ، وربما يكون خلقه البخل ، وهو يبذل مضطرا أو مرأيا .

(١) احياء علوم الدين ٥٠/٣ .

وليس الخلق هو القوة ، لأن نسبة القوة الى الامساك والاعطاء ، بل الى الضدين واحدة ، وكل انسان خلق بالفطرة قادرا على الاعطاء والامساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء . . .

وليس الخلق هو المعرفة ، فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد .

بل الخلق هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الامساك أو البذل ، فهو صورة النفس الباطنة (١) .

ولكننا نلاحظ أن النفس ميدان فسيح يشمل كثيرا من القوى ، وبعض هذه القوى لا صلة له بالأخلاق كالتخيل والتذكر والتفكير والذكاء والغباء ، لهذا لا بد من حصر الخلق فيما يتصل بالعزيمة ، وفيما تبعث عليه من خير أو شر .

لمحة الى المذاهب الأخلاقية :

اختلف الباحثون منذ القدم الى اليوم في الأساس الذي يقوم عليه صرح الأخلاق ، فتعددت آراؤهم ، ولم تسلم من النقد .

وأريد قبل أن أعرض للأساس الاسلاسي للأخلاق أن ألم بهذه المذاهب في ايجاز يغني عن التفصيل .

(١) العرف

لكل أمة عرفها ونظمها وعاداتها التي تتوسم الخير في اتباعها ، وتربى أطفالها على الخضوع لها ، وتؤنبهم أو تعاقبهم على مخالفتها .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاقي ، فما وافق العرف كان خيرا ، وما خالفه كان شرا ، وما سكت العرف عنه كان الناس فيه مخيرين بين أن يفعلوه أو يتركوه .

لكن هذا المقياس مضطرب مختل ، لأن العرف لا ثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقزه العقل ، ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفا عند العرب في الجاهلية ، فحرمها الاسلام ، وكانت الغارات عرفا عندهم ، فحظرها الاسلام ، وكان الاسترقاق عرفا عند الأمم القديمة ، فلما جاء الاسلام ضيق روافد الرق ، وفسخ الطرق لتحرير الأرقاء .

(١) الاحياء ٤٦/٣ .

وكانت السرقة مباحة في اسبرطة لتدريب الشباب على الحيلة والحداح في الحرب ، على شريطة ألا يراهم أحد أو يعلم بأمرهم ، فكانوا يدخلون الحدائق على حين غفلة من أهلها ، ويدلقون (١) الى الموائد العامة في غيبة حراسها ، فان غفلت عنهم العيون ونجوا من بغتات الرقباء أكلوا وشربوا ، وكانت عاقبة أمرهم خيرا ، وان تنبه للسارق أحد وقبضت عليه الأيدي ، فياللفضيحة والعار ، وبالسببة الباقية والعقوبة المنتظرة ، فانه يشهر أمره ، ويسلم الى مروض الأطفال فيضربه بالسوط ، ويحرمه الطعام ، لا لأنه سرق ، بل لانه لم يأخذ حذره .

لذلك كان الغلمان اذا أقدموا على سرقة بالغوا في التحرز والاحتياي ، حتى لقد وصل الأمر بأحدهم أن سرق ثعلبا صغيرا ، فجمله ومضى به ، ولما رأى الناس على مقربة منه وضعه تحت ثوبه ليخفيه عن عيونهم ، فأنشب التعلب أنيابه ومخالبه في بطنه ، فمزق أحشاءه ، والمسكين يمضي في طريقه صابرا يفضل الموت على الفضيحة والعار (٢) .

كذلك من قصور العرف وانحرافه أن بعض العرب جروا في العصر الجاهلي على اباحة نكاح الاستبضاع ، وهو أن يقول الزوج لزوجته اذا ما طهرت من طمثها : أرسل الى فلان فاستبضعي منه ، ولا يمسها زوجها حتى تحمل من ذلك الأجنبي ، يريد بهذا الاستبضاع نجابة الولد ، لأنه من ظهر رجل عظيم أو ذى مزايا فيرث صفاته ، وهذا الولد ينسب لزوج المرأة لا للأجنبي .

ولم يقتصر هذا النظام العجيب على العرب ، بل شاركهم فيه اليونان فان ليكورغ مشرع اسبرطة أجازه ، وحض الشيوخ من الأزواج على أن يبيحوا لزوجاتهم الاستمتاع بالفتيان الأشداء الكرام الأخلاق ، لينجبوا نسلا مثلهم ، وزعم أن هذا العمل فضيلة ووطنية ، لأنه يحقق للوطن نسلا قويا ممتازا ، وكانت أثينا تجرى على هذا النظام ، وقد أعار كثير من رجالها زوجاتهم لسواهم ، ومنهم سقراط نفسه . ثم ان الاستمساك بالعرف جمود وتحتير ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة ، وهو الى هذا كله معادة للاصلاح والمصلحين .

أما العرف في الشريعة فهو العرف في الأخلاق معنى ، وهو في رأى علماء الشريعة شريعة محكمة ، وله اعتبار في الشرع .

وهو قسمان : قولى وفعلى .

أما القولى فمثل تعارف الناس على اطلاق لفظ الولد على الذكر دون

(١) يدلقون : يمشون في بقاء .

(٢) تاريخ التربية ٣٧ .

الأنثى ، وتعارفهم على اطلاق لفظ اللحم على غير لحم السمك . وأما الفعلي فمثل تعارفهم على البيع بالتعاطي من غير صيغة لفظية بالإيجاب والقبول ، وتعارفهم على أن الزوجة لا تزف الى زوجها الا بعد أن تقبض جزءا من مهرها .

ويقسمه الفقهاء من حيث الصحة والبطالان قسمين :

١ - عرف صحيح لا يخالف النص ، ولا يفوت المصلحة ، ولا يجلب مفسدة ، مثل تعارف الناس على تقديم بعض المهر وتأجيل بعضه ، وتعارفهم على أن ما يقدمه الخاطب لحبيبته من ثياب ونحوها هدية لا مهر .

ويرون أن الواجب على المجتهد وعلى القاضي مراعاة هذا النوع من العرف في الفتوى وفي القضاء ، لأن المشرع الاسلامي راعى العرف في بعض أحكامه ، فمثلا جعل الدية على العاقلة ، واشترط الكفاءة في الزواج .

ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وجد عرف أهل المدينة جاريا على بيع السلم أباحه ، مع أنه بحسب الحكم الشرعي عقد غير صحيح ، لأنه بيع غير موجود وقت البيع بثمن حال عاجل ، فهو عقد على معدوم ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن بيع المعدوم .

كذلك أباح في المدينة بيع العرايا ، وهو بيع الرطب على النخل بثمن التمر الجاف ، وفي هذا البيع لا يمكن التحقق من تساوى البدلين ، وقد نهى عن بيع الشيء بجنسه متفاضلا ، ولكن ضرورات الناس دعتهم الى هذا النوع من التعامل ، وجرى عليه عرفهم ، فراعى رسول الله ضرورتهم وعرفهم وأباحه .

ثم ان ما يتعارف عليه الناس من قول أو فعل يصير من نظام حياتهم ، ومن أصول حاجتهم ، فهم يعملون على وفق ما تعارفوا عليه واعتادوه ، لهذا قال الفقهاء أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا ، وقالوا ان الشرط في العقد يصبح اذا اقتضاه العقد ، أو ورد به الشرع ، أو جرى به العرف .

٢ - وأما العرف الفاسد فهو ما يخالف الشرع ، أو ما فيه جلب ضرر ، أو تفويت لنفع ، مثل بعض العقود الربوية ، وبعض العادات المستنكرة في الموالد والمآتم والأفراح ، ومثل زواج المقت وهو زواج امرأة الأب بعد وفاته .

وهذا العرف المخالف لأصل شرعي أو لحكم ثابت بالنص لا يحل للمجتهد أن يراعيه في فتواه أو في اجتهاده ، ولا يحل لقاض أن يحكم به في قضائه .

لعله قد تبين من دراسة العرف الأخلاقي والعرف الديني أن العرف يتغير بتغير البيئات والأزمان والناس ، فليست له صفة الدوام ، ولا قوة الحكم الذي يستند الى نص من كتاب الله أو سنة رسوله أو الى اجماع العلماء .

لهذا كان عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة يحكم للمدعى بدعواه

إذا حلف اليمين ، وجاء بشاهد واحد ، فيجعل يمين المدعى قائمة مقام الشاهد الثاني .

فلما تولى الخلافة ، وأقام في دمشق لم يحكم الا بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، فستل عن السبب في هذا ، فقال : لقد وجدت أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة .

وكان للامام الشافعي مذهب بالعراق ، فلما جاء الى مصر ورأى العرف يغير عرف بغداد غير بعض الأحكام التي كان يدين بها ، فصار له مذهبان قديم وجديد ، وصار البقاء للجديد الذي كان وما زال ذائعا في الأمة الاسلامية .
هكذا كان العرف ذا سلطان ، ولكن تغيره بحسب البيئات والعقليات والانسى يحل من سلطانه ، فلا يصلح لأن يكون أساسا للأخلاق ، ولا أساسا دائما للتشريع .

(٢) المنفعة المادية

ذهب جماعة الى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق ، وأجهدوا أنفسهم في التفكير والتدليل والتعليل ، فالأعمال التي تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لابد أن يدور حول هذا المحور .

وانهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحي ، ويعدونه نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساسا عاما للناس كافة .

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعادي والتدابير ، فان صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة ، اذا ما قامت على أساس النفع المادي فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشره ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذي يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخريين خصوما له ، فلا تعاطف ، ولا تألف ، ولا محبة ولا ائثار ، ولا اخاء ، ولا ثقة ولا سلام .

وكيف يتحقق شيء من هذه الفضائل في عالم هبط الى ادراك الحيوانية ، وفقد معاني الانسانية ، ومثلها الكريمة ، ودعائها الحلقية السامية ؟

على أنه مما لا شك فيه أن الأسباب الاقتصادية التي يدور حولها النفع المادي كثيرا ما تتأثر بأسباب غير اقتصادية ، فان التعليم أو الأمية وكثرة السكان أو قلتهم ، والحرب أو السلام ، أسباب غير اقتصادية ولكنها ذات آثار في الاقتصاد بعيدة المدى ، فهل يرجع الأساس الأخلاقي الى الأحوال الاقتصادية وحدها أو الى هذه الأسباب وحدها أو اليهما معا ؟

(٣) السعادة الشخصية

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هي اللذة والخلو من الألم ، فاللذة هي أساس الأخلاق ، وهي محور الأعمال ، والعمل يكون خيرا بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شرا بقدر ما يسبب من ألم .

ويزيدون على هذا أنهم لا يتطلبون اللذة فحسب ، بل يتطلبون أكبر لذة ، فإذا كانت أمام الشخص عدة أعمال تنتج لذة وجب عليه أن يختار أعظمها لذة .

وفى رأيهم أن الألم لذة سالبة ، فيجب على الانسان أن يتعد عما يسبب الألم .

وقد كان من أكبر الدعاة الى السعادة الشخصية أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق م) اذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هي غاية الانسان ، وليس في الحياة خير سواها ، وليس بها شر الا الألم . ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها في السعادة التي تصحبها .

ولم يكن أبيقور يعنى اللذة الحاضرة ، بل أراد أن تلقى نظرة على الحياة كلها ، وتتطلب لذة الحياة ، ودعا الناس الى أن يسيطروا على شهواتهم ، فيرفضوا اللذة التي تستتبع ألما أكبر منها ، ويتحملوا الألم الذي ينشأ لذة أكبر منه .

وفى رأيه أن اللذات العقلية والروحية أقيم من اللذات البدنية ، ولهذا دعا الى المعيشة السهلة اليسيرة المعتدلة العفيفة ، لأنها خير وسياسة الى السعادة أو اللذة .

ومعنى هذا أن الفضائل فضائل ، لأنها تسبب للمتصف بها لذة ، فالعفة فضيلة ، والدعارة رذيلة ، لأن السعادة التي ينالها العفيف في رضاه عن نفسه وفي بعده عن الألم الذي تسببه الدعارة ، يرجح ما يجده الداعر من لذة وقتية يتبعها ألم النفس . وفقدان الثقة ، وتعريض المال والصحة والشرف للضياع (١) .

والحق أن في هذا المذهب مجافاة للصواب في كثير من الأعمال والأحوال ، فان الأخيار يتحملون ألوانا من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم ، والآباء والأمهات كثيرا ما يشقون ، وكثيرا ما يطرحون لذاتهم ليسعدوا أبناءهم .

(١) كتاب الأخلاق ١٠٦ أحمد أمين .

وان المجاهدين ليفتدون أديانهم ، والشجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمائهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقون الى شىء غير اعلاء كلمة الله ، وحماية الأوطان ، بل انهم ليقدمون على هول المعارك ، معتمزين على الاستشهاد فى سبيل الله وفى سبيل الوطن ، فأين هى السعادة الشخصية أو اللذة التى قام عليها هذا المذهب .

نعم ان فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التى ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشخصية .

على أننا طالما رأينا ذوى النجدة يهرعون الى اطفاء حريق ، أو الى انقاذ غريق ، أو الى تخليص أناس من ضيق ، وهم لا يقصدون لذة ، ولا يتوقعون ثناء أو جزاء من أحد .

ثم ان هذا المذهب قائم على الأثرة . وانها لشر يأباه الخلق الكريم . لأن الذى يفعل الخير لغيره مجلبة للذة أثر يفعل خيرا لنفسه لا للناس ، فهو يجود أو يشجع أو يعف ليكسب ثناء ، أو ليشعر بالقدرة والتعالى والتفوق ، وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، لأن الفاضل فى رأى أبيقور لا يعنيه شىء من الخير الذى يصيب الناس ، أو من الشر الذى يحيق بهم ، الا القدر الذى يمس سعادته أو شقاءه .

(٤) السعادة العامة

إذا كان أبيقور قد أسس مذهبه الأخلاقى على السعادة الفردية ، فان آخرين قد أسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا الى أن الواجب على الانسان تحقيق أعظم قسط من السعادة للناس ، فليست السعادة أو اللذة مقصورة على العامل وحده كما دعا أبيقور ، بل انها تشمل كل من يتصلون بالعمل أو يتصل بهم العمل .

وهم يرون أن الفضائل تعد فضائل ، لأنها تثمر لذات أكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وان آلمت بعض الناس ، وهى فضائل وان آذت الفاعل نفسه ، ويرون أن الرذائل رذائل لأن آلامها تفوق لذاتها .

فالصدق فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع ، وبه يرقى المجتمع ويبقى ، فالطبيب بصدقه يرشدنا الى ما ينفع صحتنا ، والمعلم بصدقه يربى أبناءنا ويعلمهم ، والعالم بصدقه ينمى معارفنا وتجاربنا ، ولولا صدق هؤلاء وأمثالهم ما وثقنا بنخب من أخبارهم ، ولا بنصح من نصائحهم ، ولكننا وثقنا بهم ، وتبيننا أن صدقهم نافع لنا ، فحكمنا بان الصدق فضيلة ، وأوجبنا على الناس أن يصدقوا فيما يقولون .

كذلك تبين لنا فى كل فضيلة أنها نافعة للمجتمع ، وتبين لنا من كل رذيلة أنها ضارة بالمجتمع .

والسعادة التى يعيها هؤلاء تشمل السعادة الحسية والمعنوية ، واللذة التى يقصدونها تجمع اللذة الجسمية والعقلية ، وإن كان بعضهم يرى أن اللذة النفسية أشرف من الجسدية .

وهذا المذهب قديم ، فقد ذكر أرسطو أن أودوكس كان يرثى أن اللذة هى الخير الأعلى ، لأن جميع الكائنات تطلبها وترغب فيها . سواء كانت عاقلة أم غير عاقلة ، وكان يقول إن ما هو خير للجميع ، وما يرغب فيه الجميع ، هو الخير الأعلى .

ومن أكبر الدعاة الى هذا المذهب بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢ م) وجون سينيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) .

يقول بنتام : وضعت الفطرة الانسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، واليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا فى الحياة .

ومن يدعى أنه أخرج نفسه من حكمها لا يدري ما يقول ، فإن غرضه الوحيد - حتى فى اللحظة التى يرفض فيها أعظم اللذات ، ويقبل أشد الآلام - إنما هو طلب اللذة ، والهروب من الألم (١) .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقه ومع قربه الى المثل الأعلى يكلف فاعل الخير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل . سواء أكان من الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع .

ثم إن السعادة العامة ليست مقياساً محدداً ثابتاً ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص ، وباختلاف الملبسات ، فقد يرى شخص فى عمل لذة ، على حين أن آخر يرى فيه ألماً ، وقد يرى شخص فى عمل لذة كبيرة بينما يرى آخر فيه لذة صغيرة ، وقد يرى الشخص الواحد فى عمل لذة فى وقت معين ، ثم يرى فيه ألماً فى وقت آخر .

وهو الى هذا يربط عيون الناس الى نتائج أعمالهم ، وما تكلفه من لذة أو ألم ، غير متطابقة الى سمو الأخلاق والى المثل العليا .

على أن السعادة العامة مقياس مؤقت لا ثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس

(١) كتاب الأخلاق ٦٥ أحمد أمين .

ينظرون الى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر الى عصر ، بل تختلف في العصر الواحد من بيئة الى بيئة .

وكثيرا ما يتسلط الأقوياء ، فينصبون للمجتمع قيما فيها نفهم وحدهم ، وفيها ضرر للضعفاء وحدهم .

ولقد يصاب المجتمع كله بالخور في فترة من حياته ، فيركن الى الرذائل أكثر مما يجنح الى الفضائل ، وتروج فيه الأهواء ، أو تسود آراء الأدعياء ، ويفقد المجتمع مثله العالية التي تكفل له الرقي والعلاء .

على أن أرسطو قد ناقش مذهب اللذة العامة فأيد بعضه ، وفند بعضه ، وجاء في تفنيده أنه اذا كانت الكائنات العاقلة وغير العاقلة ترغب في اللذة فماذا تكون قيمة هذا الرأي ؟

وقال ان الخير شيء نهائي ومحدود ، على حين أن اللذة غير محدود ، لأنها قابلة للأقل وللأكثر ، وان بعض اللذات غير حميدة ، فلا يصح أن تكون اللذة العامة أو السعادة العامة مقياس الفضيلة ، بل يجب أن تكون الفضيلة هي مقياس اللذات العامة (١) .

(٥) الضمير

أقام زينون الفيلسوف اليوناني (٣٤٢ - ٢٧٠ ق م) مذهبه الأخلاقي على الضمير ، ثم عزز هذا المذهب الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) .

وأساس هذا المذهب أن في كل انسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشر ، كأنها الهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل .

فنحن حينما نصف عملا بأنه خير أو شر لا ننظر الى لذة ولا الى ألم ، كما يذهب دعاة مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين الى نتائج العمل .

ومن مزايا هذا المذهب أنه يعد الفضائل فضائل في كل بيئة وفي كل زمان وفي كل حالة ، بغير ما تطلع الى ما ينشأ عنها من لذة أو ألم ومن نفع للشخص أو ضرر .

كما أن من مزاياه أنه يعد الفضائل بديهيات ليست محتاجة الى تدليل على ما فيها من خير ، فمحال أن تنقلب الفضائل رذائل ، أو أن تصير الرذائل فضائل .

(١) علم الأخلاق ٢/٣٢٨ لأرسطو .

وسواء أكان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فإنه يتطلب من الإنسان أن يصغى الى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه

ولكن هذا المذهب لا يسلم من عيب ، لأن الناس يختلفون في حكمهم على الأعمال اختلافا كبيرا ، وكثيرا ما تتباين أحكامهم حتى على البديهيات ، فالسرقة الخفية كانت في اسبرطة عملا ممدوحا يمن عليه الشباب لتدريبهم على الحيلة في الحرب ، والاسترقاق كان في العالم القديم مباحا ، وشرب الخمر ولعب الميسر وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب في الجاهلية .

وشتان ما بين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التي ترجع الى الادراك ، كالحكم على الفحم بأنه أسود ، وكوصف القطن بأنه أبيض ، وكحسبان العشرة بأنها ضعف الخمسة .

ومن عيوب هذا المذهب أن الضمير في حاجة الى تربية وتكوين ، لأنه كثيرا ما يغشيه الهوى ، وتسييره المنفعة الخاصة ، وكثيرا ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فإذا ربي تربية دينية كان رقيقا على النفس ، وان لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف السلطان .

على أن الضمير مهما يكن صوته قويا دائم الهتاف بالإنسان أن يصغى اليه ليطيعه فيعمل الخير ، وليتجنب الشر ، فإن في الإنسان قوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، وهي العزيمة التي كثيرا ما ترفض نصائح الضمير ، وتطفئ على العقل .

فلا بد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعا .

(٦) الوسطية

كان مذهب الوسطية أكثر المذاهب شيوعا ، وأعظمها تأثيرا على الدارسين والباحثين ، منذ وضع أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) مقياسا للأخلاق وأساسا للمفاضل أنها وسط بين طرفين ، واعتدال بين رذيلتين .

قال أرسطو : ان الوسط بالنسبة لشيء ما هو النقطة التي على بعد سواء من كلا الطرفين ، والتي هي واحدة بعينها في كل الأحوال . أما بالاضافة الى الإنسان فالوسط هو هذا الذي لا يعاب لا بالافراط ولا بالتفريط .

كل إنسان عالم وعاقل يجهد نفسه في اجتناب الافراط من كل نوع ، سواء أكان بالأكثر أم بالأقل ، ولا يطلب الا الوسط القيم ، ويفضله على الطرفين ، ولكن هذا الوسط ليس وسط الشيء عينه ، بل الوسط بالنسبة

الينا ، وانى أعنى بالكلام هنا الفضيلة الأخلاقية ، لأنها هي التي تختص بانفعالات الانسان وأفعاله . فالفضيلة هي نوع وسط ما دام الوسط هو الغرض الذي تطلبه بلا انقطاع (١) .

ومثل أرسطو للحد الوسط بأن الاعتدال أو العفة وسط بين الفجور والحمود ، والسخاء وسط بين الاسراف والبخل ، وكبر النفس وسط بين الوقاحة والضعفة ، والحلم وسط بين الشراسة والفتور ، والصدق وسط بين النفيج والتعمية ، والبشاشة وسط بين السخرية والفظاظة ، والصدقة وسط بين الملق والشراسة (٢) .

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلماء ، وجاراه كثير من فلاسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا الى أنه يدعو الى الاعتدال ، والاعتدال حلة يرضاها الاسلام ، ويحمدها الناس ، لأنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبير والبعد عن الشطط .

وحسبنا أن نذكر أن الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) ذهب الى أن أهميات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .
والمراد بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية .

والعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتعملها على مقتضى الحكمة .

والشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في اقدامها واحجامها .
والعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فمن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذاهن ، وثقابة الرأي ، واصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن افراطها تصدر الجريزة (٣) والمكر والخداع والدهاء ، ومن تفريطها يصدر البله والخمارة والحمق والجنون .

وأما الشجاعة فيصدر منها الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها .

وافراطها وهو التهور يصدر منه الصلف والبذخ والتكبر والعجب ، وتفريطها تصدر منه المهانة والذلة والجزع والحساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب .

(١) علم الأخلاق ٢٤٩/١ .

(٢) علم الأخلاق ٢٥٠/١ - ٢٥٧ . النفج : المبالغة المقوتة بأكثر مما عند المتكلم .

(٣) الجريزة : الحبث والمداع .

وأما العفة فيصدر منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والظرف وقلة الطمع .

وميلها الى الافراط أو التفریط يحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغيرها .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربع : وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، وبالقوى فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

وقال ان الامساك حيث يجب البذل بخل ، وان البذل حيث يجب الامساك تبذير ، وبينهما وسط هو المحمود ، وهو الجود أو السخاء أو الكرم ، اذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الا به ، وقد قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » (٢) وقال تعالى : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » (٣) .

فالجود وسط بين الاسراف والاقتار ، وبين البسط والقبض .

وقال فى موضع آخر ان الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدالة وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب .

وذكر أن الحكمة وسط بين رذيلتين هما الخب والبله (٤) ، وهما طرفا افراطها وتفریطها .

أما الشجاعة فهى وسط بين التهور والجبن ، والعفة وسط بين الشره - افراط الشهوة - والحمود .

ثم قال : ان العدل لاكتنفه رذيلتان ، بل رذيلة الجور هى المقابلة له (٥) . وفى رأيه أن الشجاعة تشمل الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والشبات والنبل والشهامة والوقار .

رطبق مذهب الوسطية فقال ان الكرم وسط بين البسخ والبذالة ، والنجدة وسط بين الجسارة والانخدال ، وكبر النفس وسط بين التكبر وصغر

(١) الاحياء ٤٦/٣ .

(٢) سورة الاسراء ٢٩ .

(٣) سورة الفرقان ٦٧ - القوام : العدل وما يعاش به .

(٤) الخب : الخداع والخبث والغش .

(٥) الاحياء ٢٢٥/٣ .

النفس ، والاحتمال وسط بين الجسارة والهلع ، والحلم وسط بين الاستشاشة والانفراك ، والوقار وسط بين الكبر والتواضع (١) .

وذهب الى أن العفة تشمل الحياء والحجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدمائة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة والورع والطلاقة والمساعدة والظرف .

وكذلك طبق مقياس الوسطية ، فقال ان الحياء وسط بين الوقاحة والخنوثة ، والمسامحة وسط بين المناقشة والاهمال ، والسخاء وسط بين التبتير والتقتير ، والورع وسط بين الرياء والهتكة (٢) . الخ .

كذلك ذكر ابن مسكويه (٤٢١ هـ) أن الفضائل أوساط بين أطراف ، وتلك الأطراف هي الرذائل ، ثم قال انه من الصعب وجود الوسط ، والتمسك به بعد وجوده أصعب ، ولذلك قالت الحكماء : اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا يخطئها أعسر وأصعب (٣) .

غير أنه مع هذا جعل يطبق نظرية الوسط كما طبقها غيره .

لكن هذه النظرية ليست سليمة من القصور والعيوب .

١ - ولقد يتضح قصورها اذا ما طبقناها على كل فضيلة من الفضائل ، فالشجاعة مثلا ليست وسطا بين التهور والجبن ، وان كان التهور رذيلة والجبن رذيلة ، بل الشجاعة فضيلة حيثما كانت وكيفما كانت ، ما دامت سندا للحق ، ودفاعا عن العرض والمال والحياة ، وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقياء .

ولن تكون الشجاعة في حال من أحوالها هذه مذمومة ، ولن تكون في مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شجاعة انحرفت عن الوسطية الى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، انما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخطل في التدبير وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبر العواقب .

فليست الشجاعة دائما ألا يخاف المقدم ، فانها كما تكون في الاقدام تكون في الاسحام ، وكما تكون في الاستهانة بالمخاوف ، تكون في توقي بعض المخاوف وفي تقديرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

(١) المرجع السابق ٧٥ .

البذخ : مراده التناول بالعتاء . البدالة : مراده العطاء ، الهلع : شدة الفزع .
الانفراك : الكره .

(٢) المرجع السابق ٧٧ - ٨١ .

الهتكة : الفضيحة .

(٣) تهذيب الاخلاق ٢٠ .

وهذه الشجاعة درجات ، أولاها فضيلة ، وعليها فضيلة بل أفضل الفضيلة ، وهي الفداء والبطولة والاستشهاد .

وكذلك الكرم تفاوت درجاته من جود بالقليل الى جود بالكثير الى جود بالأكثر الى جود بالمال كله . ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها ، فقد يوجد الشخص في سبيل من سبيل الخير بالعشرة أو المئة ويسمى كريما ، لأن طاقته لا تحتل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يوجد الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يسمى مسرفا ، لأن ثراه يتسع لهذا السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه .

على أن هذا الشخص أو ذاك يوصف بالاسراف اذا ما بذل المال القليل في هوى من أهواء نفسه ، لا يمت الى الخير بسبب من الأسباب ، أو أنفق الكثير وقد كان في القليل كل الفناء . ولهذا قال تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا » . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهن قولا ميسورا ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (١) .

وقال تعالى : « كلوا من ثمره اذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (٢) .

وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالاسراف غنيا لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء ، أو يشيد به مدرسة أو مسجدا أو مصنعا ، أو يشتري به سلاحا للدفاع عن الوطن ؟

ان هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة في الأريحية والسخاء .

وهذا الذي نقوله في نقد الوسطية في الفضائل كلها نقوله في نقد الوسطية في الرذائل كلها ، كالجن والبخل والفجور وغيرها .

٢ - على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ، فكيف تعرف ؟ ومن الذي يحكم بأن هذه النقطة هي الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وأين ذلك المقياس الذي يعين المنتصف الذي عناء أرسطو وسواه ؟

وقد ذكر أرسطو نفسه أن ادراك الوسط في كل شيء أمر صعب جدا ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا يتيسر لجميع الناس ، ولهذا كان على من يريد

(١) سورة الاسراء ٢٦ - ٢٩ .

(٢) سورة الانعام ١٤٦ .

اصابة ذلك الوسط القيم أن يبتعد عن الرذيلة التي هي أشد ما تكون تضادا مع هذا الوسط ، لأن هذين الطرفين أحدهما أكبر اثما والآخر أقل (١) .

٣ - فإذا ما راعينا أن الفضيلة ليست دائما متساوية البعد عن الطرفين تبين لنا أن الوسط بين رذيلتين ليس هو الفضيلة ، فالشجاعة أبعد عن الجبن من بعدها عن التهور ، والكرم أقرب الى جانب الاسراف منه الى جانب البخل ، والعفة أدنى الى الحمود منها الى الفجور ، وهكذا .

٤ - ثم ان بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل ، فالصدق ليس وسطا بين الكذب وشيء آخر ، انما الصدق صدق فحسب ، والكذب كذب فحسب ، والعدل ليس وسطا بين الجور وشيء آخر ، بل العدل عدل خالص ، والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطا بين الفجور والحمود ، بل العفة هي العفة .

وقد ذكر أرسطو أن الوسط القويم بين طمع غال في المجد ، وقعود تام عن المجد. ليس له اسم خاص (٢) ، وذكر أن الصدق ليس وسطا بين رذيلتين (٣) ، وحار في التواضع فلم يعده فضيلة (٤) .

٥ - ونستطيع أن نفهم من كلام أرسطو نفسه أن الوسط مثقل غير محدود ، فهو تارة يقول ان المراد الوسط بالنسبة اليها (٥) ، وتارة يقول ان بعض الأطراف تشبه الوسط ، فالتهور به شبه بالشجاعة ، والسرف به شبه بالسخاء ، ولكن المفارقة الكبرى تتبين بين بعض الأطراف (٦) .

٦ - أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والاسراف بقوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » فانه موضع نظر .

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . واما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسورا » (٧) .

وبهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم في آية سابقة ببر آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير ، وهو

(١) علم الاخلاق ١/٢٦٢ .

(٢) علم الاخلاق ٢/٣٢ .

(٣) علم الاخلاق ٢/٤٢ .

(٤) علم الاخلاق ١/٢٥٠ .

(٥) علم الاخلاق ١/٢٤٥ .

(٦) علم الاخلاق ١/٢٥٩ .

(٧) سورة الاسراء ٢٩/٢٦ .

البعثرة في السرف ، والانفاق في المعاصي ، وفي غير الحق ، كما روى عن عبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عباس وعن مجاهد وقتادة وابن زيد .

أما الانفاق في الحق فقد قال فيه مجاهد : لو أنفق انسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ، ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا (١) .

ثم نهى الله عن البخل بالمال في الحقوق التي أوجبها في أموال الأغنياء ، ونهى عن العطاء الذي لا يبقى عند صاحب شيئا ، فلا يجد ما يعطيه اذا سئل ، فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

وقد فسر بعضهم البسط بأنه انفاق في سخط الله وفي معاصيه وفي ما لا ينبغي أن ينفق المال فيه (٢) .

والذي يصح استنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هي الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هي البخل ، وعن رذيلة أخرى هي التبذير أو الاسراف ، والمراد بالاسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يبتذل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماثلها .

وليس في الآيات ما يفهم منه أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذي يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشح والاسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف باختلاف مقدرة المنفقين ، فقد يكون انفاق شخص معتدلا وهو أقرب الى البذل الكثير ، وقد يكون انفاق شخص آخر معتدلا وهو أقرب الى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله في الحق وهو براء من التبذير .

كذلك الآية الكريمة : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » (٣) لاتعنى الوسطية بين الجود والشح أو بين السخاء والتقتير ، بل تدم الاسراف ، وتدم الشح ، وتدعو الى العدل ، وليس الاعتدال حدا وسطا بين الاسراف والبخل ، بل هو شيء آخر لا صلة له ببخل أو اسراف .

على أن الاسراف المقصود ليس هو السخاء الكثير ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسخو كثيرا في سبيل الله ، وكان أبوبكر وعثمان وغيرهما من أثرياء المسلمين قد سخوا بأكثر أموالهم في سبيل الله ، وكان ذلك محمودا منهم ، وقد أشاد النبي بفعالهم ، بل الاسراف هو الانفاق في المعاصي قل أو كثر ، لأن الطاعات لا اسراف فيها ، فقد سمع رجل رجلا يقول : لا خير في

(١) تفسير الطبري ١٥/٥٣ .

المدة : مكيا صغير أو هو ملء كفى الانسان المعتدل .

(٢) تفسير الطبري ١٥/٥٦ .

(٣) سورة الفرقان ٦٧ القوام : العدل وما يعاش به .

الاسراف ، فقال له : لا اسراف فى الخير (١) . ومن الاسراف الانفاق فى اللذات والشهوات ووسائل الترف التى تضعف العزائم ، وتفسد الأخلاق ، ولهذا قال عمر بن الخطاب : كفى سرفا ألا يشتهى الرجل شيئا الا اشتراه فأكله .

والى هذا ذهب كثير من أهل التأويل ، فقالوا ان الاسراف هو الانفاق فى المعصية ، والتقتير هو المنع من حق الله ، والقوام هو الاعتدال الذى لا يتجاوز حدود الله ، ولا يقصر عما فرضه ، وهو الانفاق بالعدل والمعروف ، ولهذا قال مجاهد : لو أنفقت مثل أبى قبيس ذهباً فى طاعة الله ما كان سرفا ، ولو أنفقت صاعاً فى معصية الله كان سرفا (٢) .

(٧) القوة

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيتشه ، ورأوا أن للأقوياء أفعاليات أخلاقاً لا يلقى لها العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقاً لا تليق بالأقوياء . وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها الى القوة ، فالشجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشبهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التى لا تبدو فى مظاهر القوة راجعة اليها ، فالصبر محدود ، لأن القوى هو الذى يحتمل الشدة ، ويطيق المكروه ، وينتبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجزع لأن الجزع والتخاذل من أخلاق الضعفاء .

والرحمة حميدة ، لأنها مظهر من مظاهر قوة الشخص الذى يرحم من هو أضعف منه ، وبينما على استعلائه على أن يلقى الضعيف بما يلقى به الأنداد من الأقوياء .

والكرم ممدوح ، لأنه يمثل المقصرة على مقاومة البخل ، وهو فى الوقت نفسه تفضل على المحتاج الذى لم تبلغ به قوته درجة الكريم المانع .

وان هذا المذهب لمعيب ، لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما فصلاً لا تفرقه الانسانية ، ويقيم بين الأقوياء والضعفاء سوراً لا ينفذ منه تراحم ولا تواضع ولا عاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض ، يبطل قواهم بضعفهم ، ويخنع ضعيفهم لقويهم ، وان أدى البطش والخنوع الى هلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك فى أن بلالاً استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستئثارهم بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة كلها أو بعضها الى هذا المذهب البغيض .

(١) الكشف ١١٥/٢ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٣/١٩ .

الأخلاق الإسلامية

ينبوعها

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تخل من ضيق وكثرة وانقطاع في الطريق وغيض ، فإن علينا أن نمد النظر إلى ينبوع آخر ، ينبوع ثر لا ينضب ، متدفق لا يفيض ، نقي لا يترنق ، مسترسل لا يتوقف ، مبرء من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال .

فما هذا ينبوع ؟

انه الاسلام الذى لا يهتدى الى الأخلاق الفضلى والمثل العليا سواء .
انه القرآن الكريم المنزل من عند الخالق سبحانه وتعالى الذى يعلم السوء والنجوى وما هو أخفى ، العليم بمصالح عباده جميعا ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١) . وهو الذى « يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (٢) .

محورها :

ما الفضيلة العظمى التى تدور الفضائل كلها فى فلكها الرحيب ؟
ما المحور المركز الثابت الذى تستدير الفضائل حوله منجذبة اليه كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟
انه التقوى .

فماذا تعنى التقوى ؟

١ - للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه ، وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية .
هى الأساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يميل ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير .

(١) سورة الملك ١٤ .

(٢) سورة الرعد ٢١ .

هى المركز الذى تلتفت الفضائل من حوله ، ويرنو اليه كل فرد برغبة وبرهبة ، ويدور فى محيطه ، سواء أحقق له نفعاً عاجلاً أم لم يحقق ، بل انه يدور من حوله منجذباً اليه وان كان فى دورانه ضرر محقق يمس به نفسه أو فى ماله أو فى رغبة من رغباته .

وما من منك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراءة تدبير ، وبراءة من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتحامي كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى - وهو يعلم أن الاسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها - الا كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفيماً رحيماً غيوراً متحلياً بكل فضيلة ، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة .

٢ - وقد ترددت مادة التقوى فى القرآن الكريم بهذا المعنى تسعا وثلاثين ومئتين مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثاً وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة اتقى ثلاثة مرات ، وكلمة الأتقى مرتين .

قال تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى » (١) .

والمعنى لا تنسبوا الى طهارة العمل ، وزيادة الخير ، وكثرة الطاعات ، والبعد عن المعاصي ، فان الله يعلم الزكى منكم والتقى .

وقال سبحانه : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى » (٢) .

فقد كان ناس من الأنصار اذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب ، فاذا كان من أهل المدر نقب نقباً فى ظهر بيته ، منه يدخل ويخرج ، أو اتخذ سلماً يصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الحجاب ، فبين لهم سبحانه أن البر ليس بتخرجهم من دخول الباب ، ولكن البر هو اتقاؤهم ما حرم الله (٣) ، واجتنابهم ما نهى عنه .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٤) أى لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل ، فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا

(١) سورة النجم ٣٢ .

(٢) سورة البقرة ١٨٩ .

(٣) الكشاف ٩١/١ .

(٤) سورة المائدة ٨ .

منهم ، وتتشفوا بما فى قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله.
أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد ، وأمرهم سبحانه بالعدل لانه
أقرب الى التقوى .

والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، منها قوله تعالى :

« للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار » (١٠) .
وقوله تعالى :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء
والأرض » (٢) .

وقوله سبحانه :

« وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا » (٣) .
وقوله سبحانه :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا » (٤) -
وقوله سبحانه :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (٥) -
وقوله سبحانه :

« واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (٦) .
وقوله سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا » (٧) .
وقوله سبحانه :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (٨) .
وقوله سبحانه :

« تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » (٩) .

(١) سورة آل عمران ١٥ .

(٢) سورة الأعراف ٩٦ .

(٣) سورة الزمر ٧٣ - زمرا : جماعات .

(٤) سورة الأعراف ٦٣ .

(٥) سورة الطلاق ٢ - ٣ لا يحتسب : لا يظن ولا يخطر بباله .

(٦) سورة البقرة ١٩٤ .

(٧) سورة البقرة ٢٧٨ - ذروا : اتركوا .

(٨) سورة الحجرات ١٣ .

(٩) سورة مريم ٦٣ .

وقوله سبحانه :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (١) .
٣ - ونستطيع أن نستنبط للتقوى - مع هذه الدلالة العامة التي تجمع كل فضيلة ، وتنفي كل رذيلة - معاني جزئية تتصل بها فضائل معينة ، كما نجدها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها :

(أ) فالكرم متصل بها في قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره ليسرى » (٢) .

وفى قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى » (٣) .

(ب) والشجاعة متصلة بها في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٤) .

وفى قوله تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » الى قوله تعالى : « ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال ، لولا أخرتنا الى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتىلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (٥) .

فقد كان المسلمون وهم فى مكة منهيين عن مقاتلة الكفار ، وكانوا يتمنون أن يأذن الله لهم فيه ، فلما فرض عليهم القتال بالمدينة تردد فريق منهم ، لا عن شك فى الدين ولكن عن خوف من الحرب والموت ، وودوا أن يمهلهم الله الى وقت قريب ، فرد عليهم سبحانه بأن متاع الدنيا قليل ، وبأن الآخرة خير للاتقياء الشجعان ، وبأن الموت لا بد أن يدرك كل حى وان تحصن فى بروج متينة عالية .

وقوله سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٦) .

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) سورة الليل ٥ - ٧ .

(٣) سورة الليل ١٧ - ٢٠ - يتزكى : يتطهر باخراج ماله خالصا لوجه الله .

(٤) سورة التوبة ١٢٣ .

(٥) سورة النساء ٧٤ - ٧٨ - القتيل : قشرة النواة .

(٦) آل عمران ٢٠٠ - اصبروا : اصبروا على الطاعات والمصائب وعن المعاصى . صابروا : غالوا الكفار فى الصبر فلا يكونون أشد منكم صبرا . ورابطوا : أقيموا على الجهاد .

فقد أمرهم الله بالصبر على الدين وتكاليفه أو بالصبر على الشدائد ، وبمغالبة أعداء الله في الصبر على أهوال الحرب وبالأقامة في الشغور مرابطين فيها بخيلهم ، مترصدين للغزو .

(ج) والعدل مرتبط بها في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .

وفي قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (٢) .

(د) والعفة ذات علاقة بها في قوله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً » (٣) .

فقد نهى الله نساء النبي اذا ما أردن التقوى عن الاجابة بكلام لبن مريب حتى لا يطمع فيهن صاحب الفجور ، وأمرهن أن يقلن قولاً حسناً فيه الجد وقطع الطمع فيهن .

(هـ) وللصدق صلة بها في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين » (٤) . وفي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً » (٥) .

(و) والوفاء بالعهد شعبة منها في قوله تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً » (٦) .

عن الحسن أن كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ، وقد أضيفت الكلمة الى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها (٧) .

وفي قوله سبحانه : « الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، وهم لا يتقون » (٨) .

(١) سورة البقرة ١٩٤ .

(٢) سورة المائدة ٨ ، لا يجرمنكم شنآن قوم : لا يحملنكم بغضكم لهم .

(٣) سورة الأحزاب ٣٢ .

(٤) سورة التوبة ١١٩ .

(٥) سورة الأحزاب ٧٠ .

(٦) سورة الفتح ٢٦ .

(٧) الكشاف ٢/٣٨٧ .

(٨) سورة الانفال ٥٦ .

(ز) والرحمة غصن من دوحتها ، فى قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا » (١) .

فقله أمر الله الأوصياء بأن يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى ، ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافا .

(ح) والعفو جزء منها فى قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٢) .

(ط) والصبر جانب من جوانبها فى قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (٣) .

روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد فوقف رسول الله على عبه حمزة وقد بقروا بطنه ، ومثلوا به ، فقال : أما الذى أحلف به ، لئن أظفرتنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك ، فنزلت الآية ، فكف عن الانتقام منهم .

وقد أمر الله نبيه بالصبر ، وأكد أنه سبحانه وتعالى ولى المتقين الذين يحسنون ما يعملون .

وفى قوله تعالى :

« لتبطلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » (٤) .

فالمثقفون هنا هم الذين يخشون ربهم ، وهم الذين يصبرون .

وفى قوله تعالى : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » (٥) .

(ي) والأمانة فرع من التقوى فى قوله تعالى : « فليؤد الذى أؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه » (٦) .

(١) سورة النساء ٩ .

(٢) سورة الشورى ٤٠ .

(٣) سورة النحل ١٢٥ - ١٢٨ .

(٤) سورة آل عمران ١٨٦ . عزم الأمور : الأمور القائمة على عزيمة قوية .

(٥) سورة آل عمران ١٢٥ - فورهم : دبتهم . مسومين : معلمين .

(٦) سورة البقرة ٢٨٣ .

وفى قوله سبحانه : « يأيتها الذين آمنوا اذا تدانيتهم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا » (١) .

وفى قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بل من أوفى بعهدة واتقى فان الله يحب المتقين » (٢) .

وسبب نزول الآية أن رجلا من قريش استودع عبد الله بن سلام الفسا ومثتى أوقية من الذهب ، فأداها اليه ، واستودع قرشى آخر فنحاص بن عازوراء دينارا فيجده وخانه ، ومثل هذا اليهودى لا يرد الأمانة الى صاحبها الا بالمطالبة والتعنيف أو بالقضاء والبينة ، لأنهم يزعمون أن أكل أموال غير اليهود مباح لا عقاب فيه ولاذم .

وقد نفى الله سبحانه وتعالى دعواهم ، ووصفهم بالافتراء على الشريعة التى جاء بها موسى ، وزاد القرية شناعة بأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

ثم بين سبحانه أن الأمانة والوفاء بالعهد من التقوى ، وأن الله يحب المتقين .

(ك) وقوة العزيمة ومضاء الارادة ، مظهر من مظاهر التقوى فى قوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » ، وأما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعذ بالله ، انه سميع عليم ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » (٣) .

أى خذ ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم ، وما أتى منهم ، وتسهل من غير كلفة ، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم .

وأمر بالمعروف والجميل من الأفعال ، ولا تكافى السفهاء بمثل سعيهم ، ولا تمارهم ، بل احلم عليهم ، واعرض عنهم .

فان حملك الشيطان بسوسسته على خلاف هذا فلا تطعه ، واستعذ بالله من وسواسه .

(١) سورة البقرة ٢٨٢ - ليمل : ليمل على من يكتب .
 (٢) سورة آل عمران ٧٥ - ٧٦ الأميين : غير اليهود (راجع كتاب مع القرآن الكريم الجزء الأول للمؤلف) .
 (٣) سورة الأعراف ١٩٩ - ٢٠١ .

وان المتقين اذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه فأبصروا السداد وتغلبوا على الوسواس .

وعن جعفر الصادق أن الله تعالى أمر نبيه بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

(ل) وأداء الدين والوفاء به متصل بالتقوى في قوله سبحانه وتعالى : « فليؤد الذي أؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه » (١) .

(م) وإصلاح ذات البين مرتبط بها في قوله تعالى : « وانما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٢) .

وفي قوله سبحانه : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » (٣) .

(ن) والتسامح مع الزوجات المطلقات قبل الدخول ، والسجاء في معاملتهن المالية وثيق الاتصال بالتقوى في قوله جل وعز : « وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ، الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، ان الله بما تعملون بصير » (٤) .

(س) والكسب الحلال متصل بهما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا » (٥) .

(١) سورة البقرة ٢٨٣ .

(٢) سورة الحجرات ١٠ .

(٣) سورة الانفال ١ .

(٤) سورة البقرة ٢٣٧ .

(٥) سورة البقرة ٢٧٨ - ذروا : اتركوا

خصائصها

تتميز الأخلاق الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص .

(١) الخير المطلق

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة ، أو من إثارة فريق من الناس على فريق ، أو من الاستجابة لنوازع الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات .

لكن الاسلام هو الذى كفل هذا الخير ، لأنه استن الأخلاق المثلى التى تحقق الخير المحض للفرد وللناس جميعا فى كل البيئات وفى جميع الحالات وفى كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها لأنها خير يجب أن يفعل ، ونهى عن الرذيلة ، وبغضها الى الناس ، لأنها شر يجب أن يترك ، وتسامى الاسلام بفاعلى الخير وتاركى الشر عن أن يتوقعوا جزاء من الناس ، لأن الجزاء الاوفى من الله وحده ، وسما بهم عن اتخاذ الخير سلما الى شهرة أو مجد أو مباهاة أو تسلط أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة أو بعيدة المنال ، لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله .

والآيات التى تقر هذه الحقيقة كثيرة جدا ، منها قوله تعالى : « وما آتيتهم من زكاة يريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (١) .

ومنها قوله سبحانه : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصداقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » (٢) .

ولم يقتصر القرآن الكريم على ذلك ، بل دعا الى التوبة ووعد بقبولها قال تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون » (٣) .

وقال سبحانه : « وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون ، لعلكم تفلحون » (٤) .

(١) سورة الروم ٣٩ .

(٢) سورة النساء ١١٤ .

(٣) سورة الشورى ٢٥ .

(٤) سورة النور ٣١ .

وقال عز وجل : « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنتات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » (١) .

والأحاديث النبوية الشريفة تسلك هذا الطريق نفسه ، قال عليه الصلاة والسلام : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

فقد كان الكرم مثلاً خلقاً فاضلاً في الحياة الجاهلية ، طالما باهى به المفتخرون ، وأشاد به المادحون ، وكان البخل رذيلة ، طالما هجا بها الشعراء ، ويرى منها الأسخياء ، ولكن كرم العرب في الجاهلية كان من املاء البيئة . وكان وسيلة من وسائل الفخار والكلف بحسن الأحداث .

ذلك بأن العرب كانوا يحيون في بادية شحيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوال ، فكل واحد منهم معرض لأن ينفد زاده ، فهو يقرى ضيفه اليوم . لأنه قد يضطر الى أن يضاف في يوم .

ثم انهم يكرمون لولعهم بحسن السمعة وطيب الشئاء ، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية ، تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف .

وكان المال في نظر الكرماء وسيلة الى الحياة الشريفة وكسب المحامد ونيل السيادة (٢) .

أما الكرم في الاسلام فانه مظهر لسخاء النفس ، وكرم اليد ، ورحمة القلب ، وابتغاء ثواب الله ، ومبعثه أن المال مال الله ، وأن صاحب المال خليفة عليه موقوت ، لابد أن يتركه لسواه ، وأن هذا المال ليس حقاً للمالك وحده ، بل له شركاء فيه من الفقراء والمساكين والمحاويج ، ومن مرافق الدولة وصالحها العام ، وغاية هذا الكرم ليست أبهة أو مباهاة أو سيادة أو عطفا مشوباً برياء ، بل القربى الى الله ، والشوق الى ثواب الله ، ولهذا حض الاسلام على البذل ، وأثر أن يكون بعض البذل في خفاء .

وكانت الشجاعة في الجاهلية وسيلة لعدوان الأقوياء على الضعفاء ، وطالما خايل العرب بقوتهم وبغلبتهم على غيرهم ، وبعنوان القادريين على من هم أقل منهم مقدرة ، فلما جاء الاسلام وجه الشجاعة الى نصره الحق ، وحماية الدين ، ونجدة المظلومين المضطهدين ، فارتفع بدلالتها عن العدوان الى الجهاد .

(١) آل عمران ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٠٨ - ٣٢٨ أحمد الحوفي .

(٢) الصلاحية العامة واليسر

تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس في كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة ميسورة ، ليس فيها إرهاق ولا اعتناء ولا تكليف بما لا يطاق ، بل ان الإسلام سن أخلاقاً فاضلة تستريح اليها النفوس النقية ، وتهش لها الضمائر الحية ، وتؤيدها العقول السليمة ، وقد صدق المولى سبحانه في قوله : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » (١) . وفي قوله : « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » (٢) وفي قوله : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً الا وسعها » (٣) ، وفي قوله : « ان الله بالناس لرؤوف رحيم » (٤) .

لهذا أعمى من فريضة الجهاد العاجزين عن القتال ، قال تعالى : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج » (٥) .

وأباح للمسافر الذي لا يجد قوتاً حلالاً أن يقتات بما يجد من محرّم ليعيش ، حتى لا يموت جوعاً ، قال تعالى : « فمن اضطر في مخصصة غير متجانف لاثم فإن الله غفور رحيم » (٦) .

وأباح للمسافر والمريض أن يرجئ صوم رمضان الى زمن مقبل ، قال سبحانه وتعالى : « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » (٧) .

وبين القرآن الكريم أن العقوبة لا تكون الا على ذنب مقصود متعمد ، قال تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفوراً رحيماً » (٨) .

هذه السهولة وهذه الصلاحية محققتان في الاخلاق الإسلامية ، على حين أن مذهب العرف ضيق المجال متغير الأحكام في البيئات والأعصار ، وكثيراً ما يجانب العرف الحق والخير والسداد ، وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أنانية بغيضة ، وقاصر عن الاتساع لكثير من الأعمال الخيرة والبطولة والفداء .

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٣) سورة الانعام ١٥٤ .

(٤) سورة الحج ٦٥ .

(٥) سورة الفتح ١٧ .

(٦) سورة المائدة ٣ . مخصصة : مجاعة . متجانف لاثم : متعمد العصيان الذي يسبب

العقوبة .

(٧) سورة البقرة ١٨٥ .

(٨) الأحزاب ٥ .

ثم ان مذهب السعادة العامة عسير التحقيق ، ومقياسه مضطرب لا حدود له ولا استقرار .

أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فان الاسلام ينكره أشد الانكار ، لأن الاسلام دين المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب ، وفى الحسنات والسيئات ، فهولا يقر التفرقة ولا يرتضيها .

ثم ان الاسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشجاعة والكرم والعفو والحلم ، ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والايثار وطيب العشرة .

والاسلام اذ يحض على أخلاق القوة يبتغى أن تكون حصى للعقيدة ، وحصنا للحق ، وظهيرا للخير ، ووسيلة الى نصره المظلوم ، ونجدة المهضوم وانصاف للضعفاء ، ونفع للناس . ولا يرتضى أن تتخذ وسائل للعدوان ، أو مظاهر للاستعلاء ، أو دعائم للافساد فى الأرض واذلال الضعفاء .

قال تعالى : « ان الله لا يحب كل مختال فخور » (١) .

وقال سبحانه : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » (٢) .

وقال تعالى : وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » (٣) .

وقد اتضح من دراسة المذاهب الأخلاقية أن الخير الذى تقصده أو الفضيلة التى تدعو اليها اما شخصية فردية ، وهذه أثرة يرفضها الاسلام ، واما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو الدائمة ، وكثيرا ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الانحراف العام .

أما الفضائل الاسلامية فانها الصالحة للأفراد والجماعات فى اليسر والعسر ، وفى الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وفريق ، ولا بين حال وحال .

ولقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة موضحة بسهولة التكليف الإسلامى ، ويسره ، قال عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » (٤) .

(١) سورة لقمان ١٨ .

(٢) سورة الزمر ٦٠ .

(٣) سورة النساء ٧٥ .

(٤) كتاب البيوع . الباب الثالث . البخارى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور
مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » (١) .

(٣) الثبات

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحه للناس
جميعا ، فهي اذن تتسم بالثبات والدوام والاستقرار ، لأن المشرع الحكيم راعى
فيها كفالة الخير الدائم العام .

وان النظرة الى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور
صلاحيتها ، ولهذا تعددت في العصر الواحد وفي مختلف الأعصار .

فالمنفعة المادية متلا مذهب لا ثبات له ، لأنه ينتكر للبواعث الروحية
وللمثل السامية ، ويطبع الناس بطابع الأثرة ويلزمهم بشريعة الغاب .

والضمير الذى احتكم اليه بعض الفلاسفة متقلب ، فكثيرا ما تخشيه
الأهواء ، وتحرف به النزعات ، وتقهره العزيمة .

والوسطية لا حدود لها يهتدى اليها الناس ليعرفوا أين تنتهى الرذيلة
وأين تبدأ الفضيلة .

والسعادة الشخصية تترجح بها الأهواء ، والسعادة العامة تتلاعب بها
الآراء .

وليس غريبا أن تتصف الأخلاق الوضعية بالتغير والاضطراب ، لأنها
تمثل نفسية واضعها ، وهو انسان لا يستطيع مهما يبلغ من الذكاء وبعد النظر
وعصق الفكر وحب الخير أن يضع للبشر دستورا أخلاقيا ثابتا لا تبدله الأحوال .

ومن الخطأ أن يجترىء الناس على صنع أخلاق لهم كما يصنعون الطعام
واللباس والمتاع ، أو كما يبتكرون نظريات فى علوم الرياضنة والفلك
والاجتماع .

واذا كان العلماء قد تباينت آراؤهم وما تزال تتضارب فى أنسواع
الدراسات فأنى لهم أن يبتدعوا ينابيع للأخلاق القاضلة وهى موصولة بالنفوس
أوثق اتصال ، وهذه النفوس بحر ما يزال الدارسون على حافته بعينين عن
الأباج ، ولقد يظن بعضهم أنهم اجتازوا الساحل الى اللجة ولكنهم لا يلبثون
أن يكذبوا هذا الظن ، لأنهم ما زالوا على الشاطئ فوق الحصى والرمال .

(١) كتاب الايمان . الباب التاسع والثلاثون . البخارى .

(٤). الالتزام المستجاب

ما الذى يبتغيه واضع القانون حينما يضعه للناس ؟
وما الذى يريده العالم حين يضع مذهباً فى الأخلاق ؟
انهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم فى السر والعلن ، وفى الوحدة والاجتماع ، وفى النعماء والبأساء .
ولكن ما الذى يحدث فى كثير من الأحيان ؟
ألا يتحايل الناس على القانون ، ويتسللون من قيوده اذا ما واتتهم فرصة للتحايل والفرار ؟
ألا يعصون نداء المذهب الأخلاقى اذا ما أمنوا ألا يعابوا بهذا العصيان ؟
ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الاغراء تتوارى أمامها رهبة القانون ، وتضعف مثل الفلاسفة ؟
ذلك بأن الوازع هنا خارجى لا سلطان له على دخائل النفوس وأعماق الوجدان ، فاذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمرت الأهواء والنزعات .
أما الأخلاق الدينية فانها تستمد من ينبوعها قوة نافذة تلزم بها فى العلن والخفاء ، وفى السراء وفى الضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذى لا تأخذه سبلة ولا نوم ، ولا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .
وأن هذا الالتزام لمحسوب مطاع ، لأنه أمر أو نهى من الله ، قد ربه المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله .
ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند الى سلطان روحى يمدّها بأعظم الدوافع على الاستمسك بها والاعتصام ، ويحفز الناس الى عمل الخير حفزاً منوطاً بالثواب ، ويردعهم عن فعل الشر ردعاً مرهوب العقاب .
ولقد ذكر أرسطو أنه من الضرورى لتكوين الرجل الفاضل أن يكون قد أحسنت تربيته فى البداية ، وأن يكون قد اعتاد عادات حسناً ، ولا يمكن أن يتحقق هذا الا اذا أكره الناس على الفضائل اما بارشاد العقل . واما بأمر منظم ذى قوة كفيلة بأن تطاع .
واذا كان أرسطو قد حصر هذه القوة فى القانون ، فاننا نحصرها فى

الدين ، لأنه أعظم من القانون سلطانا ، وأشد منه رقابة ، والناس له أكثر استجابة .

وإنه ليسترعى الانتباه أن القرآن الكريم لم يأمر بعمل الخير أمرا مطلقا قائما على الالتزام المجرد من التعليل والترغيب ، ولم ينه عن الشر نهيا مطلقا مبنيا على التحذير والترهيب المستغنى بنفسه عن التوضيح ، بل أمر القرآن الكريم بالخير ومهد له أو عقب عليه ببيان منفعته للفرد وللجماعة . ونهى عن الشر ، وسبق النهى عنه أو الحق به مضاره بالفرد أو بالجماعة ولم يكتف بهذا ، وإنما أضاف إلى الأمر بالخير الترغيب في ثواب الله تعالى ، وأضاف إلى النهى عن الشر الترهب من عقاب الله تعالى .

اقرأ قوله تعالى في الأمر بغض البصر وصيانة الفرج « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون » (١) .

واقرا قوله سبحانه في الدعوة إلى صلح الزوجين : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » (٢) .

فقد أثر الصلح بين الزوجين ، وعقب عليه بالدعوة إلى الاحسان والتقوى . والآيات التي تتضمن هذا كثيرة جدا ، منها قوله تعالى في النهى عن تطيف الكيل والميزان : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٣) .

ومنها قوله سبحانه في الأمر بالوفاء بالعهد : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » (٤) .

(٥) الرقابة المحيطة

على أن الأخلاق الدينية أمنع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأن الهيمنة عليها أشد وأقوى ، فلا يجترأ انسان على مخالفتها الا بعد تردد واحجام .

(١) سورة النور ٣٠ .

(٢) سورة النساء ١٢٨ .

(٣) سورة المطففين ١ - ٦ ويل : هلاك وعذاب . اكتالوا على الناس : اشتروا منهم بالكيل .

كالوهم : باعوا لهم .

(٤) سورة النحل ٩١ .

ثم يندم على ما اجترح ويأسى ، وقد يجره الندم الى توبة نصوح لا رجع له بعدها الى الآثام .

وذلك أن عليها رقيبا عتيدا من الدين نفسه ، ورقيبا من الضمير الحى الذى أيقظه الدين ورياء ، ورقيبا من العقل السليم الذى صقله الدين وهدهد .

وقد يسأل سائل : هل أقر الاسلام الضمير ، وعده رقيبا ؟

والجواب على هذا أن الاسلام قدر الضمير ، واعتمد عليه فى أنواع من الحكم والاختيار .

وحسب الضمير شرفا أن يكون المقصود فى قوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة » ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » (١) .

وفى قول رسول الله : ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

وقد تعرض أمور ليس للشرع فيها نص ، فيحار الناس أخير هى أم شر ؟ أحلال أم حرام ؟ وهنا يهتف الضمير الحى بما يطمئن النفوس ، ويهديها الى الخير والحق والحلال ، وهذا هو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم : استفت قلبك ، استفت نفسك . البر ما اطمأن اليه القلب ، واطمأنت اليه النفس ، والاتم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر (٢) .

وقوله : الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، ألا وإن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب (٣) .

وقوله : لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس (٤) .

أما العقل فان القرآن قد رفعه مكانا عليا فى كثير من آياته ، وان الفضائل التى دعا اليها الاسلام لتوافق العقل السليم ، ولهذا جعله الاسلام من الرقباء عليها وعلى الناس .

ولعل الامام الغزالى كان يقصد الى بعض هذا حينما ذكر أن الاعتدال

(١) سورة القيامة ١ - ٢ النفس اللوامة : التى تلوم صاحبها كثيرا .

(٢) كنز العمال ٨٨/٢ .

(٣) الاحياء ٥٠/٣ وتيسير الوصول ٢٤٩/٣ .

(٤) كنز العمال ٢١/٣ .

فى قوة العقل وكمال الحكمة ، وفى قوة الغضب والشهوة ، وفى خضوعها للعقل وللشرع يحصل من طريقتين .

أحدهما بحدود الهى وكمال فطرى ، فيخلق الانسان ويولد كامل العقل . حسن الخلق ، فقد تحرر من سلطان الشهوة والغضب . لأن القوتين خلقتا فيه منقادتين للعقل وللشرع ، فيصير عالما بغير تعليم ، ومؤدبا بغير تأديب ، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والآخر اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب ، وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق (١) .

على أننا لا نعرف فضيلة الا وقد أمر الدين بها ، وارتضاها العقل السليم وأيدها ، وهش لها الضمير الحى وسددها .

وليس هناك رذيلة الا وقد نهى الدين عنها وبغضها ، ونفر منها الضمير الحى وأنكرها ، ورفضها العقل السليم وقبحها .

وانه لجدير بامعان النظر أن القرآن الكريم اذ يأمر بفضيلة أو ينهى عن رذيلة. يسلك مسالك ، منها :

١ - أنه يعقب على الأمر أو النهى بتعليل موجز يكشف عما فى العمل بالفضيلة من خير ، وما فى اقتراف الرذيلة من شر ، وفى هذا تنبيه للضمير وللعقل .

من هذا قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون » (٢) .
فقد بينت الآية الكريمة أن العفة خير للأعفاء .

وقوله سبحانه : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير » (٣) .

فوضحت الآية الكريمة أن الصلح يحقق للزوجين منافع شتى .
وقوله عز وجل : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٤) .

(١) الاحياء ٥٠/٣ .

(٢) سورة النور ٣٠ .

(٣) سورة النساء ١٢٨ .

(٤) سورة فصلت ٣٤ .

فها هنا تعليل لمقابلة السيئة بالحسنة يبين أن هذه المقابلة تطفى الغضب ، وتعيد المودة ، وتكفل السلام .

وقوله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيتها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيعب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (١) .

فها هنا نهى عن عدة رذائل ، وتعليل لهذا النهى :

(أ) نهى عن سخرية بعض المسلمين ببعض سواء أكانوا من الرجال أم النساء ، لأن الذين يسخرون منه قد يكون أكرم منهم أخلاقا ، وأعظم تقوى ، وأعلى مكانة عند الله .

(ب) ونهى عن تبادل الشتائم ومعايب الألقاب ، لأن هذا مروق من آداب الدين ، ومعصية لله ، وظلم للنفس وللناس .

(ج) وأمر باجتناب كثير من الظن ، لأن بعضه باطل ، وقد يجر الى اعتداء وذنوب .

(د) ونهى عن التجسس ، وعن الغيبة ، لأن من يغتاب أخاه يرتكب عملا شنيعا بشعا تعافه كل نفس ، فهو مثل من يأكل لحم انسان ، وهذه بشاعة ، ثم ان هذا الانسان أخوه ، وهذه بشاعة ثانية ، ثم ان هذا الانسان الأخ ميت ، وهذه بشاعة ثالثة .

وقوله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٢) .

فالتثبت لتحري الأنباء التى ينقلها الكاذبون ضرورى ، لأن تصديق أنبائهم قد يثير النفوس ، فيدفعها الى حرب أو قطيعة أو سوء مجازاة ، ثم تتكشف الحقيقة فيكون الندم والأسف .

وقوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (٣) .

فان التنازع والتخاصم والتفرق يصيب بالخبية وضعف القوة ، ويطمع الأعداء فى المسلمين .

(١) سورة الحجرات ١١ - ١٢ - لا تلمزوا : لا تعيبوا : لا تنابزوا بالألقاب : لا يدع بعضكم

بعضا بلقب يكرهه . الاسم : المذكور من السخرية واللمز والتنازع .

(٢) سورة الحجرات ٦ .

(٣) سورة انفال ٤٦ - ريحكم : قوتكم .

٣ - وقد يراوح القرآن الكريم ، فيأمر بالفضيلة في موضع أو ينهى عن الرذيلة في موضع ، بغير أن يلحق بالأمر أو النهي تعليلا ، ولكنه في موضع آخر يعقب بالتعليل .

من هذا قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

فهذا أمر بالعدل مجرد من التعليل ، ولكن الأمر بالعدل اقترن في موضع آخر بأنه مظهر من مظاهر التقوى والخلق الكريم ، في قوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٢) ، واقترن في موضع آخر بأنه عمل ممدوح محبوب ، في قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعمًا يعظكم به » (٣) .

وليس معنى هذا أن الفضائل أو الرذائل التي لم يلحق بها القرآن الكريم تعليلا أقل شأنًا من التي ألحق بها بعض التعليل ، أو أنها محتاجة الى تعليل يؤيدها ، بل معناه أنها من البديهيات التي لا يختلف الناس فيها ، فتطفيف الكيل والميزان جريمة في تقدير كل انسان متدين حى الضمير سليم العقل كريم الخلق ، وإذا أفلت مرتكبها من العقاب في الدنيا فلن يفلت من عقاب الآخرة .

والوفاء بالعهد خلة محمودة يحرس عليها العقلاء الفضلاء ، ونكت العهد رذيلة يأنفون منها ، لأنها منقصة ، وان خفيت على الناس فلن تخفى على علام الغيوب .

غايته

تبين أن الأخلاق الاسلامية متفردة بأن الدين منبعها ، وبأن التقوى محورها ، وبأنها ممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها ، وأنها متميزة أيضا بغايتها .

وماذا عسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذى تشرئب اليه الانسانية فى جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وإيثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على الخير والتقوى ؟

(١) سورة النحل ٩٠ .

(٢) سورة المائدة ٨ .

(٣) سورة النساء ٥٨ .

بحث عن الفقه الاسلامى

بقلم : جاد الحق على جاد الحق

مفتى جمهورية مصر العربية

مدخل :

١ - الشريعة ، والفقه :

الشريعة : ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التى جاء بها نبي من الأنبياء ، صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم ، سواء كانت متعلقة بكيفية عمل ، وتسمى : فرعية وعملية ، ودون لها علم الفقه ، أو بكيفية الاعتقاد ؛ وتسمى أصلية واعتقادية ودون لها علم الكلام .

ويسمى الشرع أيضا بالدين والملة (١) .

الفقه : فى اللغة مطلق الفهم ؛ أو فهم غرض المتكلم من كلامه ؛ وفى الاصطلاح : هو : العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية . . وهو علم مستنبط بالرأى والاجتهاد ويحتاج فيه الى النظر والتأمل ، ولهذا لا يجوز أن يسمى الله ، فقيها ، لأنه لا يخفى عليه شيء (٢) .

ومن هذا يبين أن هناك فرقا بين الشريعة وبين الفقه ، وان هذا أخص من تلك اذ أنه جزء منها ، وهو بعض مما حوته ، وان أطلق بعض العلماء لفظ الشريعة مريدا بها الفقه من باب اطلاق العام وارادة الخاص ، وهو استعمال مجازى شائع :

(١) كشف اصطلاحات الفنون لمحمد على التهانوى فى مادة شريعة ص ٨٣٥ ، ٨٣٦ من المجلد الأول ط ١٣١٧ هـ الاستانة .
(٢) كتاب التعريفات للسيد الشريف الجرجاني مادة فقه ص ١١٢ ط ١٣٢٧ هـ الاستانة .

والى عموم الشريعة ومرادفتها للدين يشير الشاطبي فى كتاب الموافقات (١) فى أصول الشريعة بقوله : (ان معنى الشريعة أنها تحد للمكلفين حدودا فى أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم ، وهو جملة ما تضمنته) .

ويقول الامام أبو حامد الغزالي الشافعى فى كتابه (٢) المستصفى (والفقه عبارة عن العلم والفهم فى أصل الوضع يقال ، فلان يفقه الخير والشر ، أى يعلمه ويفهمه ، ولكن صار يعرف العلماء : عبارة عن العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة ٠٠) كالوجوب والحظر والاباحة والندب والكراهة وكون العقد صحيحا أو فاسدا أو باطلا ، وكون العبادة قضاء أو آداء وأمثاله) .

ويقول علاء الدين الكاسانى الحنفى : أنه لا علم بعد العلم بالله وصفاته أشرف من علم الفقه وهو المسمى بعلم الحلال والحرام والشرائع والأحكام ، له بعث الرسل وأنزلت الكتب ، اذ لا سبيل الى معرفته بالعقل المحض ، دون معونة السمع (٣) غير أن صاحب كتاب اصطلاحات (٤) الفنون ذكر أن بعض الشافعية يعرفون الفقه بأنه : (العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ٠) . ويجعلونه أربعة أقسام فقد قالوا : (الأحكام الشرعية ، العملية ، إما أن تتعلق بأمر الآخرة ، وهى العبادات أو بأمر الدنيا ، وهذه : إما أن تتعلق ببقاء الشخص ، وهى المعاملات ، أو ببقاء النوع باعتبار المنزل وهو المناكحات أو باعتبار المدنية وهى العقوبات ٠) .

لكن القول بأن العبادات مقصورة على الآخرة ، يغلب عليه التسامح ، اذ العبادات فيها منافع غير منكورة ، للشخص وللمجتمع فى الحياة الدنيا ، فالصلاة بما يلزمها من طهارة ونظافة ، وبحركاتها ، فيها صحة للجسم وتهذيب للنفس ، وكذلك الصوم أيضا ، ثم فى الحج رياضة للنفس ، وتبادل للمنافع الدنيوية ، مع التشاور فى رأى للصالح العام للمسلمين ، وفى الزكاة اصلاح للفقير خاصة وللمجتمع عامة الى غير هذا من المنافع الدنيوية التى لا تقع تحت الحصر فى العبادات .

والشريعة بمعنى الطريقة المستقيمة ، يشير اليها قول الله سبحانه (٥) :

(١) ج ١ ص ٨٨ .

(٢) ج ١ ص ٤٠ه ط بولاق ١٣٢٢ هـ وتراجع مادة (شرع) ومادة (فقه) فى لسان العرب لابن منظور ، فقد أورد فيهما ما يدل صراحة على التفرقة بين الشريعة والفقه ، وانه ليس لهذا ما لتلك من القداسة لأنها شرع الله رب العالمين .

(٣) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ج ١ افتتاحية الكتاب ص ١ .

(٤) التهاونى عند الكلام على الفقه ، فى مقدمته فى بيان العلوم المدونة ج ١ ص ٣٦ و ٣٧ .

(٥) الآية ١٨ سورة الجاثية .

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) .
وبهذا المعنى تحتوى الأقسام الثلاثة التالية :

١ - الأحكام الاعتقادية التي تتعلق بذات الله وصفاته ، وبالإيمان به وبرسوله وملائكته وكتبه واليوم الآخر . الى غير ذلك من الأبحاث التي هي موضوع علم الكلام (التوحيد) .

٢ - الأحكام التهذيبية التي تتعلق ببيان الفضائل ، التي يجب أن يتحلى بها الانسان حتى يكون المثل الأعلى للانسان الكامل ، وذلك مثل الصدق والأمانة ، والوفاء بالعهد ، وغير هذا مما يرمى الى تهذيب النفس وتقويمها ، والابتعاد عن الصفات المرذولة ، مثل الكذب والخيانة ، والغدر ، وغيرها من النقائص ؛ وقد تكفل بكل ذلك علم الأخلاق .

٣ - الأحكام العملية : وهي التي تتعلق بأعمال العباد ، مثل وجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم وحرمة الزنا ، والربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وحل البيع والاجارة ، وصحة العقود ، وفسادها ؛ وغير هذا مما تكفل ببيانه علم الفقه .

ولقد عرفت اللغة العربية مادة (شرع) قبل مادة (فقه) بزمن طويل ، يرشد الى هذا ان كلمة (شرع) ومشتقاتها وردت في كثير من آيات القرآن الكريم (١) بل ان كلمة (شريعة) نفسها جاءت في قوله تعالى (٢) (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) وذلك في مقابلة الشريعة الموسوية والشريعة المسيحية ، ويراد بها في هذه الآية ، الدين ، بصفة عامة كما تقدم .

هذا : على حين أن كلمة (فقه) لم نعرفها لغة العرب في معناها المشهور اليوم الا بعد مضي شطر من صدر الاسلام ، وفي هذا قال ابن خلدون (٣) في مقدمته ، في الفصل الذي عقده للكلام عن علم الفقه وما يتبعه من الفرائض : (الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين ، بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة ، وهي متلقة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة ، قيل لها (فقه) .

ثم يذكر ابن خلدون بعد هذا : أن هؤلاء الذين يستخرجون هذه الأحكام ، كانوا يسمون في فجر الاسلام ، بالقراء ، تمييزاً لهم عن الذين لم يكونوا يقرأون

(١) كآيات ٤٨ سورة المائدة و ١٦٣ سورة الاعراف و ١٣ و ٢١ سورة الشورى .

(٢) من الآية ١٨ سورة الجاثية .

(٣) ص ٤٤٥ ط المكتبة التجارية بالقاهرة .

الكتاب الكريم ، اذ كان العرب أمة أمية كما نعلم (ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية ، بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط ؛ وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء (١) .

هذا : وقد أفاض علماء أصول الفقه ، وبخاصة المتأخرين منهم ، فى بيان معنى الفقه فى اصطلاحهم وكانت لهم فى ذلك تعريفات ، واعتراضات ، ومناقشات طويلة تشير الى أن لهم فى ذلك ثلاث طرائق :

الطريقة الأولى : وقد اعتنقها جمهورهم ، هى : أن الفقه معرفة الأحكام الشرعية التى طريقها الاجتهاد ، أو أنه العلم بالأحكام الشرعية العملية بالاستدلال ، أو من طريق أدلتها التفصيلية .

ومن هذه التعاريف يكون العلم بالذوات ، من أجسام ، وصفات ، وغيرهما ، ليس فقها ؛ لأنه ليس علم أحكام والعلم بالأحكام العقلية والحسية ، والوضعية ، كقواعد الحساب وأحكامه والهندسة ، والنحو ؛ والصرف والموسيقى ؛ لا يسمى ؛ كذلك فقها ، لأنه علم أحكام ليست بشرعية ، وعلم أحكام أصول الدين ، وأصول الفقه ليس فقها ، لأنها أحكام شرعية علمية ، وليست عملية ، ويكون علم جبريل عليه السلام ؛ وعلم النبی صلى الله عليه وسلم وعلم المقلد بالأحكام الشرعية العملية ليس من الفقه ، لأنه علم ليس عن استدلال ، وكذلك العلم بشعائر الاسلام ، كفرض الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وغير هذا ممّا هو معلوم من الدين بالضرورة من غير استدلال ، اذ هذا لا يسمى فقها لأن العامة من الرجال والنساء ، بل ومن الأطفال المميزين يعلمون ذلك ويعملون به دون استدلال ، فالفقه ، هو العلم الاجتهادى والفقيه على هذا هو المجتهد .

والطريقة الثانية : هى ما قال به صدر الشريعة الحنفى فى كتابه التنقيح ، حيث عرف الفقه بأنه العلم بكل الأحكام الشرعية العملية التى قد ظهر نزول الوحي بها ، والتى انعقد الاجماع عليها من أدلتها ، مع ملكة الاستنباط الصحيح منها ، فلكي يتحقق معنى الفقه ، على هذا ، يجب العلم بالأحكام الشرعية العملية أخذاً من أدلتها ، قطعية كانت أو ظنية ، ويكون الاستنباط الصحيح من الأحكام الشرعية التى نزل بها الوحي ، أو انعقد عليها الاجماع .

والطريقة الثالثة : هى التى قال بها الكمال بن الهمام فى كتابه التحرير ، وهى لا تختلف عن سابقتها الا فى بعض أمور . أهمها : ما يرجع الى : الأحكام الشرعية ، فقد ذهب الى أنها القطعية ، لا الظنية ، اذ ان الظن ليس من الفقه ، والأحكام المظنونة لبست مما يسمى العلم بها فقها .

(١) المرجع السابق ص ٤٤٦ .

فالفارق بين هذه الطرائق الثلاث يرجع ، فى الجملة ، الى المراد من الأحكام ، فمنهم من أراد منها الظنية وحدها ، ومنهم من أراد القطعية وحدها ، ومنهم من جعلها شاملة لكل منهما .

ما اصطلاح عليه الفقهاء فى معنى الفقه :

استعملت كلمة الفقه فى اصطلاح الفقهاء للدلالة على أحد معنيين أحدهما : حفظ طائفة من مسائل الأحكام الشرعية العملية الواردة بالكتاب والسنة ، وما استنبط منها ، سواء أحفظت مع أدلتها ، أم حفظت مجردة عن دلالتها ، وبهذا يكون اسم الفقيه ، ليس قاصرا على المجتهد ، كما هو مصطلح الأصوليين ، بل يتناول هذا ، وغيره فمن أسماهم الفقهاء بالمجتهد المنتسب ، أو بالمجتهد فى المذهب ، ومن هو من أهل التخريج ومن هو من أهل الترجيح وللفقهاء فى هذا إطلاقا يتميز بها العالمون منهم بفقه المذهب .

والمعنى الثانى الذى يطلق عليه اسم الفقه : هو مجموعة هذه الأحكام والمسائل ، حتى اذا ما ذكرت دراسة الفقه ، أو ما ورد فى الفقه ، أو التأليف فيه ، لا يعنون به الا هذه المجموعة التى تحوى الأحكام الشرعية العملية التى نزل بها الوحي ، قطعية كانت أو ظنية ، وما استنبطه المجتهدون على اختلاف طبقاتهم ، وما اهتدى اليه أهل التخريج والترجيح ، والأقوال الصحيحة والأقوال الراجحة ، والأقوال غير الصحيحة ، والأقوال المرجوحة ، والضعيفة والشاذة ، وما أفتى به أهل الفتوى ، فى الوقائع والمفروضات ، وإن لم يتم على استنباط ، وإنما كان تطبيقا للأحكام المقررة ، وما احتجج اليه من مسائل العلوم الأخرى ، كبعض أبواب الحساب التى ألحقت بالوصايا والموارث ، وما ارتآه بعض الفقهاء الذين لم يدخلوا فى زهرة المجتهدين ، ولا أهل التخريج ، وإنما بطريق ما سموه تفقها ، أو استظهارا ، أو أخذاً ، أو ما أشبه ذلك ، كل هذا قد اندمج بعضه ببعض تحت اسم الفقه .

ومن هنا أصبح لكل مذهب من المذاهب الفقهية مجموعته التى تنسب اليه ، فيقال فقه مذهب أبى حنيفة ، وفقه مالك ، وفقه الشافعى وفقه أحمد بن حنبل ، وفقه الزيدية ؛ وفقه الإباضية ؛ وفقه الامامية ، وفقه الظاهرية ، وهكذا وقد وجدت مع هذا مجموعات شاملة لفقه هذه المذاهب كلها أو ما اشتهر منها واختصت هذه المجموعات فى القديم باسم اختلاف الفقهاء .

وكل من المجموعتين - الخاصة بكل مذهب ، والعامة ، يطلق على اسم الفقه بالمعنيين السالفين للفقه ، يسمى أيضا الفروع أو علم الفروع ، اما فى مقابلة العقائد وأصول الدين ؛ لأن التصديق بالأحكام العملية فرع للتصديق بالعقائد واما فى مقابلة أصول الفقه لتفرع تلك الأحكام عن أصولها وأدلتها التى هى موضوع أصول الفقه .

ما لا يعد من الفقه :

الأفهام والآراء التي يتوصل إليها من طريق النظر في الأحكام الشرعية لا نسمي فقها ، الا اذا صدرت عمن هو أهل لها ، ووقعت موقعها . والا كانت مبهمة ، ليس لأحد أن يعول عليها ، ولا أن يدخلها في باب اختلاف الفقهاء ، ويعتبرها فقها (١) .

وقد وردت مادة (فقه) في القرآن الكريم في عشرين (٢) موضعا ، كما وردت في السنة الشريفة في مواطن كثيرة ، ويراد بها ، معنى أخص من المعنى اللغوي : حيث صارت تطلق على فهم خاص ؛ وهو ما كان متعلقا بأمر الدين ؛ سواء في هذا ما يتعلق بالأحكام الاعتقادية (٣) ، وما يتعلق بالأحكام التهذيبية ، والأحكام العملية .

يرشد الى هذا قول الله تعالى (٤) : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (٥) : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) .

وإذا كانت كلمة (الفقه) تطلق على العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المستنبطة من الأدلة التفصيلية ، كالعلم بوجوب الصلاة ، وبحرمة الربا ، مثلا ، فهي تطلق أيضا على نفس الأحكام التي استنبطت من تلك الأدلة والتي هي : الوجوب ، والندب والحل والحرم ، والصحة ، والفساد ، والبطان وغيرها .

والمراد من الأحكام : الإيجابيات الشرعية ، التي تحتاج معرفتها الى دليل ، مثل أن المودع أمين ، على ما تحت يده من ودعة ، فلا يضمن هلاكها ، الا اذا قصر في حفظها أو تسبب في هلاكها .

أما الحكم الشرعي : فهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، اقتضاء أو تخييرا أو وضعاً ، والحكم الشرعي نوعان : تكليفي ووضعي (٦) .

(١) المرجع : موسوعة الفقه الاسلامي التي يصدرها المجلس الأعلى للفتوى الاسلامية تحت عنوان : التعريف بالفقه الاسلامي ، بصرف .

(٢) المعجم المفهرس للفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي في مادة (فقه) .

(٣) ولذا سمي الإمام أبو حنيفة علم الكلام بالفقه الأكبر راجع كشف اصطلاح العلوم

للنهارين ص ١١٥٧ المجلد الثاني .

(٤) الآية ١٢٢ سورة التوبة .

(٥) كنز الكثر الثمين برقم ٣٩٧٢ .

(٦) تفصيل هذا محله علم أصول الفقه وانظر فيه أصول الفقه للمرحوم الشيخ أحمد

ابراهيم بك ص ١٦٧ وما بعدها وللمرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف ص ١١٠ الى ١٥٢ .

والمراد (١) بكلمة (الشرعية) أن هذه الأحكام مستفادة من أمر الشارع ، صراحة ، أو دلالة ، أو استنباطا ، وبعبارة أخرى أنها موقوفة على خطاب الشارع ولا تدرك بدونه .

ويراد بكلمة (العملية) أنها متعلقة بأفعال الناس ، مثل وجوب الصلاة ، وحرمة الزنا ، والكذب ، وهذا القيد (العملية) يخرج به المسائل الاعتقادية والأخلاقية والمقصود بعبارة (الأدلة التفصيلية) ما ورد في القرآن وفي السنة من الآيات والأحاديث الدالة على الحكم مباشرة ، كآيات التحريم والفروض ، اذ الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع ، ويلحق بهما : الاجماع والقياس في افادة الأحكام ، من حيث انهما يستندان - في حقيقة الأمر - الى الكتاب والسنة .

هذا : والأحكام التي لم ترد منطوقا بها ، لا في القرآن الكريم ، ولا في السنة الشريفة ، وكانت مما استنبطه المجتهدون من معاني تلك الأحكام ، ولم يجمع عليها من أهل الاجماع ، هذه الأحكام ، ليست الا أفهاما وآراء لقائلها ، ولا تسمى في الحقيقة شرعا ، ولا شريعة ؛ وانما نسبت الى الشرع ، وبسميت أحكاما شرعية في تعريف الفقه ، وفي غيره من المواطن ، لأنها استنبطت من الشرع ، لا لأنها منه نصا .

فاذا أردنا الموازنة بين مفهوم الشرع أو الشريعة ، وبين مفهوم الفقه ، بالمعنى الاسمي في اصطلاح الفقهاء وجدنا أن بينهما العموم والخصوص الوجهي :

اذ يجتمعان في الأحكام التي وردت في الكتاب والسنة وينفرد الشرع أو الشريعة في أحكام العقائد وما اليها مما ليس فقها ، وينفرد الفقه في الأحكام الاجتهادية وما يلتحق بها .

وقد كثر الآن اطلاق اسم الشريعة الاسلامية ، على الفقه ، وما يتصل به فقد ينقل بعض الناس رأيا لأحد المؤلفين في الفقه ، ويطلق عليه أنه المنصوص شرعا ، مع أنه ليس كذلك ، بالمعنى الفني للشرع أو الشريعة ، والفقه وقد يكون هذا اصطلاحا توافق عليه بعض أهل الفقه أو المشتغلين بالتأليف فيه ، ولا مشاحة في الاصطلاح لكنه ليس الشرع ولا شريعة الاسلام (٢) .

(١) علم أصول الفقه للمرحوم الشيخ أحمد ابراهيم بك ص ١٦٨ .

(٢) الموسع السابق من موسوعة الفقه الاسلامي .

٣ - نشأة الفقه الاسلامى :

ان من تتبع تاريخ النظم والشرائع ، يستبين أن أى نظام فى الحياة - منذ بدأت ، وكان لها تاريخ - لم يقم طفرة ، ولم يتكون أو يتمكن جملة واحدة ، على نحو متماسك ، بل لا بد أن يمر بجميع الأدوار التى يمر بها كل كائن ، ذى حياة ، حتى يصل الى غايته من النضج والكمال .

وقد كان هذا هو الشأن بالنسبة للفقه الاسلامى ، فقد تدرج فى مراحل مختلفة ، حتى بلغ ما قدر له من كمال .

ولقد كان للعرب الذين بعث النبى صلى الله عليه وسلم من بينهم ، ونزل القرآن بلغتهم ؛ وأصبحوا حملة الاسلام ؛ ودعائه ونشريه فى أقطار الأرض - لقد كان لهؤلاء القوم - قبل الاسلام بطبيعة الحال - شئ من القوانين تحكم حياتهم ومعاملاتهم ؛ قوانين لم تكن صادرة ، حقا ، عن سلطة تشريعية ، كما كان الحال بعد أن جاء الاسلام ، ولكنها كانت أوضاعا ، وتقاليده وأعرافا ، استقرت بينهم ، وصارت لها قوة القانون ، وان كان منها ما استفادوه من البلاد المجاورة لهم ، والتى كانت لهم بها صلات عرفها التاريخ وحكاها القرآن ، ومن هذه البلاد الشام حيث كان فى حكم الرومان والعراق الذى كان فى حكم الفرس ، ويشرب (المدينة) حيث كان يعايش اليهود فيها العرب من الأوس والخزرج .

من أجل ذلك روى لنا التاريخ أن العرب قبل الاسلام عرفوا قواعد قانونية كثيرة قام عليها مجتمعهم ، وكان ذلك فى نواح شتى ، عاجلها الاسلام ، فيما بعد ، بما جاء به من تشريعات ، اما باقرار ما ألفوه من قواعد كانت قد تبلورت ورسخت حتى صارت أعرافا ينزلون على حكمها ، على أساس أنها صالحة لبناء مجتمع مستقيم فى حياة طيبة ، واما بتعديل تلك القواعد ، الى ما تصير به صالحة قديمة واما بالغائها لمنافاتها مع صالح المجتمع الاسلامى .

وفى هذا المعنى قال الامام أحمد شاه ولى الدين بن عبد الرحيم المحدث الدهلوى (١) ما خلاصته :

(١) كتابه حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٤ وما بعدها ط منير الدمشقى سنة ١٣٥٢ هـ بالقاهرة .

ان كنت تريد النظر فى معانى شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتحقق :

أولاً : حال الأميين الذين بعث فيهم ، فان هذه الحال ، هى مادة تشريعه .
ثانياً : كيفية اصلاحه لها بالمقاصد المذكورة فى باب التشريع والتيسير وأحكام الملة .

فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم ، بعث بالملة الحنيفية ، لاقامة عوجها ، وازالة تحريفها ، واشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : (١) (ملة أبيكم ابراهيم) .
ولما كان الأمر كذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسننها مقرر ، اذ النبى اذا بعث الى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها ، وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ، لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم .

ثم اختلط الصحيح بالفاسد مع الزمن ، وغلب على العرب الجهل والشرك والكفر ، فبعث الله رسوله المصطفى ، مقيماً لعوجهم ، ومصلحاً لفسادهم ، فنظر صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم ، فما كان منها موافقاً لمنهاج اسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه ، وما كان منها تحريفاً أو فساداً أو من شعائر الشرك والكفر أبطله ، وما كان من العادات (يعنى المعاملات) وغيرها ، بين آدابها ومكروهااتها ومحرماتها ونهى عن الرسوم الفاسدة وأمر بالصالحة ، فتمت بذلك نعمة الله ، واستقام دينه .

ثم قال الدهلوى فى هذا الموضع :

وكان للعرب سنن يتلومون على تركها فى مآكلهم ، ومشربهم ، ولباسهم ، وولائهم وأعيادهم ، ودفن موتاهم ، ونكاحهم وطلاقهم ، وبيوعهم ، ومعاملاتهم ، وكانت لهم مزاجر فى مظالمهم ، كالقصاص والديات والقسامة ، وعقوبات على الزنى والسرقة ونحوهما ، لكن دخلهم الفسوق والتظالم ، بالسبى والنهب وشيوع الزنى والنكاحات الفاسدة والربا .

فبعث النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وهذا حالهم ، فنظر فى جميع ما عنده القوم ، فما كان بقية الملة الصالحة أبقاه وضبط لهم العبادات والمعاصى ، وشرع فى هذا حدوداً ومزاجر وكفارات ، ويسر لهم الدين ، وما كان من تحريفاتهم ، نقاه ، وبالغ فى نفيه الى غير ذلك كله مما سبق ذكره ، حتى أتم الله نوره وهم كارهون .

ومن ثم فانه باستقراء تاريخ العرب كأمة يمكن أن يقال : ان الاسلام قدم طراً على مجتمعه له أعرافه وتقاليده بل وحياته القانونية ، لكن لا يستطيع منصف

أن يزعم أنهم وصلوا من ذلك الى ما يكفي ليقوم عليه مجتمع سليم وأمة صالحة للحياة ، وما كان يمكن أن يكون الأمر الا كذلك ، ونصيب العرب في الجاهلية من الرقي والحضارة كان نصيبا محدودا الى درجة كبيرة ، ومن أجل هذا وغيره كانت الحاجة ماسة جدا الى الاسلام وشريعته التي نشأ بها وعليها ما نسميه الآن (بالفقه الاسلامي) .

٤ - مثال من المعاملات والأعراف عند العرب قبل الاسلام :

لقد عرف العرب أنواعا من المعاملات ، وقد أشار القرآن الكريم الى رحلاتهم التجارية في سورة قصيرة (١) (لايلاف قريش . ايلافهم رحلة الشتاء والصيف .) وبهذا عرفوا البيع والرهن والاجارة والشركة والمضاربة والسلم وأقر الاسلام في القرآن وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفعله وتقريره ، الكثير من أنواع هذه العقود والتصرفات ، حيث وجدها صالحة للتعامل والبقاء بينما ألغى التعامل بالربا ، وأنواعا من البيوع ، لما في هذا من أكل أموال الناس بالباطل ولما تؤدي اليه من غرر ومنازعات ، ونسوق هنا بعض الشواهد :

(أ) جاء في سنن أبي داود ومسنند أحمد بن حنبل عن السائب بن أبي السائب أنه قال للرسول وقد جاءه يوم الفتح (٢) (كنت شريكي فكنت خير شريك . كنت لا تداري ولا تماري) .

(ب) تحدث ابن هشام (٣) عن زواج الرسول بخديجة بنت خويلد فقال (. . .) وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم .

ولا شك في أن هذين الخبرين يشيران في وضوح الى أن العرب قد عرفوا - من قبل الاسلام - عقد الشركة والاجارة والمضاربة (٤) ، وهي عقود ، أقرها الاسلام ، لأنها من قوام الحياة العملية ، لكن فقه الاسلام نقاها - فيما بعد - حيث أصل قواعدها وأبان حدودها وشرائطها ، ليكون الغرض منها مصلحة المتعاقدين في حدود شريعة الله .

(ج) وعرف العرب عقد السلم ، وهو شراء الشيء الذي لم يوجد بعد بثمن عاجل حال ، ولهذا نجد الرسول حين ينهى عن بيع المعدوم ، لما فيه من الضرر والخطر يستثنى السلم ، اذ كان نوعا معروفا من أنواع المعاملات التجارية ،

(١) السورة ١٠٦ (قريش) .

(٢) مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٤٢٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٢ ط المطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٢٧ .

(٤) انظر في المضاربة وقرار الرسول لها - اعلام الموقعين لابن القيم ج ٤ ص ١٦

والروض النضر شرح مجموع الفقه الكبير ج ٣ ص ٣٤٦ .

وبخاصة ، عند أهل يشرب (المدينة) قبل الاسلام ، ولما فى منعه من الحرج والتضييق على الناس .

وفى هذا يروى الشيخان (١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :
(قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث . فقال : (من أسلف فى شىء ففى كىل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم) .

(د) وفيما نطلق عليه اليوم اسم - الأحوال الشخصية - نجد كتب السيرة (٢) قد روت واقعة خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة بنت خويلد رضى الله عنها وزواجه بها وما قاله عمه أبو طالب وهو يخطبها اليه من عمها عمرو بن أسد ومن ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقد تم الزواج بشهادة كبار القوم .

ويروى أبو الفرج الأصفهاني فى كتابه الأغاني (٣) (ان الحارث بن عوف المرى ، وفد على أوس بن حارثة الطائي يخطب اليه إحدى بناته ، وكان له ثلاث بنات ، فعرض الأمر على الكبرى والوسطى فأبتا ، ثم خاطب الصغرى ، فقال لها هذا الحارث بن عوف ، سيد من سادات العرب ، جاء طالبا ، خاطبا ، فقالت : أنت وذاك ، فأخبرها بأبائها أختيها : فقالت : لكنى والله للجميلة وجها ، الصناعات ، الرفيعة خلقا ، الحسبية أبا ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير . فزوجها الحارث) .

هذا الخبز يدلنا على أن العرب ، قبل الاسلام ، قد عرفوا الزواج ، وأقرهم عليه الاسلام وقد أكد هذا الامام البخارى فى صحيحه (٤) فقال : (ان النكاح فى الجاهلية كان على أربعة مناح ، فنكاح منها ، نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها) فهذا هو عقد الزواج الذى أقره الاسلام ووضع له أصوله وحدوده .

وتدلنا هذه الأخبار على أن الزواج قد كان لابد فيه من الخطبة ومن المهر ، كما كانت المرأة لا تزوج الا بأذنها . كما عرف العرب انتهاء الزواج وفسخه بالطلاق ، ولكنهم لم يكونوا يتقيدون بعدد فى الطلاق .

فقد روى الترمذى (٥) والحاكم وغيرهما من أصحاب السنن عن عائشة

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٦ بالأصل ، ص ٢٠٤ هامش .

(٣) ج ٩ ص ١٤٢ ، ١٤٣ ط السائيس .

(٤) كتاب النكاح ، باب من قال : لا نكاح الا بولي ، ونيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ١٥٨ .

(٥) نيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ٢٥١ و ٢٥٢ فيه الحديث كاملا والحادثة التى نقلت بسميها آيات تحديد عدد الطلاق .

رضى الله تعالى عنها ، قالت : كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها ، وهي امرأته اذا ارتجعها وهي في العدة ، وان طلقها مائة طلقة أو أكثر .
ولذلك نزل القرآن بتحديد عدد الطلقات ، وبأنه ليس للزوج بعد الثالثة مراجعة .

(هـ) العقوبات :

أقر الاسلام ماجرى عليه العرب قبله مما كان يعرف (بالقسامة) حين يقتل قتيل في مكان ولا يعرف قاتله .

ففي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية ، كما قرر ذلك البخاري في صحيحه ووصفها في الجاهلية في حديث طويل ، يبين منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قضى بها حين قتل رجل من الأنصار في أرض لليهود ولم يعرفوا من قتله منهم (١) .

وإذا كان الفقه الاسلامي ، كما نعرفه اليوم ، لم ينشأ مرة واحدة كاملا ، بل تدرج في مراحل مختلفة ، حتى بلغ ما قدره الله له من نضج وكمال .

إذا كان ذلك : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم ينتقل الى الرفيق الأعلى ، الا بعد أن كانت أصول هذا الفقه التي قام عليها واستوى ، فيما بعد ، قد استكملت ، اذ انقضى بلحاظه بربه ، عهد وضع هذه الشريعة ، في أسسها وأصولها ، كما شرعها الله سبحانه ، ولم يبق لفقهاء العلماء بها ، الا الرجوع الى ماتم في حياته ، صلى الله عليه وسلم ، واستلهم ما أوحى الله اليه من كتاب وسنة ، ثم التفريع والتطبيق ، حسب ظروف الزمان والمكان ، والمصالح العامة للأمة .

ومن هنا كانت نشأة الفقه الاسلامي على مراحل :

والمتتبع لنشوء هذا الفقه يجد أنه قد مر بأربعة مراحل ، وان زادها بعض الباحثين الى خمس أو ست أو سبع استنادا الى قرائن وعلامات ، اتخذها كل باحث سنداً لما ارتأى .

٥ - منزلة الفقه بين العلوم الشرعية :

في بيان هذه المنزلة ، وذلك الموقف يقول صاحب (٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع في مفتتح الكتاب :

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ج ٤ ص ٣٠٤ والقسامة هي حلف خمسين من أهل المحلة التي وجد فيها القاتل يختارهم وليه ، بأنهم ما قتلوه ولا عدوا له قاتلا ، ثم يقضى بالدية على أهل المحلة جميعا .

(٢) الامام علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بملك العلماء المتوفى سنة ٥٨٧ هـ - ط أولى سنة ١٣٢٧ هـ القاهرة .

أنه لا علم بعد العلم بالله وصفاته أشرف من علم الفقه ، وهو المسمى بعلم الحلال والحرام ، وعلم الشرائع والأحكام ، له بعث الرسل وأنزل الكتب ، إذ لا سبيل الى معرفته بالعقل المحض ، دون معونة السمع .

وقال الله تعالى (١) : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) قيل في بعض وجوه التأويل ، هو علم الفقه ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : (ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من فقه في الدين ، وفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه) وروى أن رجلا قدم من الشام الى عمر رضى الله عنه فقال : ما أقدمك ؟ قال : قدمت لأتعلم التشهد . فبكى عمر حتى ابتلت لحيتته ، ثم قال : والله انى لأرجو من الله ألا يعذبك أبدا .

والأخبار والآثار في الحوض على هذا النوع من العلم أكثر من أن تحصى . ولعله من أجل منزلة علم الفقه كانت باقى العلوم الشرعية ، إذ أنها بمثابة مقدمات وأدوات لتحصيله ، وكان الفقيه ، من حصل تلك العلوم توصلا الى الفقه وحتى يكون فقيها .

٦ - الأدوار التي مر بها الفقه :

يمكن القول أن الفقه الاسلامى قد تدرج فى أربعة أدوار :

الأول : عصر النبوة وكانت غايته فى عام ١١ هـ

الثانى : عصر الصحابة وكبار التابعين ، وقد استمر هذا الطور الى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى .

الثالث : عهد تابعى التابعين ، وتابعيهم من الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى الى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وقد ظهر فيه كبار المجتهدين أصحاب المدارس الفقهية .

الرابع : وهو الدور الذى فشا فيه التقليد من أواخر القرن الرابع الهجرى مستمرا للآن ، وإن كان قد ظهر فيه بعض المجتهدين ، خاصة المجتهدين فى المذاهب .

٧ - الدور الأول - العصر النبوى

من بدء الرسالة فى ٢٧ من شهر رمضان فى السنة الحادية والأربعين

(١) من الآية ٢٦٩ سورة البقرة .

(٢) كتاب احياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ١١ بتخريج العراقى .

من عمره الشريف حتى وفاته في ١٢ من شهر ربيع الأول في السنة الرابعة
والستين من عمره صلى الله عليه وسلم .

كانت سلطة التشريع والقضاء والفتيا ، للرسول وحده ، عليه الصلاة
والسلام ، فهو المرجع ، وفي حياته اكتمل بناء الدين ، عقيدة وشريعة حيث
كان يبلغ الى الناس ما نزل عليه من ربه ، ويشرحه ، سواء في ذلك العبادات
وغيرها من الشئون التشريعية ، والسياسية ، والأخلاقية ، والاجتماعية .

وكان لفظا (الفقه) و (العلم) في هذا العهد مترادفين في عرف
المسلمين ، حتى أطلق على العلماء أو الفقهاء من أصحابه ، عليه الصلاة والسلام ،
لقب : القراء : باعتبارهم حفظة القرآن ، الذي هو المصدر الأصلي لعلوم
الشريعة ، وقد كانوا يحفظون آياته مع أحكامها ، فجمعوا بين حفظ القرآن
والدراية بعلمه وفقهه .

ففي مقدمة تفسير (١) ابن كثير : أن ابن مسعود رضى الله عنه قال :
كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات ، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن
والعمل بهن .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا
يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا اذا تعلموا عشر آيات ، لم
يخلفوها ، حتى يعملوا بما فيها من العمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعمل
جميعا .

ولم يكن في هذا العصر تفرغ لاستنباط العلم والفقه من القرآن ، لأن
القوم كانت جهودهم منصرفة الى العمل والجهاد في سبيل نشر الدعوة ،
وانما كان العلم والفقه يأتيان من تلاوة القرآن وتدبر آياته ومن استماع حديث
النبي واستيعاب الحوادث التي كان يفتى أو يقضى فيها .

ففقه هذا العصر واقعي ، لانظري ، حيث كان الناس ، يستفتون ويسألون
عن الحكم بعد وقوع حادثته . يدل لذلك المنهج أن من يقرأ القرآن ، في ملاحظة
واستقصاء ، يرى أن الأحكام كانت تنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام ،
اما اجابة عن أسئلة ، تقدم بها بعض المسلمين ، لحاجتهم الى حكم الله فيها ،
واما تشريعات يوحى بها دون سؤال ، والنوع الأول نجده في الآيات التي
افتتحت بكلمة (يسألونك) أو كلمة (يستفتونك) .

وقد وردت كلمة (يسألونك) في القرآن خمس عشرة مرة ، منها ثمان تتناول الفقه في موضوعات متنوعة (١) كما جاءت كلمة (يستفتونك) مرتين (٢) .

٨ - مصادر التشريع في هذا العصر : القرآن والسنة

كان التشريع في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل ، وحيا ، اما قرآنا أو سنة فاذا سئل عن أمر أو وقعت حادثة ، تقتضى حكم الشارع ، انتظر الوحي ، فان جاء بالحكم أعلنه الرسول ، والا ، كان هذا ايذانا من الله لرسوله بالبيان ، بعبارته الشريفة لأنه في أمر التشريع معصوم لا ينطق عن الهوى . وكان الرسول - أحيانا - يجتهد في الحكم ثم يصدره ، وهنا لا يقره الله سبحانه (٣) ، على ما أبدي من رأى الا اذا كان صوابا ، على أنه في اجتهاده هذا كان يستلهم ما أنزل الله عليه مع تقدير للمصلحة ، واستشارة لأصحابه . فالتشريعات التي تمت في حياته عليه الصلاة والسلام ، كانت من الله سبحانه ، اما بنزول القرآن بها واما باجتهاد الرسول ابتداء ثم يقره الله عليها ، أو ينزل القرآن على غير ما توصل اليه اجتهاده .

والقرآن نفسه شاهد على اجتهاد الرسول في بعض الأحداث والنوازل ، وأن الله لم يقر رأيه في بعض ماذهب اليه ، بل وعاتبه أحيانا في بعض الرأى من ذلك اجتهاده في أسرى (٤) بدر وأخذ الفداء فقد نزل في هذا آيتان (٥) في سورة الأنفال بعتاب شديد على أخذ الفداء ، كما عوتب من الله سبحانه ، على عبوسه في وجه ابن أم مكتوم الأعمى على نحو ما ورد في سورة (٦) (عبس وتولى) .

ودخوله - صلى الله عليه وسلم - جوف الكعبة ثم تأمله لذلك فقد قال كما روى (٧) عن عائشة : (انى دخلت الكعبة ، وودت أنى لم أكن فعلت ، انى أخاف أن أكون أتعبت أمتى من بعدى) .

(١) البقرة الآيات ٢١٥ و ٢١٧ و ٢١٩ وفيها سؤالان و ٢٢٠ و ٢٢٢ والآية ٤ - سورة المائدة والآية الأولى من سورة الأنفال .

(٢) سورة النساء ١٢٧ و ١٧٦ .

(٣) كتاب الأحكام للامدى ج ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٤) مستند أحمد ج ١ ص ٢٤٤ و ٢٤٧ ط دار المعارف ١٩٤٨م وغيره من كتب السنة .

(٥) ٦٧ و ٦٨ .

(٦) السورة رقم ٨٠ .

(٧) نيل الأوطار ج ٥ ص ٨٤ .

٩ - طبيعة التشريع في هذا الدور :

كان القرآن ينزل بالأحكام وكان التشريع في قواعد عامة ، بصفة اجمالية ، وكان الرسول يتولى تفصيل هذا الاجمال وتحديد العام .

ومن ثم كانت (١) مهمة الرسول البلاغ والشرح للقرآن ، وبيانه بهذا الاعتبار وحى ملهم به من الله سبحانه ، وقد توجد في السنة أحكام لم ترد في القرآن ، لكنها لاتخرج عن مقاصده ومعانيه .

(أ) فقد أمر الله بالصلاة في القرآن ، الا أنه لم يبين أوقات الصلاة . ولا عددها في كل يوم ولا كيفيتها ، على نحو يرفع الابهام ، وجاءت السنة ببيان كل ذلك ، حين صلى الرسول عليه السلام فعلا بالناس وقال لهم : (صلوا كما رأيتموني أصلي) وروى غير واحد من الصحابة كيفية صلاة الرسول .

(ب) كما فرض الله صوم شهر رمضان في القرآن ، وأبان الرسول أن الشهر قمرى لا شمسى ، وأن الصوم من الفجر الى غروب الشمس ، ووضع قاعدة يعرف بها دخول هذا الشهر (صوموا لرؤيته ٠٠) وأبان حكم المفطر عامدا أو ناسيا وغير هذا من الأحكام .

(ج) وهكذا في الزكاة وفي الحج ، فقد فرضهما القرآن وأبانت السنة نصاب الزكاة في كل نوع من أنواع الأموال ومقدار الواجب وكل نصاب على نحو تحددت به هذه الفريضة ، وفي الحج بينت السنة كيفية الاحرام ومواقيتها ومحظوراته وسائر مناسك هذا الركن من أركان الاسلام .

وذلك كله بأمر الله سبحانه حيث أنزل في القرآن على رسوله (٢) : (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ٠٠) واجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيما لم ينزل به عليه الوحي ، كان توجيها وتعليما لأصحابه ، وللناس من بعدهم ، لطريقة الاستنباط وكيفية أخذ الأحكام من أدلتها الكلية ، ايذانا لفقهاء المسلمين أن ينزلوا ماجد ويستجد من واقعات على ما جاء في القرآن والسنة من أحكام وتشريعات وقواعد .

وخطأ الرسول في بعض ما اجتهد فيه ، وتصويب الله للحكم ، انما هو اشارة لرفع الحرج عن العلماء ، حتى لا يتهيبوا دخول ميدان الاجتهاد ، خشية الخطأ ، وتنبيه للأمة ، ألا تتسرع في لوم العلماء الذين يخطئون في الاجتهاد ،

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ج٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٩ في الحديث عن أن مهمة الرسول كانت تفصيل ما في القرآن .

(٢) من الآية ٤٤ سورة النحل .

فقد وقع فى الخطأ من هو خير منهم ، رسول الله ، الذى أذن لأصحابه فى الاجتهاد حتى فى حضوره وقال : (ان أصبت فلك أجران وان أخطأت فلك أجر) (١) .

وخلاصة القول : أنه لم يكن للفقهاء الإسلامى فى عصر الرسول مصدر سوى القرآن والسنة ، وان كل ما ثبت من طريق الاجتهاد ، كان استنباطا من الكتاب مرة وراجعا للوحي مرة أخرى .

١٠ - خصائص التشريع فى هذا الدور :

للفقه الإسلامى فى العصر النبوى خصائص انفرد بها عن سائر العصور اللاحقة ومن أبرز ما تميز به :

(أ) أن التشريع كان للرسول صلى الله عليه وسلم وحده ، ومصدره الوحي - قرآنا وسنة - ومن ثم لم يكن ثمة مجال للخلاف فى حكم من الأحكام ، واجتهادات بعض الأصحاب فى القضاء وغيره ، لاعتبرت تشريعا الا اذا أقرها الرسول ، وان جاز تسميتها فقها .

(ب) أن فقه هذا العصر كان واقعيا لا نظريا ، تنزل الأحكام والقواعد حسب الحوادث أو جوابا على أسئلة فى وقائع ، دون افتراض .

(ج) من أجل هذا لم يتكون الفقه جملة واحدة ، بل ظهر متتابعا بمقتضى الآيات والأحاديث تبعا للوقائع والمناسبات .

(د) أن الشريعة قد كملت بأصولها وقواعدها قبل وفاة الرسول وفى هذا قال الله سبحانه (٢) : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) . حيث كان نزول هذه الآية فى حجة الوداع ، وقيل انه لم ينزل بعدها حكم تشريعى بحلال أو حرام ، وكان هذا قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر .

(هـ) أن الرسول لم يترك من بعده فقها مدونا ، بل ترك الأصول والقواعد الكلية وبعض الأحكام الجزئية ، ولقد نبه أصحابه الى أسرار التشريع وعلل الأحكام ، وعلمهم طريقة استنباطها من مصادرها على وجه يحقق المصالح للناس فى كل زمان ومكان .

وقد حدد صلوات الله وسلامه عليه ما تركه لأئمة فيما جاء فى قوله الذى رواه الحاكم عن أبى هريرة :

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ٢٤٥ فى اذنه لعمر بن العاص بالقضاء فى حضرته .
(٢) من الآية ٣ سورة المائدة .

(تركت (١) فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ،
ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض) .

١١ - المبادئ العامة التي قام عليها التشريع الاسلامي في عهد تكويته :

(أ) التدرج في التشريع :

تدرجا زمنيا : وهذا ظاهر في أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله لم تكن دفعة واحدة ، وإنما جاءت متفرقة في مدة الرسالة اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر ، وفقا للحوادث والأقضية والمناسبات لتيسير معرفة الأحكام وفهمها والاحاطة بها علما وعملا .

وتدرجا نوعيا : اذ لم يكلف الله المسلمين في أول عهدهم بهذا الدين بما يشق عليهم فعله أو يعز عليهم تركه ، بل سلك بهم سبيل التدرج وأخذهم بالرفق حتى يتأهبوا للتكاليف ، فقد فرضت الصلاة أولا مطلقة بالغداة والعشي ، دون عدد محدود ولا ميعاد موقوت ، وبعد أن تهيأت لها نفوسهم ، واستقاموا على ما أمروا به فرضت خمس صلوات في اليوم والليلة ، ركعات معدودة في كل فريضة ، وكذلك الصيام والزكاة ، لم يؤمروا بهما الا بعد سنة من الهجرة ، ولم يحرم الله عليهم الخمر والميسر وكثيرا من عقودهم ومعاملاتهم في الجاهلية الا في المدينة ، وهذا ولا شك صنع الخبير العليم بالانسان الذي خلق فسوى ، (ألا يعلم من خلق) (٢) .

(ب) واقعية الأحكام التشريعية :

ويوضح هذا : أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله ، كانت على قدر الحاجات التي دعت اليها ، والحوادث التي اقتضتها ، ولم تنزل أحكام لحل مسائل محتملة وإلى هذا المبدأ جاءت اشارة القرآن الكريم في قول الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل ، والقال وكثرة السؤال ، كما ورد في الحديث الذي رواه المغيرة بن شعبه (٤) (ان الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال) وقال (٥) (ان أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته) وقال (٦) : (ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها

(١) الكنز الثمين في احاديث النبي الأمين برقم ١٤٦٧ .

(٢) من الآية ١٣ سورة الملك .

(٣) من الآية ١٠٦ سورة المائدة .

(٤) صحيح البخاري - باب الزكاة .

(٥) رواه البخاري ومسلم - زاد المسلم ج ١ ص ٧٠ .

(٦) أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة .

وحد حدودا فلا تعتدوها • وحرم أشياء فلا تنتهكوها • وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) •

وقد كان ذلك : لأن التشريع يجب أن يقتصر على ما اقتضته مصالح الناس وحاجاتهم ، دون استتباع للواقعات والحوادث •

(ج) التيسير والتخفيف :

وهذا أمر صرح به القرآن بأجلى بيان فى قول الله تعالى (١) : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله (٢) : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقوله (٣) (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) وفى سنة (٤) رسول الله عليه الصلاة والسلام : أنه ما خير رسول الله بين أمرين الا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس منه وأنه قال(٥) : (لولا أن أشق على أمتى أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة) ونرى أن كل أمر مفروض أو ممنوع ، شرعت فيه الرخصة ، فقد أبيحت المحظورات عند الضرورات ، وأبيح ترك الفرض والواجب ، اذا كان فى أداء أحدهما مشقة وحرج ، واعتبر الاكراه والمرض والسفر والخطأ والنسيان والجهل من الأعذار التى تستتبع التخفيف •

(د) موافقة التشريع لمصالح الناس :

يدل على هذا بجلاء أن الشارع أورد كثيرا من الأحكام معللة بمصالح الناس ، وقرر أن الأحكام مرتبطة بعلاها بحيث تدور معها وجودا وعدما •

فقد نهى رسول الله عن ادخار لحوم الأضاحى ، من أجل الوفود التى كانت بالمدينة أيام العيد ، ثم أباح ادخارها لما رحلت تلك الوفود ، ونهى عن زيارة القبور ثم أذن فيها •

وقد راعى الشارع عرف الناس وقت التشريع ، مادام غير مناقض لأصل من أصول الدين فراعى الكفاءة فى الزواج وراعى العصبية فى الارث والولاية وفرض الدية على العاقلة ، لأن من مصالح الناس أن تراعى عاداتهم وما جرى به عرفهم مادام لا يجلب ضررا أو يصادم أصلا فى الدين(٦) •

(١) من الآية ١٨٥ سورة البقرة •

(٢) من الآية ٧٨ سورة الحج •

(٣) ٢٨ النساء •

(٤) رواه البخارى ج ١ ص ٢٤٧ •

(٥) رواه البخارى ومسلم فى زاد المسلم ج ٢ ص ١٣٢ •

(٦) علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم الشيخ محمد الوهاب •

ص ٢٨٧ - ٣٩٠ •

١٢ - النصوص التشريعية فى القرآن وفى السنة :

لا مراء فى أن القرآن الكريم قد حوى آيات الاحكام ، وأن السنة الشريفة قد حوت كذلك أحاديث الأحكام ، وهذه وتلك هى المصدر التشريعى والقانون الأساسى للمسلمين ، ومرجع كل مجتهد مسلم فى أى زمن من الأزمان .

(أ) نصوص القرآن التشريعية :

الأحكام العملية فى القرآن التى يراد بها الفقه عند الاطلاق قد تنوعت الى ما يأتى ، عددا ونوعا حسبما استقصاها الفقهاء :

١ - العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية .

٢ - نظام الأسرة أو ما نسميه الآن بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وارث ووصية وحجر وغيرها نحو ٧٠ آية .

٣ - المعاملات أو ما يمكن أن يطلق عليه المجموعة المدنية ، من بيع وإجارة ورهن وشركة وتجارة ومدائنة نحو ٧٠ آية .

٤ - العقوبات الجنائية وتحقيق الجنايات نحو ٣٠ آية .

٥ - القضاء والشهادة وما يتعلق بهما نحو ٢٠ آية .

وهذه المتنوعات من الأحكام تفرقت آياتها فى جملة سور .

(ب) نصوص السنة التشريعية .

عدد أحاديث الأحكام فى أنواعها المختلفة نحو ٤٥٠٠ حديثا ، جاءت تبينا لما أجمله القرآن من أحكام ، أو تقرير وتوكيد ، أو إفصاح عما لم يصرح به القرآن من تشريع ، وهى تقابل تلك الأبواب التى واجهها القرآن بالتشريع ، وقد تكاملت تلك الأحكام بعدة أصول وقواعد تشريعية كلية جعلت شريعة الاسلام وافية بحاجة المسلمين فى كل مكان وزمان وتلك الأحكام فى القرآن والسنة ، يمكن أن نجد فيها غروع القانون المعاصر على وجه أدق وأحكم وأعدل (١) .

١٣ - عصر الصحابة والتابعين :

من ربيع الأول سنة ١١ هـ بعد وفاة النبى ٦٣٢ م - حتى ربيع الأول ١٣٣ هـ - أكتوبر سنة ٧٤٩ م . هذا العصر مر فيه الفقه بمرحلتين :

(١) المرجع السابق ص ٢٩١ - ٢٩٤ .

المرحلة الأولى : من خلافة أبي بكر حتى تنازل الحسن بن علي عن الخلافة
من ربيع الأول سنة ١١ هـ - ٦٣٢ م حتى ربيع الآخر ٤١ هـ - ٦٦١ م .

فقد امتد الاسلام شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في هذه الفترة حيث
فتح الله على المسلمين العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا وغيرها وكانت لكل
من هذه البلاد حضارات وعوائد وأعراف ، بل وقوانين ، وكان لاختلاط العرب
المسلمين بأهالي هذه البلاد ، أثره في نواح شتى ، لاسيما بعد أن كثرت
الحوادث والواقعات التي تتطلب أحكاما لها ، وبرزت مشاكل في حاجة الى
حلول ، لأن ما أثر عن رسول الله من أحكام وقضاء ، أصبح في حيزه النصي
غير واف بجديد الحوادث والمعاملات ، التي تتزايد ، فكان لهذا أثر كبير في
نمو الفقه وقد ساعد على هذا النمو هجرة الكثير من الصحابة بعد عهد عمر بن
الخطاب الى البلاد والأقطار التي فتحتها المسلمون ونزحوا اليها ، وتبع هذا
شيوع التحديث عن رسول الله ، والأخذ في التحقق في فهم القرآن ، وفي
استنباط الأحكام التي يشعرون بالحاجة اليها منه ، ومما يروونه صحيحا من
حديث الرسول وقد كان لهذه العوامل أثر كبير في الفقه وفي ظهور الاجتهاد
والمجتهدين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكانت طريقة الاجتهاد في صدر هذه الفترة ما نقل من أن الخليفة
الأول ، أبا بكر رضى الله عنه كان ، اذا سئل عن شيء أو جاءه خصوم في قضية
من القضايا نظر أولا : في القرآن فان وجد فيه حكم الواقعة المطلوب معرفة
حكم الله فيها قضى به ، فان لم يجد ، لجأ الى ما يعرفه من سنة رسول الله ،
فان وجد قضى به ، واذا لم يجد ما يمتغيه في القرآن ولا في السنة المعلومة له ،
لجأ الى الصحابة ، فان وجد عند أحدهم فيما عرض له شيئا عن الرسول
قضى به ، وان لم يجد ، جمع خيار الناس وأهل الرأي والعلم ، فاستشارهم ،
ثم يقضى بما يجمعون عليه وكذلك كان صنيع الخليفة الثاني عمر ، غير انه كان
يتحرى رأى أبي بكر وعمله ، ان كان قد سبق له حكم في ذات الحادثة ،
فان لم يكن ، أخذ بما يجمع عليه أهل العلم والرأي من الصحابة (١) ولئن كانت
قد صدرت من أبي بكر وعمر تنبيهات الى الأصحاب ، بالكف عن التحديث عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا أن ذلك لا يعنى عدم اعتمادها على السنة
دليلا وانما كان خشية اشتغال الصحابة ، بالحديث والاعراض عن القرآن .

يدل لذلك أن الخليفين الأول والثاني قد رجعا الى السنة في الكثير من
الحوادث من هذا ما يل :

(١) أعلام الموقعين ج ١ ص ٥١ ، ٧٠ والروض النضير للصنعاني ج ٣ ص ٤٣٤ و ٤٣٥ ،
وحجة الله البالغة للدعوى ج ١ ص ١٤٩ .

جاءت جدة تسأل أبا بكر القضاء لها بميراثها ، فقال : لا أعلم لك شيئا في كتاب الله ، ولا أعلم أن رسول الله ذكر لك شيئا ، ولكن سأسأل الناس ، لعل عند أحد منهم علما بذلك ، فقام المغيرة بن شعبه فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس ، فطلب أبو بكر من يعلم ذلك غيره ، فصدقه محمد بن مسلمة ، فقضى أبو بكر للجدة بهذا القدر ميراثا

وكذلك كان من عمر فقد روى هشام عن أبيه المغيرة بن شعبه أن عمر استشار الناس في سقط المرأة اذ نزل بتعد من أحد ، فقال المغيرة بن شعبه ، قضى فيه رسول الله بغرة (١) ، فطلب عمر معه شاهدا ، فكان محمد بن مسلمة أيضا شاهده ، بأن هذا هو قضاء الرسول ، فقضى عمر به (٢) .

١٤ - الاجتهاد في هذه المرحلة :

كان التشدد في الحديث ، للتثبت فيما يروى عن الرسول ، من سمات هذه الفترة ، وكان له قيمته وأثره في تكوين الفقه ، حيث كان من العوامل التي أدت الى الأخذ بالرأى ، بطريق الاجتهاد من القرآن ومن السنة الثابتة .

وبهذا ظهر مصدر جديد من مصادر الفقه ، هو استعمال الرأى بصورة بارزة في استخراج الأحكام للحوادث الجديدة ، وظهور الاجماع ، كدليل ومصدر للتشريع حسبما كان صنيع أبي بكر وعمر ، وارتفاع هذا الدليل الى مرتبة القرآن والسنة ولعلنا حين نتصفح كتب السنة والفقه نرى فيها العديد من المثل على ما كان من اجتهاد الخلفاء الراشدين في هذه الحقبة التشريعية من هذا العصر :

١ - مسألة من مسائل الميراث تواجه أبا بكر ، تلك هي ميراث الجد مع الاخوة ، فيرى فيها ان الجد يحجب الاخوة فلا يرثون معه ، كما لا يرثون مع الأب بنص الكتاب والسنة ، لكن عمر يختلف معه ويرى أن الجد ليس أبا في الحقيقة ، فهو اذا ، لا يحجب الاخوة ، بل لهم معه نصيب في التركة .

وهذا خلاف من صميم الفقه ولكل وجهة فقد استدلل لأبي بكر بقول الله سبحانه حكاية عن يوسف عليه السلام : (٣) واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب) مع أن يعقوب هو وحده الذي كان الأب أما ابراهيم واسحاق فقد كانا جدين ، وأما وجهة عمر فقد نظر الى الحقيقة والمجاز في الأب والجد .

(١) الغرة - ثلث الدية الشرعية .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ٣ و ٨ .

(٣) من الآية ٣٨ سورة يوسف .

٢ - معروف أنه يحرم على المطلقة ذات العدة التزوج بغير مطلقها الا بعد انقضاء مدة العدة ، لكن امرأة ، فعلت ذلك في عهد عمر ، فأمر بالتفريق بينهما وضرب الزوج بعصاة ، وقال : أيما امرأة تكحت في عدتها فاذا كان زوجها الذي تزوجها لم يدخل بها فرق بينهما ، واعتدت عدتها من الأول ، ثم كان الثاني خاطباً من الخطاب وان كان قد دخل بها فرق بينهما ، ثم اعتدت بقية عدتها من الأول ، ثم اعتدت عدتها من الآخر ، ثم لم ينكحها أبداً .

لكن علي بن أبي طالب ، خالف عمر فيما ذهب اليه من تحريم زواج هذه المطلقة من الذي تزوجها في عدتها ورأى أن هذا الزوج ، له أن يتزوج بها ان شاء بعد ان تتم عدتها من الأول (١) .

وواضح أنه ليس في القرآن ولا في السنة ما يشهد لأحد الرأيين ، غير أن البادي ان عمر ارتأى رأيه هذا زجراً عن مخالفة أمر الله وسداً لباب الفساد على حين تمسك على بأن تحريم هذه المطلقة على من تزوجها في العدة أبداً ليس له سند في القرآن ولا في السنة ، وأن الأصول العامة فيهما تبيح له الزواج منها متى انقضت عدتها من مطلقها الأول .

٣ - اختلف الصحابة في تشريك الأخوة الأشقاء مع الأخوة لأم في الميراث اذا استغرقت الفروض جميع التركة ، فقَالَ علي وابن مسعود وابن عباس لا ميراث للأشقاء ، لأنهم عصبية ، والعصبية لهم الباقي بعد استيفاء أنصبة أصحاب الفروض ، وحيث استغرقت الفروض جميع التركة فلا شيء للعاصب عملاً بظاهر نصوص الكتاب والسنة ، وجرى عمر بن الخطاب على هذا الرأي أولاً فقضى باسقاط الأخوة الأشقاء ولم يشركهم مع الأخوة لأم ، ثم رجع عن ذلك ، وقضى باشتراك الأخوة الأشقاء مع الأخوة لأم في الثلث يقسم بينهم بالسوية لا فرق بين الذكر والأنثى ، باعتبارهم جميعاً أولاد أم ، ووافقه على هذا زيد بن ثابت وجمع من الصحابة .

٤ - كان عمر يرى عدم التسوية بين أصابع اليد في الدية ، لاختلافها بحسب تفاوت منافعها وقوتها ، فقضى في الإبهام بثلاث عشرة من الإبل وفي الخنصر بست فقط ، وكان ذلك اجتهداً منه لعدم علمه بالحديث الوارد في دية الأصابع ، فلما بلغه الحديث القائل (٢) (في كل أصبع عشر من الإبل) رجع عما قضى به أولاً .

٥ - ومن اجتهادات الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - البارزة في هذا العصر وفقهه منعه عن الأشخاص المؤلفة قلوبهم الموجودين في عهده ما كانوا

(١) تاريخ التشريع للخضرى ص ١١٩ .

(٢) الترمذى ج ٦ ص ١٦٦ .

يتناولونه عطاء راتباً من بيت المال ، مع أن سهم المؤلف قلوبهم في العطاء مقرر بنص القرآن وقد كان هؤلاء الأشخاص يأخذونه بهذا العنوان منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد أبي بكر .

لكن عمر نظر الى علة النص لا الى ظاهره ، فقد كانت علة تأليفهم ، اتقاء شرهم ، لما كان الاسلام في حاجة الى من يساند المسلمين ويقف معهم ، فلما قوى المسلمون ، زال الداعي لاعطاء أولئك المؤلف ، والقرآن لم يوجب اعطاء أشخاص بأعيانهم وأسمائهم من هذا السهم ، فكان صنيع عمر أن حبس العطاء عن أولئك الأشخاص دون أن يمس المبدأ أو يبطل أو يعطل نص القرآن وفقط زالت علة تأليف أشخاص بأسمائهم ولم يعد المسلمون في حاجة الى شراء تأييدهم بالمال .

واذا كان المبدأ الذي قرره القرآن قائماً ، وما يزال ، فاذا دعت حاجة الأمة في زمن من الأزمان أو في مكان آخر الى تأليف القلوب أو تاليف القوى لدفع عدو أو ترغيب في مؤازرة المسلمين في المحافل الدولية ، فانه يجوز أن يعطى أولئك هؤلاء من هذا السهم ، كالتفقات التي تخصصها بعض الدول اليوم في ميزانيتها لأجل الدعاية السياسية ، أو للمعنات .

والى هذا يشير قول الامام أبي عبيد القاسم بن سلام في كتابه - الاموال - بمناسبة ما اشترطه النبي عليه الصلاة والسلام ، لبنى ثقيف أهل الطائف عند دخولهم في الاسلام مانصه .

(وفيه أنه شرط لهم شروطاً عند اسلامهم خاصة لهم دون الناس مثل تحريمه وادبهم ، وأن لا يدخله أحد يغلبهم عليه ، وأن لا يؤمر عليه الا بعضهم) .

وهذا مما قلت لك : ان الامام ناظر للاسلام وأهله ، فاذا خاف من عدو غلبة ، لا يقدر على دفعهم الا بعطية يردهم بها فعل ، كالذي صنع النبي صلى الله عليه وسلم بالأحزاب يوم الخندق . وكذلك لو أبوا أن يسلموا الا على شيء يجعل لهم ، وكان في اسلامهم عز للاسلام ، ولم يأمن معرتهم وبأسهم أعطاهم ليتألفهم به ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤلفة قلوبهم الى أن يرغبوا في الاسلام ، وتحسن فيه نيتهم . وانما يجوز من هذا ما لم يكن فيه نقض للكتاب ولا للسنة ، ويبين ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لهم فيما أعطاهم تحليل الربا ، ألا تراه قد شرط عليهم أن لهم رهوس أموالهم ؟ (١) .

(١) الاموال لأبي عبيد ج ١ ص ١٩٣ و ١٩٤ .

٦ - ولعل اجتهاد عمر كان أبرز وأبعد أثرا في بناء الدولة حين اختلف مع الصحابة في قسمة الأراضي التي فتحها الله على المسلمين ، هل تكون للمحاربين المجاهدين وحدهم ؟

أو تترك لأهلها مع وضع الخراج عليهم لينفق على المسلمين عامة طوال الأزمان فقال معارضوه الذين يقولون بقسمة هذه الأراضي على المحاربين ، كيف يقف ما أفاء الله عليهم بأسسلافهم على قوم لم يحضروا الحرب ثم على أبنائهم وذرياتهم أيضا من بعد وقال عبد الرحمن بن عوف في توجيه هذا الرأي : ما الأرض وملاكها الا مما أفاء الله على الفاتحين ، يريد قسمتها حسب آية (١) الأنفال :

ولكن عمر استمسك بآيات (٢) من سورة الحشر ، ورأى ألا تقسم الأرض بين الفاتحين ، بل تبقى خراجية ، ينتفعون بها هم ومن يجيء بعدهم من المسلمين وتكون موردا للدولة تنفق منه على الجيوش وعلى الفقراء والمحتاجين . ولما اشتد الخلاف ، استشار عمر المهاجرين الأولين ، فاختلفوا فيما بينهم ، فعمد الى تحكيم عشرة من الأنصار ، تحميلا منه لهم لأمانة المشورة والحكم ، فلما انعقد جمعهم وتداولوا في الأمر ، واستمع هؤلاء الحكماء الى حجة كل فريق كان حكمهم بقول عمر واجتهاده ، فنزل الجميع على ما قضى به رضى الله عنه وقد كان يقول في هذا :

(لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية الا قسمتها ، كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر) (٣) .

٧ - ومما ثار فيه الخلاف والاجتهاد ، ويبرز لنا صورة من اجتهاد الخليفة الثالث - عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه - حكم ضوال الابل . فقد روى مالك في الموطأ ، وغيره : ان ضوال الابل كانت تترك في عهد عمر بن الخطاب مرسله تتناتج ، لا يمسها أحد حتى يجدها صاحبها ، وذلك لحديث البخارى ومسلم عن زيد بن خالد الجهني . قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال (اعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة ، فان جاء صاحبها ، والا فشأنك بها . قال : فضالة الغنم ؟ قال : هي لك

(١) الآية ٤١ .

(٢) الآيات ٨ و ٩ و ١٠ .

(٣) كتاب الاموال لأبى عبيد ص ٥٦ وما بعدها وتاريخ التشريع للخضرى ص ١٢٤ ومسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٢٧٦ وبداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣٢٤ ورد المختار لابن عابدين ج ٣ باب المغنم وقسمته فقد شرحت هذه القضية وما تبادله المؤتمرون فيها ، مما يعطى صورة واضحة عن الاجتهاد وحسن المناظرة وصولا الى الحق ثم الرضوخ له .

أو لأخيك أو للذئب ، قال : فضالة الأبل ؟ • قال : مالك ولها • معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها (١) •

فقد رأى عثمان رضي الله عنه في خلافته الأبدى تمتد الى ضوال الأبل ، فلا يصل بعضها الى أصحابها ، فاجتهد أخذًا بالمصالح المرسله ، ومنع الناس من أخذ الأبل الضالة من أصحابها وعين لها راعيا يجمعها ويعرفها ، فان لم يجد صاحبها ، باعها وحفظ الثمن له حتى يجيء (٢) •

هذا بينما كان يرى عمر في خلافته ، التمسك بما جاء عن رسول الله في شأن ضوال الأبل لأن الناس في عهده كانوا من الورع بحيث لا تمتد أيديهم الى ماليس لهم ، أما عثمان ، فقد رأى تغير أحوال الناس ورقة دينهم وضمايرهم بمضى الزمن ، فاجتهد ، وانتهى به اجتهاده الى حفظ هذه الدواب الضالة ، بمن يقوم عليها ثم يبيعها اذا لم يستدل عليها مالكيها وحفظ ثمنها حتى يجيء ، عملا بالمصلحة العامة المرسله التي لا دليل عليها من النص ، لحير الناس ، والحفاظ على أموالهم ، مع وجود نص مخالف في الظاهر ، من حيث هذا - العارض الذي خاف معه على الأبل الضالة ، فقد اختلف به الأمر ، ولم تعد الحالة الثانية التي اجتهد فيها من جنس الحالة الاولى التي ورد فيها الحديث ومن هذه المثل وأشباهاها ، مما حفلت به كتب السنة - وغيرها يظهر أن الاختلاف في الآراء الفقهية ، الذي ثار بين الصحابة يمكن اجمال أسبابه فيما يلي :

١٥ - أسباب الاختلاف الفقهي بين الصحابة :

١ - الاختلاف في فهم القرآن من حيث اللغة اما بسبب احتمال الحقيقة والمجاز كما في اطلاق لفظ الأب على الجد ، واما بسبب صلاحية اللفظ لغة لأكثر من معنى كما في لفظ (القروء) في آية (٣) عدة المطلقات ، اذ لفظ القروء ، اما بمعنى الحيض أو معنى الطهر •

وقد يكون الاختلاف بسبب تعارض النصوص ، كما في آيتي (٤) عدة الوفاء وعدة الحامل (٥) وقد يكون بسبب احتمال التركيب لوجهين كما في آية

(١) موطا مالك ج ٢ ص ١٢٨ ، السنن الكبرى للبيهقي ج ٦ ص ١٨٥ ونيل الأوطار للشوكاني ج ٥ ص ٣٣٨ • المغاص هو الوعاء الذي توجد فيه اللقطة والوكاء هو رباط هذا الوعاء ، والمراد بالسقاء والحذاء في الأبل لها لا تحتاج لاحد يسقيها لما تختزنه من الماء في جوفها وان خفها كالخذاء تقوى به على السير وارتياح أماكن الرعى والماء •

(٢) الموطا ج ٢ ص ١٢٨ •

(٣) الآية ٢٢٨ سورة البقرة

(٤) الآية ٢٣٤ سورة البقرة

(٥) الآية ٤ سورة الطلاق •

ثانيا : اشتهر عن الحنابلة التشدد في أمر الطهارة والنجاسة ، كالرواية المروية عن أحمد في نجاسة سؤر الكلب وغسل الاناء سبعا والتامنة بالتراب . وفي غير نجاسة الكلب ايضا يجرى التطهر بالغسل سبعا في احدى الروايات . بخلاف المذاهب الثلاثة . وتشدد بعض الحنابلة في القول بنجاسة الأواني التي يستعملها المجوس وعبداء الأوثان ، لا تستعمل قبل تطهيرها بخلاف أواني أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فانها تستعمل من غير حاجة الى التطهير ، وما روى عن الامام أحمد من وجوب غسل الايدي ، عند القيام من النوم بالليل للحديث الوارد في ذلك ، ورواية أخرى أن الغسل في هذه الحالة مستحب وهي موافقة لرأى جمهور الفقهاء .

ومن الأمثلة على تشددهم في الطهارة اندرادهم بالقول بوجوب المضمضة والاستنشاق في الوضوء ، بينما قال الفقهاء الثلاثة بأن هذا من السنن لا من الفرائض .

ومن الأمثلة ما نقل عن الامام احمد من فتواه بأن أكل لحم الابل ناقض للوضوء .

هذه بعض الأمثلة التي جعلت بعض الناس من الشعوب الاسلامية يصنفون هذا المذهب بالتشدد ، ويطلقون على كل متحر في دينه متشديدا أو حنبليا .

هذا وقد قام على نشر هذا المذهب نلاميذ الامام ، والقريبو العهد بزمنه ومن أشهرهم : ولده صالح وعبد الله ، وكان حفيبا بتربيتهما وتهذيبهما على طريقته . بالأسوة الحسنة ، وتلقيا عنه الفقه والحديث وقد اشتهر صالح بنقل رسائل الفقه عن أبيه ، واشتهر عبد الله برواية الحديث عنه ، وتوفي صالح عام ٢٦٦ هـ . وعبد الله عام ٢٩٠ هـ . والأثرم أبو بكر أحمد بن محمد بن هاني الخرساني البغدادي الذي مات عام ٢٧٣ هـ وهو من الفقهاء الحفاظ الأعلام (وله كتاب السنن في الفقه على مذهب أحمد وشواهد من الحديث) .

وأحمد بن محمد بن الحجاج المروزي المتوفى عام ٢٧٥ هـ وكان من أجل أصحاب الامام أحمد ، واماما في الفقه والحديث كثير التصانيف .

وابراهيم الحربي ، أبو اسحاق المتوفى عام ٢٨٥ هـ وقد تفقه على الامام أحمد وصار أحد الأئمة الاعلام ويظهر من تأليفه تبحره في الحديث .

وأبو القاسم عمر بن أبي علي الحسين الخرقى البغدادي المتوفى عام ٣٢٤ هـ . وكان من أعيان الحنابلة ، وله في المذهب كتب كثيرة منها مختصره للبادئين وعرف بالخرقى نسبة الى بيع الثياب والخرق (١) .

(١) الفقه الاسلامي للدكتور المرحوم محمد يوسف موسى ص ١٥٥ ، ١٥٦ وطبقات ابن أبي يعلى بالصعيف ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ١٢٦ .

ومن كتب هذا المذهب كتاب المغنى لابن قدامة فى اثنى عشر مجلدا وهو شرح على مختصر الخرقى ، والمغنى من أجل الكتب الفقهية التى حوت خلافاً للفقهاء . ويوجد غيره كالأقناع والمنع وشروحهما ، والفروع ونصحيحها ، والعدة شرح العدة ، ودليل الطالب ، والروض المربع ، وغيرها .

وقد جاء بعد ذلك العالم الأجل ابن تيمية صاحب الرسائل والفتاوى المشهورة والمتوفى عام ٧٢٨ هـ وتلميذه ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ ، وقد كان لهما أثر ملحوظ فى تجديد فقه هذا المذهب ، وتطوره ونشره فى الآفاق .

ثم جاء مؤخر محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ وبفضله صار مذهب الحنابلة هو المذهب الرسمى للمملكة السعودية ، فزاده ذلك قدرة على البقاء ، وعلى مقتضى أحكامه تسيير هذه الدولة فى أقضيئتها وعباداتها ، وتطبيق أحكام الحدود والقصاص تطبيقاً صحيحاً ، وأحكام المعاملات المالية مستمدة كلها من ذلك المذهب الجليل مجدداً بمعرفة الفقيه محمد بن عبد الوهاب ، ولعل أهم الآثار البارزة لهذا استقرار الأمن والأمان فى أنحاء هذه المملكة ، مما يعطى مثلاً واقعياً لأثر تطبيق شريعة الاسلام كنظام قانونى . هذه كلمات وجيزة عن مذاهب الفقه الاسلامى الأربعة من مذاهب أهل السنة والجماعة اتبعها المسلمون منذ نشأتها وانتشرت ، وكان فقهها قانوناً لشعوب المسلمين فى فترات متفاوتة لا سيما فقه مذهبى أبى حنيفة ، ومالك .

ولقد نشأ مقارناً لبعض تلك المذاهب مذاهب أخرى كالشيعة ، والخوارج والظاهرية ، ومذاهب اندثرت بعد أن عاشت فترة ، قصرت أو طالت ، ولكن ما تزال أقوال لفقهاؤها تروى فى كتب الخلافات أو الفقه المقارن واستكمالاً لمسيرة الفقه الاسلامى فى هذا الدور المتسم بالنضج والكمال نضيف فيما يلى ، نبذة تعرف ببعض هذه المذاهب من حيث الفقه وأثرها فى نموه ونضوجه واثرائه .

٥٥ - مذهب الشيعة

١ - الشيعة :

جرت عبارات من يتكلم فى أصول الدين أو فروعه - الفقه - على إطلاق لفظ الشيعة على من شايعوا على بن أبى طالب ، وقالوا انه امام المسلمين وخليفته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظ الشيعة فى أصل اللغة يطلق على الأنباع والمحبين والأنصار ، والواحد منهم ، شيعى ، ويقال - تشيع الرجل ، أى ادعى دعوة الشيعة .

وقد اتفق هؤلاء على أن الامام بعد على ابنه الحسن ، وبعده الحسين ، وهو الامام الثالث ثم اختلفوا فىمن يكون الخليفة امام المسلمين من بعد الحسين رضى الله تعالى عنه : فذهب فريق منهم الى أن الامام الرابع هو محمد بن على الشهير بابن (١) الحنفية ، وقد سمي هؤلاء باسم الكيسانية ، نسبة الى كيسان مولى

(١) اشتهر بهذا لأن أمه كانت من بنى حنيفة إحدى قبائل العرب .

محمد بن الحنفية ، وقالوا ان الامام بعد محمد ابنه أبو هاشم ، ولما أحس أبو هاشم بدنو أجله ، لم ير أمامه من أهل بيته أحدا غير ابراهيم بن علي ابن عبد الله بن عباس ، فأسند الأمر اليه من بعده ، ولما قتل ابراهيم قام من بعده أخوه أبو عبد الله السفاح ، أول خلفاء ، بنى العباس ، ومن هذا الطريق جاءت الخلافة الى بنى العباس .

هذا بينما ذهب الفريق الأكبر من الشيعة الى أن الامام الرابع هو : علي بن الحسين الشهير بزين العابدين ، ثم انقسم هذا الفريق الى فرقتين .

الأولى : وقد جعلت امامهم الخامس بعد زين العابدين ، ابنه زيدا ، وهؤلاء هم الزيدية ، ويسكن أكثرهم في اليمن .

والفرقة الثانية : جعلت امامهم الخامس بعد علي زين العابدين ابنه محمدا الملقب بالباقر ، ثم جعلوا الامام السادس ابنه جعفر الصادق ، ثم انقسم هؤلاء الى طائفتين .

الأولى : جعلت الامام بعد جعفر ابنه اسماعيل ، الذي مات في حياة أبيه جعفر لتتوصل بذلك الى جعل الامامة في أولاد اسماعيل ، وهذه الطائفة سميت بالاسماعيلية ، وقد انقلبت ضد الاسلام ، وكانت خطرا عليه من كل أعدائه ، وهم المسمون بالباطنية ، وكان منهم الدولة الفاطمية التي أنشأت مدينة القاهرة سنة ٣٥٩ هـ وحكموا مصر نحو مائتي سنة ، قادمين من المغرب ، الذين كانوا عليه متقلبين نحو السبعين عاما ، والاسماعيلية الآن فريقان أحدهما يتبع أغا خان ، الشهير . ثم أولاده من بعده ، والثاني : يسمى : بالبهرة وكلاهما يقيمان في الهند ، ويقال ان عددهم لا يقل عن أربعة ملايين .

والطائفة الثانية من أتباع جعفر الصادق جعلت الامام من بعده ابنه موسى الكاظم ، وهم الامامية ويطلق عليهم أيضا اسم الاثنا عشرية لقولهم : ان الأئمة المعصومين من آل البيت اثنا عشر اماما ، كما يطلق عليهم اسم الجعفرية ، نسبة الى جعفر الصادق .

وموسى الكاظم هو الامام السابع عندهم ، وبعده ابنه علي الرضا ، وهو الامام الثامن ، وبعده ابنه محمد الجواد ، وهو الامام التاسع ، ثم علي الهادي ابن محمد الجواد ، وهو الامام العاشر وبعد هذا ابنه الحسن العسكري ، وهو الامام الحادي عشر ، وبعد الحسن ابنه محمد المهدي ، وهو الامام الثاني عشر ، وقالوا انه قد اختفى بمدينة (سر من رأى) التي عرفت فيما بعد بسامرا وكان عمره وقت اختفائه تسع سنين ، وكان هذا في سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ - ٨٧٨ م) وما تزال هذه الطائفة تنتظر خروجه الى الآن ليملأ الأرض عدلا ، وينقذها من الظلم فهو عندهم الامام المنتظر .

هذا ويوجد في الشيعة غلاة خرجوا بعقيدتهم من دائرة الاسلام ، وهؤلاء
غير ملتفت اليهم حتى من جمهور الشيعة ، لا سيما الامامية منهم (١) .

٢ - فقه الشيعة :

من هذه اللوحة السريعة عن الشيعة يتضح ان طائفتي الزيدية والامامية
أو الجعفرية هما أهم طوائف هذه الفئة أو الحزب السياسي الذي نشأ وانتشر
اثر مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه . والذي يهم في موضوعنا هو التلميح
الى ما لكل طائفة من هاتين الطائفتين من فقه .

١ - الزيدية : هم في جملتهم أقرب لجماعة أهل السنة ، فهم في السياسة
لا يتبرؤن من أبي بكر وعمر ، ولا يلعنونها ، ولا يقولون بعصمة الأئمة ، ولا
باختلافهم وقد ساقوا الامامة في أولاد علي من فاطمة بنت الرسول صلى الله
عليه وسلم ، ولم يجوزوا تبوت امامة في غيرهم ، الا أنهم أجازوا أن يكون
كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج للامامة ، يكون اماما واجب الطاعة ،
سواء من أولاد الحسن ، أو من أولاد الحسين . وهم في الفقه يشترطون الاجتهاد
في أئمتهم ، فلذلك كسر فيهم الاجتهاد ، وكثرت آراؤهم في الفقه ، ونبغ
منهم كثيرون من المجتهدين .

ومن أهم ما بين أيدينا من كتبهم ، كتاب المجموع ، جمعت فيه الأحاديث
التي رويت عن الامام زيد وفتاويه ، مرتبة ترتيب الفقه ، وقد قيل : انه أول
كتاب جمع في الفقه على مذهب الزيدية ، والروايات فيه كلها عن زيد عن آبائه
من الأئمة ، ولم يأخذ هذا الفقه بالحديث المروى عن صحابي غير علي ، حيث
لا ثقة للزيدية ، الا في زيد ، وما فوقه الى جده علي ، ونفوا الثقة من غيره
ممن هم في درجته من الأئمة العلويين (٢) وللزيدية كتاب هام آخر هو :
كتاب البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار للامام أحمد بن يحيى بن
المرتضى المتوفى عام ٨٤٠ هـ في أربعة أجزاء ، استوعب فيه اختلاف الفقهاء
في مسائل الفقه .

ومن هذين الكتابين يمكن التقرير بأن الفقه الزيدي لا يختلف كثيرا عن
الفقه الذي نعرفه في مذاهب أهل السنة ، مع ميل الى فقه أهل العراق بخاصة ،
اذ كان بالعراق مهد التشيع ، والشيعة بوجه عام .

ومما تحسن الإشارة اليه أن الزيدية يخالفون أهل السنة في بعض
مسائل مشهورة منها : عدم اجازتهم المسح على الخفين ، وتحريمهم أكل ما ذبحه

(١) مقدمة ابن خلدون في الفصل السابع والعشرين ص ١٩٦ وما بعدها ط المكتبة التجارية
بالقاهرة .

(٢) شحي الاسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين ج ٣ ص ٢٧٦ و ٢٧٧ .

غير المسلم ، وتحريم زواج الكتابيات ، ولم يقولوا ، كالشيعة الامامية بإباحة زواج المتعة كما لا يقولون ، منهم ، بالتقية ، ولا يتبرأون من الشيخين أبي بكر وعمر ، ومن ثم أجازوا امامة المفضل مع وجود الفاضل (١) .

٢ - الشيعة الامامية والجعفرية :

تعتمد هذه الطائفة في الفقه على الكتاب والسنة كأصلين عامين ، شأنهم في ذلك كأهل السنة . لكنهم اختلفوا مع هؤلاء في الأصول والفروع ، وأهم منشأ للاختلاف ما يلي :

أولا : أن ما كان عند أهل السنة والجماعة من أصول وفروع مخالفة لتعاليم الشيعة وعقائدها يرفض رفضا باتا ، ويحل محله أصول وفروع تتمشى مع العقائد الشيعية ، كعصمة الأئمة الاثنى عشر وما يترتب على ذلك من استبعاد خطئهم في الحكم والأحكام .

الثاني : أنهم بعد أن النزموا : ألا يأخذوا حديثا أو رأيا الا عن امام من أئمة الشيعة وعالم شيعي وراو شيعي اضطروا أن يبنوا احكامهم على الكتاب بالتفسير الشيعي فقط ، وأن يرفضوا ما روى عن غيرهم ، وهذا يستتبع ، حتما ، ضيقا في التشريع من جهة ، ومخالفة لأهل السنة والجماعة في بعض المسائل من جهة أخرى .

الثالث : أن الشيعة أنكروا الاجماع العام كأصل من أصول التشريع ، بعدا عن أن يسلمهم الى الأخذ بأقوال غيرهم ، وأنكروا القياس ، لأنه رأى ، والدين لا يؤخذ بالرأى ، وانما يؤخذ عن الله ورسوله ، وعن الأئمة المعصومين . وقد استلزم قولهم بعصمة الأئمة أن يأخذوا أقوالهم كنصوص من قبل الشارع لا تحتل خلافا .

ومن أهم ما اختلفت فيه الشيعة مع أهل السنة والجماعة ، اباحتهم نكاح المتعة للآن وتحريمهم الزواج من اليهوديات والنصرانيات ، واختلافهم كذلك في نظام المواريث ، فهم ينكرون العول الذي قال به عمر وينحون منحى ابن عباس في عدم العول ويقدمون بعض الورثة على بعض ، فالزوجة والأبوان يقدمون على البننتين في أخذ الأنصبة من التركة ، فلو أن المتوفى ترك زوجة وأبوين وبننتين ، كان للزوجة الثمن ثلاثة من أربع عشرين ، لكل واحد من الأبوين السدس أربعة ويكون الباقي ١٣ هو نصيب البننتين ، حال أن أهل السنة يقولون بالعول في المسألة ، وهم أيضا يقدمون القرابة على العصبية . فاذا مات رجل عن بنت وابن ابن كانت التركة كلها للبنات لأنها أقرب . وأهل

(١) المرجع السابق ، والفقه الاسلامي للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٥٨ و ١٥٩ .

السنة يعطون البنات النصف فرضا ، وابن الابن النصف الباقي تعصيبا وهم يورثون ابن العم الشقيق ويتركون العم لأب ، ويقولون ان الانبياء تورث ولا يورثون النساء من العقار ولا من الأرض بل من المال المنقول فقط .

ويزيدون في صيغ الأذان بعد عبارة (حى على الفلاح) عبارة (حى على خير العمل) ويقولون بالمسح على الرجلين فى الوضوء دون غسلهما .

وامام هذه الطائفة هو جعفر الصادق كما تقدم ، وقد روى عنه اجاباته عن أربعمائة مسألة فى كتاب سموه (الأصول) ومن كتبهم التى قامت على هذه الأصول :

كتاب الكافى لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى شيخ الشيعة المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى ، محمد بن على ابن موسى بن بابويه القمى الملقب بالصدوق وكتاب التهذيب ، وكتاب الاستبصار ، كلاهما لمحمد بن الحسن بن على الطوسى الملقب بشيخ الطائفة (١) .

ولقد كان اختلاف أهل السنة والشيعة مبنيًا فى الغالب على :

١ - اختلافهم فى فهم القرآن ، وللشيعة تأويلات فى بعض الآيات اختصوا بها .

٢ - وعلى أحاديث يروونها الشيعة عن أئمتهم لا يعترف بها أهل السنة (٢)

٥٦ - الخوارج :

هذه طائفة كانت فى أول نشأتها قد نضمت على الخليفة الثالث ، عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، أشياء منها : ايشارة آله بالولايات ، فخرجت عليه ، وانتهى الأمر بقتله ، ثم انضموا الى من بايعوا على بن أبى طالب بالخلافة ، ثم نعموا عليه ارتضاءه تحكيم أبى موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص ، مع أنهم هم الذين أشاروا عليه بقبول التحكيم ، ثم انتقضوا عليه بعد ذلك ، وعاثوا فى الأرض فسادا ، فقاتلهم ، حتى قتل منهم خلق كثير ، وفر من بقى منهم ، ومن بعد مقتل على ، توالى خروجهم على الخلفاء من بنى أمية ، ثم من بنى العباسى وواقعاتهم مروية مشهورة فى التاريخ وقد انقسموا فرقا كثيرة ، ونجحوا فى بلاد المغرب ، وانتشر مذهبهم بين قبائل البربر ، وانحاز بعضهم الى الجهة الشرقية الجنوبية من جزيرة العرب .

وجماع مذهبهم أنهم يرون أن الخلافة الاسلامية موكول أمرها الى الأمة ،

(١) المرجع السابق ص ٢٥٤ وما بعدها ، وكتاب الامام جعفر الصادق للمستشار عبد الحليم الجندى ط المجلس الاعلى للثئون الاسلامية ص ٢٠٧ و ٢٠٨ ، والفقه الاسلامى لمحمد يوسف موسى ص ١٦٢ الى ص ١٧٠ عن الامامية والزيدية وكتب فقههم وفقهائهم .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٦٧ .

تختار خليفته من أى بيت كان ، متى توافرت فيه شروط تولي الخلافة ، وهم فى هذا يخالفون الشيعة ، الذين يرون ان أولى الناس بالخلافة هم أهل البيت النبوى ، على وأولاده ، وهم يرون قتال الخليفة اذا لم يكن عاملا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اذ لا تجب طاعته اذا خرج عن الالتزام بذلك ولذلك كانوا راضين عن أبى بكر وعمر ، ناعمين على عثمان لمخالفة طريق سلفيه ، وعلى على رضاهم بالتحكيم ، وعلى معاوية استيلاءه على الخلافة بالقوة بدون اختيار وانتخاب من المسلمين ، ومن أجل هذا كانوا يستبشرون قتال خلفاء المسلمين . لمخالفتهم أمر الله سبحانه وتعالى حسب زعمهم .

وتوجد الآن منهم طائفة تسمى بالاباضية (١) ، وهم متفرون فى أمانة مسقط بسلطنة عمان ، وفى بلاد زنجبار بشرق أفريقيا ، وجبال وبلاد طرابلس بليبيا وجزيرة جربة بتونس ، وجنوب الجزائر ، والمؤرخون يعتبرون هذه الطائفة من الخوارج ، لكنهم أنفسهم ، ينكرون ذلك .

فقه الاباضية :

لا يؤخذ عليه مخالفة للكتاب ، ولا للسنة ، الا فى بعض أمور للنظر فيها مجال وهم متشددون فى رواية الحديث ، متحرون فيه أشد التحري ، وقد اقتدوا فى الفقه بالامام : جابر بن زيد ، صاحب عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وبالامام الحسن البصرى ، امام أهل البصرة . ومن أشهر كتب هذه الطائفة فى الفقه : كتاب (٢) شرح النيل ، وشفاء العليل فى عشرة مجلدات -

هذا : وقد نسب اليهم التشدد فى بعض الأحكام العملية : منها ابطال الوضوء بالوشاية وبالعدوان ، وبالبنفس ، وبالقول الفاحش ، كما نسب اليهم القول بقطع يد السارق من الابط ، ووجوب الصلاة على الحائض فى حال حيضها ، وتكفير تارك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر مع قدرته ، فاذا لم يكن قادرا ، كان مرتكبا الكبيرة ، كما يرون ان الزواج لا يصح الا فيما بينهم ، ولم يرو عن هذه الطائفة من الخوارج فقه واسع منظم ولا نحو ذلك (٣) .

٥٧ - فقه المذهب الظاهرى :

(أ) امام هذا المذهب هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني ، اشتهر باسم داود الظاهرى ، لتمسكه بظاهر الكتاب والسنة ، ثم باجماع

(١) نسبة الى عبد الله بن أباض ، الذى كان معاصرا لعبد الملك بن مروان فى النصف الثانى من القرن الاول الهجرى .

(٢) مؤلفه محمد بن يوسف اطفيش .

(٣) كتاب شرح النيل فى الأبواب المشار اليها .

الصحابة ، ولا يعتمد بما وراء هذا من الأدلة ، ويرجع القياس الجلي والعلة المنصوصة الى النص باعتبار أن النص على العلة نص على الحكم فى جميع محالها ، ومع هذا فقد كان فقيها مجتهدا . حافظا من حفاظ الحديث صاحب مذهب مستقل ، بعد ان اتبع الامام الشافعى وتعصب له ، وقد انتهت اليه رئاسة العلم فى بغداد فى زمنه ، وقد عمل بمذهبه جمع كثير ، حتى قيل انه صار رابع مذهب فى المشرق بعد المذهب الشافعى والمالكي والحنفى . أما فى المغرب ، فقد اعتنقه وأعلى شأنه الفقيه على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، حيث عمل على نشره والدفاع عنه ، حتى اعتبر الامام الثانى له ، وله فيه عدة مؤلفات من أهمها كتابه المحلى فى الفقه ، والأحكام فى أصول الأحكام ، فى أصول الفقه ، وقد اضمحل المذهب من بعد حتى انقرض . تماما فى القرن الثامن وبقيت آثاره مروية فى الكتب التى تحكى الخلافات (١) .

(ب) سمات الفقه الظاهرى :

يجد الباحث فى هذا الفقه تضيقا على الناس ، خاصة فى المعاملات التى تجرى بينهم كل يوم ، فالظاهرية يرون أن كل عقد أو شرط لم يثبت بنص أو اجماع يكون غير صحيح ، مستدلين بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقد أفصح عن هذا ابن حزم فى تعليق على هذا الحديث بقوله : فصيح بهذا النص بطلان كل عقد عقده الإنسان والتزمه ، الا ما صح ان يكون عقدا جاء بالنص أو الاجماع بالزامه باسمه أو باباحة التزامه بعينه (٢) .

كما توجد لهذا المذهب آراء خالفت كل ما عليه جماهير فقهاء المذاهب المعروفة ومن هذا : أن الفقه الظاهرى يوجب نفقة الزوج المعسر على زوجته الموسرة ، لأنها ترثه فعليها النفقة بنص القرآن (٣)

والظاهرية وان استبعدوا العمل بالقياس ، فذلك من الوجهة النظرية فحسب ، لكنهم اضطروا عمليا للمقول به ، وان لم يسموه قياسا ، بل سموه دليلا ، لكن التسمية لا ترفع من الواقع شيئا (٤) .

تلك بعض مذاهب الفقه التى نشأت فى هذا العصر ، منها ما استمر واستقر بمضى الزمن ، ومنها ما لم يطل به المقام ، وقعد عن مسيرة الحياة بموت أهله ومشايخه ، ولكن هؤلاء وأولئك ، قد تركوا ثروة فقهية قامت على أسس راسخة ، تصلح مصدرا لنظام قانونى شامل ولو أن المشتغلين بالفقه والقانون .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٦ و ٤٤٧ وطبقات الشافعية لابن السبكي ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم ج ٥ ص ٣٢ .

(٣) المحلى لابن حزم ج ١٠ ص ٩٢ .

(٤) الأحكام السلطانية ص ٦٤ .

توافقوا على تجلية مبادئها ، وأحسنوا عرضها ، لوجدوا فيها الغناء عن كل جديد مستورد من شرق أو غرب فإن كل الشرائع الوضعية والأنظمة القانونية – كما قال العالمون بها – تلهت وتحت الخطى للنهضة بما قال به الفقه الاسلامي منذ قرون .

الدور الرابع :

٥٨ – دور توقف الاجتهاد وجموده :

من منتصف القرن الرابع الى ما قبل نهاية القرن الثالث عشر بقليل - بعد أن وصل الفقه الى ذروة النضج في الدور السابق ، انحدر رويدا الى الضعف والقصور حتى غلب التقليد على أهله ، وهذا الدور يشمل مرحلتين مختلفتين من وجوه كثيرة وان جمعت بينها سمة جمود الفقه : وتبدأ المرحلة الأولى من منتصف القرن الرابع الهجري ، وتنتهي بسقوط بغداد على يد هولاكو. في عام ٦٥٦ هـ . وتبدأ المرحلة الثانية من سقوط بغداد وتنتهي قبل نهاية القرن الثالث عشر بقليل .

المرحلة الأولى :

طأرت فيها على المسلمين من منتصف القرن الرابع الهجري نفريسا عدة عوامل ، سياسية وعقلية ، وخلقية ، واجتماعية . أثرت في كل مظهر من مظاهر نهضتهم ، وأحالت نشاطهم الفقهي والتشريعي الى فتور ، فماتت في العلماء روح الابتكار ، والاستقلال الفكري ، فلم يعودوا يرتسفون الفقه من المعين الذي لا يضرب ولا يخلق على مر الأيام ، معين الاسلام الخالد : القرآن والسنة ، بل رضوا بالتقليد ، وأخلدوا اليه وحسروا عقولهم في دوائر محدودة من فروع مذاهب الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأقرانهم وحرروا على أنفسهم الخروج عليها ، باذلين جهودهم في التعرف على ما حوته ألفاظ أئمتهم ، لا في نصوص الشارح ومبادئ العامة ، حتى بلغ من ركونهم الى أقوال الأئمة أن قال أبو الحسن الكوفي من علماء المذهب الحنفي : كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ . مع ثبوت نهى الأئمة عن هذا الجسود والتقليد (١) .

٥٩ – الأسباب التي أدت الى توقف حركة الاجتهاد وشيوع التقليد :

يمكن اجمال هذه الأسباب فيما يلي :

أولا : انقسام الدولة الاسلامية الى عدة ممالك متنافرة ، متصارعة ، استغلت

(١) تاريخ التشريع للخضري ص ٣٢٥ وأعلام الموقعين لابن القيم ج ٢ ص ٣٠١ و ٣٠٢ .

يالفتن ، وشغلت بتبديد وسائل القهر والغلبة ، فدب الانحلال العام وفترت
الهمم ، فى اكتساب العلوم والفنون ، وكان لهذا أثره فى توقف الحركة التشريعية
والفقهية .

ثانياً : كان لنمو الفقه فى الدور الثالث بعد نشوء مدارس به أن عنى تلاميذ
كل مدرسة بتأييد أصوله وفروعه والانتصار له بكل الوسائل ، فتارة باقامة
البراهين على صحة ما ذهبوا اليه وبطلان ما خالفه وتارة كان التأييد الاشادة
بزعمائهم ، وكل هذا قد شغل العلماء وجرفهم عن الأساس التشريعى للإسلام
وهو القرآن والسنة وأصبحوا لا يرجعون الى هذين المصدرين ، الا لالتماس
ما يؤيد مذهب الامام التابعين له ، حتى ولو بضرب من التعسف فى الفهم
والتأويل .

ثالثاً : أن الفتوى والاجتهاد قد تصدى لهما من لا يحسنهما ، فوقع
العبث بنصوص الشريعة وبحقوق الناس ومصالحهم ، وتبعاً لذلك ، تعددت
الفتاوى ، وتضاربت كما تعددت الأحكام فى الأقضية ، فاختلقت القضاة فى
الحادث الواحد وفى البلد الواحد ، وكل هذه المتناقضات تنسب الى الشريعة ،
عندئذ فزع العلماء فى أواخر القرن الرابع وحكموا باقفال باب الاجتهاد ،
وبتقييد المفتين والقضاة بأحكام الأئمة السابقين ، التى كانت قد دونت ، فكان
الانغلاق عليها الذى أدى الى الجمود وساعد على هذا ما فشا بين العلماء من
التحاسد والأناية ، حتى اذا ما طرق واحد منهم باب الاجتهاد فى جديد طارئ ،
شهر به أقرانه ، وسفهوا رأيه ، بالحق وبالباطل ، ومن ثم كان النقل عن
الفقهاء السابقين منجاة للمفتى والقاضى (١) .

على أن هذا الدور ، وإن خلا من الاجتهاد الفقهى على نمط ما كان سابقاً ،
فانه لم يخل عن نشاط تكميلى للمذاهب الفقهية ، فقد حفل هذا الدور بطائفة
من العلماء بذلت الجهد فى تنظيم المسائل الفقهية ، واستنباط علل الأحكام
التي وردت عن الأئمة المجتهدين .

٦٠ - جهود العلماء التشريعية فى هذا الدور :

بعد أن قصر فقهاء هذا العصر جهدهم على نصره مذاهب أئمتهم التى
آتبعوها ، تركزت جهودهم - على ما يظهر من تتبع النشاط العلمى آنذاك -
فيما يلى :

(أ) تعليل الأحكام :

اذ كان الأئمة المجتهدون لم يذكروا الكثير من علل الأحكام التى توصلوا

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٥ - ٣٥٧ .

الى استنباطها فانصرف أتباعهم الى البحث عن هذه العلل ، ليتمكنهم الافتاء في النوازل والواقعات ، التي لم يرد فيها أحكام للأئمة وهذا باستعمال القياس أو المصالح المرسلة وبذلك توسعوا في علم الفقه بعد أن كتب فيه الامام الشافعي رسالته الشهيرة .

(ب) الترجيح بين الأقوال المختلفة والمذاهب :

فقد حوت النقول عن أئمة المذاهب روايات مختلفة اما عن امام المذهب واما عن أصحابه وتلاميذه ، وتلك مهمة علمية تستلزم ممن يتصدى لها أن يكون على معرفة تامة بتراث المذهب وأصوله وطرقه في استخراج الأحكام من أدلتها حتى يمكنه الترجيح .

(ج) تنمية التراث الفقهي :

وذلك حيث عكف الفقهاء على ما تركه السابقون بالشرح تارة وباختصاره تارة أخرى ، فكثرت الشروح والمختصرات والحواشي والتقارير ، وتفاوتت قلة وكثرة من مذهب الى آخر ، ولقد شاع مع هذا انتصار كل فريق لمذهبه وتأيينه اما بجمع مناقب الأئمة ونشرها على الناس ، واما بتتبع مواضع الخلاف بين الأئمة والموازنة بين أدلتهم ونشأت بذلك كتب الخلافات ، التي تكلف فيها كل فريق لنصرة مذهبه ، وان أنصف بعضهم فأبرز ما صح دليله وارتضاه . وان خالف امامه ، كما شاع في هذا الدور تبعا لذلك الجدل والمناظرات ، لا سيما في العراق وخراسان ، وبين الشافعية والحنفية على الخصوص .

وبالاجمال فان فقهاء هذا الدور يعتبرون قد أكملوا مذاهب أئمتهم بما قاموا به من تعليل وتخريج للأحكام وبالإفتاء في المسائل التي لم يرد فيها نص عن الأئمة .

٦١ - المرحلة الثانية من الدور الرابع :

من سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ حتى سنة ١٢٨٦ هـ .

تعتبر هذه المرحلة أطول مرحلة في تاريخ مسيرة الفقه الاسلامي ، فقد اعتوره الضعف والركود ، بل والجمود اذا قيست بمعايير ما قبلها ، ففي المرحلة الأولى من هذا الدور برز كثير من العلماء الذين كرسوا جهودهم ، ووجهوا كل همهم الى تنمية الفقه بالتخريج والترجيح ، والاجتهاد فيما استجد في عصرهم من الوقعات ، أما هذه المرحلة فقد ركن علماءها الى التقليد المطلق ، وانصرفت هممتهم عن تلمس العلل وعن الاجتهاد والترجيح ، ومنعوا بالحفظ والاكتفاء بما ورثوه من فقه من قبلهم ، مع أنه كان بينهم من توهله قدرته العلمية لاقتفاء أثر السابقين من المجتهدين .

وقد أصبحت المؤلفات الفقهية - الا القليل - أواخر هذا العصر ، اختصاراً لما وجد من المؤلفات السابقة ، أو شرحاً لها ، وبهذا انحصر العمل الفقهي في ترويض ما سبق ، حتى حل الفكر العامي محل الفكر العلمي في أواخر هذه المرحلة . لدى كثير من متأخري رجال المذاهب الفقهية .

(١) مراحل التقليد والجمود :

لم يحدث الركود والجمود في حركة الفقه الاسلامي مرة واحدة ، بل وقع على مراحل :

فقد بدأت عوامل الفتور والتراجع تعترض الفقه منذ منتصف القرن الرابع الهجري ، ثم تلاشت في الأزمنة المتعاقبة ، فتدرج الأمر من اجتهاد مطلق ، الى اجتهاد في المذهب ، الى اجتهاد في الفتيا ، حتى توقف سيره .

ومنذ وفاة ابن جرير الطبري في سنة ٣١٠ هـ ، لم يبرز من العلماء من سميت به همته ، وامتدت قامته الى الاجتهاد المطلق ، بل بدأ الانغلاق على فقه المذاهب التي كانت قد دوت ، وأفتى علماء تلك المذاهب ، على رأس المائة الرابعة باغلاق باب الاجتهاد ، مدعين الاجماع على ذلك فسدوا بهذا مسالك التشريع ، وعوقوا النهوض به .

ولقد دأب العلماء في القرون الثلاثة التالية ، على مجرد التعليل والترجيح في المسائل المستحدثة التي لم تكن قد عرضت للأئمة السابقين .

ثم جاء سقوط بغداد في سنة ٦٥٦ هـ على يد قائده المغول ، هولاكو . فأضعف أمر المسلمين وأصابهم بالركود والتوقف العقلي ، وقد انعكس هذا على الفقهاء ، فقصرت هممتهم ، واقتصرت عملهم في مفتتح هذا العصر على تمييز القول القوي من القول الضعيف ، وما نقل عن السابقين وجاءت فئة من بعدهم ضاقت عليهم الدائرة ، فداروا في نطاق ما جمعوا وما حفظوا مقلدين لأئمة المذاهب المنقولة . غير متجاوزين نطاقها ، حتى أعلنوا : أنه لا يجوز لفقيه أن يختار ولا أن يرجح ، فحرموا على أنفسهم حتى مجرد النظر في الأدلة ثم الاختيار ، واشتغلوا بتقسيم الفقهاء الى طبقات تختلف باختلاف المذاهب مؤرخين لكل طبقة ، هو مفصل في كتب طبقات الفقهاء .

ولقد استجد في هذه المرحلة مصدر فقهي للعلماء غير المجتهدين ، هو ما نقل اليهم من أقوال وأحكام أئمة وعلماء المذاهب التي يقلدونها ، بل صار هذا المنقول اليهم هو مصدرهم الوحيد ، كما تردد في كتبهم وصار الاسناد والاستدلال بأقوال أولئك الأئمة ، وليس بنص قرآن أو سنة أو اجماع أو قياس وان وجد في بعض الأوقات من العلماء من لجأوا الى الاستظهار والأخذ والتفقه ، فواجهوا الأحداث ، وقرروا الأحكام على وجه يوحى بأن صنيعهم مثل لما

صنع المجتهدون الأولون من النظر في الكتاب وفي السنة ، ويبرز هذا واضحاً في العديد من المسائل التي واجهوها ومنها :

ما قالوا في شأن فقدان وقت صلاة العشاء الذي جر إليه الكلام عن المنطقة القريبة من القطب الشمالي ، وعن المواقيت الأخرى فيها للصلاة وسوم ، وبيع الوفاء والنزول عن الوظائف والمرتبات في الأوقاف نظير عوض ، وسان تصرفات الأصحاء في بلد نشأ فيه الوفاء ، وبشأن التلفيق في العبادة الواحدة والمعاملة الواحدة ، وبشأن الحكر وما يتعلق به ، وتناول القهوة المتخذة من شجرة البن ، والسوكرة أو السوكراته وضمنان ما يهلك من التجار ، واستعمال الطباقي (الدخان) تدخيناً وسعوطاً وامتضاً (١) .

(ب) أثر الجمود الفقهي في هذه المرحلة :

كان لتوقف نمو الفقه الإسلامي ، وقعوده عن التحرك ، ومسايرة الزمن في نهاية هذا الدور أن قصر عن سد حاجات الناس فيما طرأ عليهم من معاملات وأقضيه ، كما أدى هذا القصور إلى التعقيد في التأليف الأمر الذي تزايدت به العقبات أمام طلاب الفقه ، فرغب الناس عن الوقوف على أحكام الشريعة وانصرفوا عن العلم بها ، واتجهت الأفكار إلى القوانين الغربية الوضعية ، يأخذون منها ما يسد حاجتهم وينظم حياتهم سواء في الإدارة والقضاء والمعاملات والصلوات الدولية ، فانعزلت بذلك الشريعة الإسلامية عن حكم مسار الحياة ، بعد أن ظلت سائدة حاکمة عدة قرون .

وان كان في خلال هذا الليل قد سطعت بعض العقول في عصور متقاربة ، ومتفاوتة ، تدق ناقوس خطر الجمود على التقليد من أمثال الأئمة أبي العباس تقي الدين بن تيمية وأبي عبد الله ، شمس الدين بن قيم الجوزية ، وأبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي ، فكانت على أيديهم نوبات صحو من التقليد ، وعودة إلى المصادر الأصلية للشريعة على ما سيبين فيما بعد .

ولقد حفل هذا الدور بنوع من المؤلفات الفقهية ، تلك ، هي كتب الفتاوى ، حيث عني كثير من العلماء الذين تولوا الافتاء رسمياً من قبل الدولة في كافة أنحاء الأمة الإسلامية وكذلك من بلغوا من العلم مكانة جعلتهم مرجعاً للناس في العلم والفتوى ، كل أولئك أو الكثير منهم قد سجلوا فتاويهم في كتب خاصة ، ورتبوها في الأغلب على أبواب الفقه ، وهي تمثل ناحية التطبيق العمل في الفقه كما أنها مورد صالح للاعتراف منه ، وللوقوف على النصوص

(١) التعريف بالفقه الإسلامي ج١ موسوعة الفقه الإسلامي اعداد وطلبه المجلس الاعلى للشئون الإسلامية ص ٣٤ .

الفقهية المذهبية في الحوادث المتجددة في كل وقت ، وقد جرى على هذا النمط كثيرون من علماء ومفتي المذاهب في أخريات هذه المرحلة .

٦٢ - الدور الخامس :

من سنة ١٢٨٦ هـ - حتى الوقت الحاضر :

اجتاز الفقه الاسلامي في الأدوار الأربعة التي جرى فيها الحديث ، على نحو ما سبق وقد ظهر من تتبع خطواته انه تأسس على قواعده الكلية وأصوله العامة بوحى من الله سبحانه الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم جمعه القرآن الكريم والسنة النبوية التشريعية قولاً وفعلاً وتقريراً ، ثم جاء من بعد : دور البناء على هذه الأصول وتلك الأسس ثم دور النضج واستكمال مقوماته والارتفاع به على يد طائفة من الأئمة المجتهدين للخلصين الذين كان لهم من صدق العزيمة وقوة الايمان ، ونفاذ البصيرة ، وحرية التفكير المستنير ما مكن لهم من الوصول بالفقه الاسلامي الى غايته ، وذلك بحسن الفهم ، وقوة الادراك لأسرار النصوص الشرعية في الكتاب والسنة ، وتعرف مراميها ، والقدرة على مواجهة الاحداث والواقعات التي لم تكن فيمن كان قبلهم ، فاستبانوا حكمها فانزلوه عليها وصاغوا للناس تشريعاً وفقها سائغاً لم يرق الى مرتبته نظام قانوني من شرق أو من غرب للآن .

ثم جرت على هذه الشروة الفقهية ، أو مسيرة الفقه مايجرى على كل موجود في هذه الحياة من تعثر الخطى والتخلف عن مسايرة ركب الحياة المتجدد ، فالأمر الى جمود على التقليد وتمسك كل فريق من المسلمين بمذهب امام معين وليتهم فهموا فقه أئمة تلك المذاهب فقد كانت كلمتهم جميعاً تنهى عن التقليد للأعمى ، ولقد بلغ من وقوف حركة الفقه أن أنكر العلماء في أخريات الدور الرابع على الناس حق النظر في كتاب الله وسنة رسوله بل انهم حرموا على من قلده اماماً من الأئمة المجتهدين ان يترك مذهبه الى مذهب امام مجتهد آخر وحتى شاع في هذا العصر اطلاق كلمة النصوص الشرعية على أقوال الفقهاء فرفعوها الى مكانة ، لم يضعها فيها أصحابها .

٦٣ - الدعوة الى الإصلاح :

ولكن هذه الشريعة التي ارتضاها الله لعباده وجعلها خاتمة الشرائع ، قد هيا في كل العصور من يقيمها بين المسلمين فكانت الدعوة الى الإصلاح في فترات متعاقبة منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري ، وفي أقطار مختلفة من بلاد المسلمين .

فكان أن تعالت دعوات الإصلاح بعد طول رقاد وجمود ، وتنادى المسلمون

بالعمل بالشرعية ، بعد أن انحرفوا عنها ، وبالتخلي عن البدع التي لا أصل لها في دين الاسلام فكانت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب ، ودعوة السيد جمال الدين الأفغاني التي حملها من بعده الامام محمد عبده ، حتى أثمرت في الاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي ، وسار الركب حثيثا تارة ومتراخيا تارة أخرى ، ولكن الحلقات متصلة والرجاء قائم في استدامة الاصلاح التشريعي والقضائي والقانوني استمدادا من شريعة الله لتشمل بعدلها كل أقطار الاسلام .

٦٤ - أهداف الدعوة الإصلاحية :

استهدفت الدعوة الى الاصلاح أمورا ثلاثة :

الأول : الاقلاع عن التقليد والجمود على ما في كتب المذاهب الفقهية من أحكام ، والرجوع بالفقه الى مصادره الأولى : الكتاب والسنة وما قام عليهما من أدلة .

الثاني : استحداث كتب في الفقه تحوى الأحكام وأدلتها الصحيحة ، واستبعاد تلك الكتب الملعقة التي قامت على العصبية المذهبية دون تمحيص للأدلة ، والتي استنفدت جهود طلاب هذا العلم وطاقتهم وأخرت استفادتهم وأضاعت أوقاتهم دون فائدة .

الثالث : الاستفادة في هذه الدراسة من الفقه الاسلامي جميعه ، دون التقييد بمذهب معين في التقنين والقضاء ، باعتبار أن تلك المذاهب التي جرى عليها جمهور المسلمين ولارتضوها ترجع كلها الى أصل واحد ، وتصدر عن معين صاف هو كتاب الله وسنة رسوله وما تفرع منهما من أدلة ، فهي متساوية وليس من الحكمة بل ليس من الدين إلزام الناس باتباع واحد منها بذاته وهجر غيره ، بينما يكون في هذا الذي لم يعمل به سعة للناس ويسر لهم ، اذ الشريعة مبناها دفع الحرج والضرر (١) (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (٢) و (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

هذه الأهداف برزت وأثمرت نهضة فقهية في هذا الدور وكان لها مظهران :

الأول : بدء تقنين أحكام الفقه الاسلامي :

ونعنى بالتقنين جميع أحكام المسائل في كل باب ، وصياغتها في مواد منضبطة العبارة ، متتابعة ، ترتفع عن الخلافات ، وتقتصر في حكم كل مسألة

(١) من الآية ٧٨ سورة الحج .

(٢) من الآية ١٨٥ سورة البقرة .

على رأى يختاره المقتن ، اذا تعددت الآراء فى المسألة الواحدة لكى يجرى عليه العمل والقضاء .

والهدف من التقنين تحقيق أمرين :

(أ) توحيد الحكم فى المسائل التى تعددت فيها آراء الفقهاء ، وبهذا يتوقف اختلاف القضاء فى المسألة الواحدة ، التزاما بالرأى الذى جرى تقنينه ، فيرتفع اضطراب الأحكام وتناقضها وتنضبط التفسيرات ويسهل رد من أخطأ الفهم من القضاء .

(ب) تسهيل الرجوع الى الأحكام الفقهية على القضاء وغيرهم من المستغلين بالفقه والتشريع ، باعتبار أن مواد القانون تقسم تقسيما دقيقا فى فروع القانون وتنوع الى أبواب وفصول ، فى عبارة بعيدة عن التعقيد لاتقارن بتقسيمات وتعبيرات الكتب الفقهية المتداولة ، لا سيما المؤلفة منها فى أواخر الدور الرابع وكانت أول خطوة نحو التقنين بهذا المفهوم مجلة الأحكام العدلية التى صدرت فى سنة ١٢٩٣ هـ مقننة أحكام المعاملات من الفقه الحنفى ، ولزم العمل بها فى محاكم تركيا والبلاد التابعة لها . وكان إعدادها بمعرفة لجنة من العلماء استمرت فى الفترة من سنة ١٢٨٦ هـ الى ١٢٩٣ هـ (١٨٦٩ م - ١٨٧٦ م) وتحتوى على ١٨٥١ مادة تناولت بعد ايراد بعض القواعد العامة أحكام البيوع والاجارات والكفالة والحوالة والرهن والأمانات والهبة والغصب والاتلاف والحجر والشفعة والشركات والوكالة والصلح والابراء والاقرار والدعوى والبيانات والتحليف والقضاء .

٦٥ - عدم التقيد لمذهب معين فى قانون العائلات التركى :

وبعد ظهور المجلة مقننة من فقه المذهب الحنفى ، وأخذة ببعض الآراء غير الراجحة فيه ، رعاية لمصالح الناس وتيسيرا عليهم ، بعد هذا ، صدر فى تركيا أيضا سنة ١٣٢٦ هـ قانون العائلات ، الذى يختص بالزواج والفرقة ولم يلتزم فيه المقتن بالمذهب الحنفى ، بل تعداه الى فقه المذاهب الأخرى فى بعض المسائل كبطلان طلاق المكره ، وفساد زواجه .

٦٦ - التقنين من الفقه الاسلامى فى مصر :

وقت أن صدرت المجلة العدلية فى تركيا كانت مصر قد استقلت عن تبعية الدولة العثمانية ، واطهارا للانصلاح من هذه التبعية رفض الخديوى اسماعيل الأخذ فى مصر بقانون هذه المجلة ، واتجه مع مشرعيه الى القوانين الغربية خاصة القانون الفرنسى ، بحجة أن الفقه الاسلامى ، لا يفى بما تتطلبه الحياة العصرية من نظم وقوانين ، فقام قدرى باشا ، وهو أحد فقهاء ذلك العصر ، بوضع مجموعة

قانونية استمدها من فقه المذهب الحنفى ، مسترشداً فى هذا بمجلة الاحكام العدلية ، فكان من عمله هذا الكتاب المشهور : مرشد الحيران ، فى معرفة أحوال الانسان ، وهو مكون من ٩٤١ مادة خاص بالمعاملات وقد طبعته حكومة مصر فى سنة ١٨٩٠ م . ثم وضع أحكام الوقف فى كتابه المعروف باسم العدل والانصاف فى مشكلات الأوقاف . فى ٦٤٦ مادة وقد طبع سنة ١٨٩٣ م ، ثم قنن أحكام الأحوال الشخصية فى ٦٤٧ مادة . ولم يأخذ هذا العمل الصفة الرسمية فى الدولة ، لكنه صار مرجعاً مهماً ومرشداً وحظي عمله بتعليقات وشروح لاسيما قسم الأحوال الشخصية ، كما صار أصلاً لكل من تصدى للتقنين من الفقه الاسلامى فيما بعد .

٦٧ - خطوات التقنين الرسمى فى مصر من الفقه الاسلامى :

لقد جرى العمل فى قضاء الأحوال الشخصية فى مصر على الحكم بأرجح الاقوال فى فقه مذهب أبى حنيفة زمننا ليس بالقصير ، حتى جأر الناس بالشكوى من التقييد بفقه هذا المذهب ، لاسيما وفى غيره يسر وحل لمشكلات اجتماعية كثيرة ، وتيسيراً على الناس كونت الدولة لجنة من كبار العلماء فى سنة ١٩١٥م لوضع قانون لمسائل الأحوال الشخصية ، فأعدت مشروعاً بمسائل الزواج والطلاق مقتبساً من فقه المذاهب الأربعة ، وروجع غير مرة ، وتوقف صدوره لمعارضة بعض العلماء من هذه المذاهب ، ثم فى سنة ١٩٢٠ م صدر المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ ، كما صدر فى سنة ١٩٢٩ المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ م وقد انتظما أحكاماً من غير الفقه الحنفى فى شأن النفقة ، والعدة والزواج والطلاق والمهر ، والمفقود استمدت من فقه الأئمة مالك والشافعى وأحمد ، ثم كونت الدولة فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ لجنة أخرى قامت بوضع القوانين أرقام ٧٧ لسنة ١٩٤٣ بأحكام الموارث ، و ٤٨ لسنة ١٩٤٦ بأحكام الوقف ٧١ لسنة ١٩٤٦ بأحكام الوصية ، وقد استمدت هذه القوانين من المذاهب الأربعة ومن غيرها من المذاهب الأخرى وعلى سبيل المثال استحدث فى قانون الوصية القول بالوصية الواجبة للفرع غير الوارث استمداداً من فقه الظاهرية والاباضية كما أجاز الوصية للوارث فى حدود الثلث دون توقف على إجازة بقية الورثة أخذاً بفقه الاباضية وخروجاً على أقوال فقه الأئمة الأربعة فى هاتين المسألتين ، ثم صدر القانون رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ وتعديلاته بإلغاء الوقف على غير الخيرات (الأهلى) أخذاً بقول بعض الفقهاء القائلين بعدم لزوم الوقف ، ثم صدر القانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ م بتعديلات جوهرية فى بعض مسائل الأحوال الشخصية أخذاً بالمصالح المرسله ، وتخريجاً على أقوال بعض فقهاء المذاهب ، دون التقييد بواحد معين فأجاز للزوجة طلب الطلاق اذا تزوج زوجها بأخرى دون رضاها ، ويسقط حقها بمضى سنة على تاريخ علمها بهذا الزواج وبرضاها به ، كما أجاز للزوجة العمل باذن الزوج وأسقط حقه فى سحب

هذا الاذن وجعل الفصل فى سحبہ للقاضى بشروط وقواعد بينها ، وأوجب المتعة للزوجة المطلقة بعد الدخول بغير رضاها آخذاً فى هذا بمذهب الشافعى الجديد فى مصر ، وغير هذا من المسائل التى عرض لها هذا القانون ، اما باختيار قول فى فقه المذهب الحنفى ، أو باختيار حكم من فقه مذهب آخر .

ومما يجدر ذكره أن هناك مشروع قانون شامل لمسائل الأحوال الشخصية جمع المسائل التى قننت قبلاً ، وما لم يقنن أعدته لجنة كونتها الدولة ظلت تعمل عدة سنوات ورأسها للمرحوم الشيخ محمد فرج السنهورى وزير الأوقاف الأسبق ولما يسلك طريقه التشريعى كاملاً للآن ، وإن أخذ منه القانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ سالف الذكر بعض الأحكام .

٦٨ - المظهر الثانى من مظاهر الفقه الإسلامى فى هذا الدور :

دراسة المذاهب الفقهية الكبرى ، والفقه المقارن :

كان من آثار الدور الرابع الفقهى أن انتحل أكثر الحكام مذهباً معيناً فرضه على الناس فى بلده ، وأوجب الأخذ به فى القضاء والفتوى ، بل واقتصرت الدراسة على المذهب الذى اختاره الحاكم ، كما فعل الفاطميون بمصر حين قصروا الدراسة فى الأزهر عند انشائه على مذهب الشيعة ، وكما فعل الأيوبيون من بعدهم على قصر الدراسة فى الأزهر على المذاهب الأربعة مستبعدة غيرها ، وهكذا فعل غير هؤلاء وأولئك فى كثير من أقطار العالم الإسلامى ، الأمر الذى أدى الى الجهل بكثير من الآراء الفقهية التى قال بها رجال المذاهب الأخرى

وفى هذا الدور تخلصت أغلب الشعوب الإسلامية من هذا ، فأصبحت الدراسة شاملة لفقه المذاهب المشهورة سواء فى الأزهر وغيره ، وهذا ولاشك قد وضع أمام الدارسين عديداً من الآراء المختلفة التى تنمى معارفهم وتوسع مداركهم ، وتثبت فيهم ملكات فقهية تستطيع أن ترجع وأن تختار .

واتجهت الدراسة كذلك الى جوهر العلم الفقهى ولبه ، مستوعبة أدلته وعلل الأحكام ومآخذها ، الأمر الذى يمكن الدارسين من المقارنة بين الآراء المختلفة دون تعصب لمذهب معين بل ان الاعتبار فى هذه الدراسة لقوة الدليل ، وصدق الحجة ، مع الأخذ بالأسر ، والأصلح للناس وكما تجرى هذه الدراسة المقارنة بين فقه المذاهب الإسلامية ، تجرى كذلك بين هذه وبين القوانين الوضعية - وذلك لتبيان فضل الأحكام المستمدة من الشريعة الإسلامية على غيرها من الأحكام الموضوعية تارة وبيان توافقها تارة أخرى ، لاسيما والفقه الإسلامى غنى بقواعده العامة التى هى ضوابط وأصول فقهية تراعى فى تخريج الأحكام على الحوادث .

وقد اتجه العلماء فى تجديد دراساتهم للفقه الإسلامى الى الكشف عما احتواه

من نظريات عامة ، وأفكار قانونية لم يسبق إليها ، كنظرية الحق والمال ، والملك ، والعقد ، والتعسف في استعمال الحق وغير ذلك (١) .

٦٩ - فكرة التقنين أو جمع الناس على مذهب واحد أيهما أسبق وأيها أحق ؟ :

حين نتصفح خطوات التشريع الاسلامي وتطورات حركة الفقه بين التقدم والتضوج ثم التوقف ينبغي أن نشير الى ما طالعناه حول فكرة جمع الناس والزامهم بمذهب معين ، وهل هي الأنفع أو أن التقنين على النحو الجارى في عصرنا أولى وأحق ؟ .

ففي رسالة عبد الله بن المقفع المسماة (رسالة الصحابة) الى الخليفة المنصور العباسي ، حين رأى ابن المقفع اختلاف القضاة المجتهدين اذ ذاك ، وكيف أن الأمر للواحد يقضى فيه أحد القضاة برأى ، ويقضى غيره في نظيره بخلافه ، في الأموال والأنكحة وغيرها ، كتب الى المنصور في هذا وما جاء في خطابه .

(١٠٠) فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية ، والسنة المختلفة ، فترفع اليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويعزم له عليه ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا عزا ، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ ، حكما واحدا صوابا ، ورجونا أن يكون اجتماع السيرة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه (٢) .

هذه الفكرة توحى بتوحيد الرأي فيما اختلف فيه القضاة من الحقوق ، ولكن المنصور لم يأخذ بها ومع هذا فقد عزم هو ، ومن بعده الرشيد على أن يحمل الناس على مذهب الامام مالك وعلى كتابه الموطأ ، ويجعلهما قانونا قضائيا للدولة العباسية ، فلم يوافقهما الامام مالك ، بل ونهاهما قائلا : (ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيب) .

ولقد ظهرت فكرة حمل الناس على مذهب واحد مرة أخرى في القرن

(١) في هذا : الالتزامات وما يتعلق بها من أحكام ، والتزام التبرعات ، والحق ورأى فقهاء الشريعة الاسلامية فيه من حيث اطلاقه وتقيده ، كل هذه للمرحوم الشيخ أحمد ابراهيم بك ، والملكية ونظرية العقد للمرحوم الشيخ محمد أبو زهره ، ومصادر الحق في الفقه الاسلامي للمرحوم الدكتور عبد الرازق السنهوري والنظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الاسلامية للدكتور صبحي المحصاني والنظرية العامة في الشريعة الاسلامية للدكتور شفيق شحانة والحق والدين للمرحوم الشيخ علي الخفيف ونظرية الالتزامات العامة في الفقه الاسلامي ، في الحق ، والالتزام ، والأحوال والأشخاص للدكتور مصطفى أحمد الزرقا .

(٢) المجلد الاول من المدخل الفقهي العام للدكتور مصطفى الزرقا هامش ص ١٥٤ ، ١٥٥

الحادى عشر الهجرى (١٠٣٨ - ١١١٨ هـ) حين جمع أخذ ملوك الهند المسلمين هو السلطان محمد عالم كير . مشاهير علماء الهند فوضعوا كتابا جامعا لظاهر الروايات التى اتفق عليها فى فقه المذهب الحنفى سعى بالفتاوى الهندية ، وتم تنفيذ فكرة التقنين لأول مرة فى تركيا سنة ١٢٩٣ هـ بظهور مجلة الأحكام العدلية ، ثم قانون العائلة ، ثم التقنين فى مصر على نحو ما تقدم بيان خطواته . ومن هذا نرى أن ما افترحه عبد الله بن المقفع على الخليفة المنصور ، لم يكن اقتراحا بقانون على النمط الذى نألفه الآن فى صياغة القوانين ، وانما كان محاولة لحسم مسائل تختلف القضاة ، والفقهاء فى أحكامها لأنها موضع اجتهد .

كما أن ما اعتزمه وهم به كل من المنصور والرشيد من حمل الناس على مذهب الإمام مالك وكتابه الموطأ ، لم يكن الا عزمًا على الالتزام بمذهب هذا الإمام ، ولكنهما توقفا حين نصحهما مالك ، وأبان لهما أن علم الشريعة وفقهها وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تفرق أصحابه بكل ذلك فى الأقطار والأمصاف فلدى كل ، علم وسنة ، فلم يكن ما اعتزمه هذان الخليفان اتجاها لتقنين الأحكام تقنيننا كالمصطلح عليه فى عصرنا الحالى . على أن ما اتجه اليه الفكر فى البلاد الإسلامية من الاتجاه الى الفقه الإسلامى جميعه ، للاستفادة من آراء شتى المذاهب ، سواء منها ما انتشر وجرى عمل الناس عليه ، أو ما اندثر واستقرت أقوال أئمتته وفقهائه فى بطون الكتب ، والأخذ من هذا وذاك ، مما أنتجته قرائح الجميع من آراء ونظريات ، وأصول وقواعد ، اجتمعت فى فقه خصب ، اذ قد يضيق المذهب الواحد عن الوفاء بحاجة المجتمع الإسلامى على اختلاف مواقعه فى أرض المسلمين ويمكن تمحيص ما حفل به هذا الفقه ، وتمييز الطيب من الخبيث ، لا سيما بعد أن جمعت السنة ، وصار معلوما الصحيح والعليل ، واستقرت علوم القرآن والحديث بحيث يجد فيها الباحثون ما يبتغون ، وبهذا التمهيد ، يتيسر الأخذ من قواعد وأحكام كل مذهب ما يظهر انه الالىق بالمصالح الزمنية والمكانية للمسلمين ، لا سيما بعد أن نفذت هذه الطريقة فى بعض قوانين الأحوال الشخصية التى صدرت فعلا فى أقطار متعددة من بلاد الاسلام بدءا بقانون حقوق العائلة الصادر فى تركيا ، وانتهاء بالقانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ الصادر فى جمهورية مصر العربية ، اذ لم تنقيد هذه القوانين بمذهب معين ، بل اتخذت المذاهب الإسلامية المعتبرة ، التى نقلت أحكام فقهها بطرق موثوقة ، مصدرا لما شرعت من أحكام ، عالجت بها أمور اجتماعية وقف دون حلها فقه المذهب الواحد الذى كان سائدا كقانون هنا وهناك .

وبذلك اعتبرت مجموعة المذاهب الفقهية كمذهب واحد كبير فى شريعة الاسلام ، واعتبر كل مذهب كالأراء والروايات فى المذهب الواحد ، وبهذا الاعتبار ترتفع القيود وتمحى الحدود المصنوعة التى أحاط بها كل فريق مذهبه ، ويكون للعلماء حق الترجيح واختيار الأقوال التى يرون المصلحة فى تقنينها للعمل بها

فى القضاء والفتوى وكل فروع القانون التى تستند عليها مقتضيات المصلحة والحاجة الزمنية (١) .

٧٠ - قبول الفقه الاسلامى للتطور :

من هذه المراحل المتتابعة فى مسيرة فقه الاسلام نخلص أنه قد استوى على عوده ، واستقام على طريقته طوال هذه الحقبة من الزمان ، حيا ، نابضا ، وان غفى فى بعض منعطفات مسيرته ، لا لعلل ذاتية تستوقفه ، وانما لضعف حملته وتفريقهم ، شيئا وأحزابا ، فكان كل حزب بما لديهم فرحون ، اذ هذا الفقه تنوء به العصبية أولو القوة ، فما بالناس ، بمن تفرق جمعهم ، وتمايلات أعناقهم ، فأودعوه صدورهم لفظا بغير فهم ، أو نصا بغير فقه بغايته ولا بمقصده ولا بمؤداه .

وفقه الاسلام مع كل هذا قد استمد خلوده من أساسين ، لم يحفظ بهما أى فقه سابق عليه ، أو معاصر له :

الأمر الأول :

أن له أصولا ثابتة وقواعد كلية ، ونصوصا عامة قد أحاطت بما ينظم مسيرة الحياة الانسانية ، ويضمن لها الصلاح والاستقامة ، أفرادا ، وجماعات ، فى شئون الدين ، وأمور الدنيا ، وذلك هو ما استهدفته وقصده اليه شرائع الله سبحانه منذ بدء الرسالات وانتهاء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته الخاتمة ، بل ان القوانين الوضعية تسعى الى هذه الغاية ، ولكن أنى لها بلوغها ؟ وهى من صناعة البشر الذين قصرت مداركهم ، وتوزعتهم الأهواء والشهوات .

أما فقه الاسلام ، فمصدره : (ان هو الا وحى يوحى ٠٠) من لدن حكيم خبير الله الذى يعلم كل شئ : (ألا يعلم من خلق) .

الأمر الثانى :

أن فى أصول الفقه الاسلامى من المرونة والصلاحية ما يجعله قابلا للتطور ومواجهة مطالب الحياة ، وكل جديد فى حياة الناس ، وأحوال الأمم المختلفة مع تغير الأزمنة والأمكنة .

ووسيلة التطور وملاحقة الواقع فى هذا الفقه هى الاجتهاد الصحيح

(١) المرجع السابق ص ١٨٨ و ١٨٩ بند ٨٤ والفقه الاسلامى مدخل لدراسة نظام المعاملات فيه للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٩٧ - ٢٠٦ .

القائم على الإدراك العميق لأسرار الشريعة ومراميها ، والفهم الدقيق المستنير لعلل الأحكام وحكمة التشريع ، والاستناد إلى طرق الاستنباط المعتمدة ، والاحاطة بهذه الطرق ، شريطة أن يقع الاجتهاد ممن تأهل له ، وتمكن من تحصيل أدواته .
ذلك لأن النصوص الوفيرة في القرآن وفي السنة قد جاءت مراعية لمصالح الناس ، رافعة للحرَج ، هادفة إلى النفع ماحية لأسباب الضرر والضرار .

فتح (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم باب الاجتهاد بنفسه ، فألحق الفروع بأصولها ، وربط الأشياء بأشباهها ونظائرها ، وجمع بين المتماثلات ، وفرق بين المختلفات ، مبينا في كل ذلك مقاصد التشريع في علل الأحكام ومن بعده جرى الصحابة (٢) على نهجه ، فيما جد من واقعات لم يكن لهم بها عهد كأنواع المعاملات التي وجدوها خارج جزيرة العرب ، ونظم الحرب وقواعد السلم ، ونظام الأراضي المفتوحة وتنظيم الجيوش وتدوين الدواوين ، ونظم الري ، حيث وضعوا لكل ذلك الأحكام المستندة إلى أصول الاسلام ، الموافقة لمقاصد وأهداف شريعته . هذا : ولم يكن اجتهاد الصحابة من بعد الرسول في كل شيء ، بل كانت لهم حدود لا يتجاوزونها لأنهم بالاستقراء علموا : أن من الأحكام الشرعية ما ثبت بنص قطعي الثبوت والدلالة ، ومنها ما ثبت بنص ظني الثبوت أو الدلالة أو هما معا ، ومنها ما أجمع عليه المسلمون ، أو علم من الدين بالضرورة ، وليس كل ذلك محلا للاجتهاد ، بل منها ما يجوز الاجتهاد فيه ، ومنها ما يمتنع الاجتهاد فيه ، وقد اتبعوا في التفرقة بين هذا وذاك ، ما تعلموه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقر في قلوبهم ، ولم يكن الاجتهاد في مواطنه جدلا ، غفلا ، من القصد وإنما كان ابتغاء الوصول إلى حكم ينتسب إلى القرآن أو السنة أو هما معا بنسب أو سبب .

ولقد استقرأ الفقهاء ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقهاء الصحابة في مواطن الاجتهاد وانتهوا إلى تقرير أن الاجتهاد لابد وأن يتوافر فيمن يتصدى له :

تحصيل العلوم الشرعية واللغوية زمنا طويلا ، حتى تتكون لديه ملكة خاصة تمكنه من القدرة على الاستنباط وفهم الأدلة الشرعية .

(١) كتاب اجتهاد الرسول للمرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية حيث أورد أقوال العلماء في جواز اجتهاد الأنبياء أو عدم جواز ذلك منهم ، ثم ساق مثلا من اجتهادهم . ثم مثلا من اجتهاد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في وافعات متنوعة دينية ودنيوية .

(٢) على سبيل المثال اجتهاد أبي بكر في قتال مانى الزكاة - صحيح البخار - ج ٨ ص ١٣٢ في باب الاقتداء بسنن رسول الله وج ٥ ص ٧٦ و ٧٧ في غزوة خيبر من كتاب المغازي والأموال لأبي عبيد بالصحف ١٩٦ - ١٩٨ و ٢٦٢ - ٢٦٤ وزاد المعاد لابن القيم ج ٧ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

وهذا يعنى أن الاجتهاد ليس فى استطاعة كل الناس . وفى حياتنا العملية ما يفسر ذلك اذ لايجوز فى منطق العقل والعادة ان يداوى المرضى ويحترف الطب من لم يتأهل له بعلم وبتجربة ، ولا أن يحترف انسان صناعة ما ، لم تتوافر لديه خبرة بها واكتسب أدواتها . وتلك منة من الله سبحانه حين وجه الى تخصص طائفة للتحقق فى الدين وتولى أمر الفتوى فيه فقال (١) : (٠٠ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ٠٠) وأرشد الله كذلك الى توجيه السؤال الى أهل البصر بجوابه فقال (٢) : (فأسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) .

وبهذا الذى تقدم كان الفقه الاسلامى ، قابلا ، قبولاً ذاتياً لمواكبة ركب حياة الانسان وتطوره ، اذ ان نشاطه ، وامتداد ساحته فى التطبيق رهين بقدرة حملته ، وعمق استيعابهم لقواعده ومقوماته ، ومقاصده حتى يحقق غايته وما يستهدف منه .

٧١ - غاية الفقه الاسلامى :

هى ما تعينه الشرائع السماوية ، اذ تنطق كتبها - كما حكى القرآن الكريم - بانها جاءت لخير الانسان وسعادته فى معاشه الدنيوي . وبمعاده الأخرى . وهذا ما نراه ماثلاً فى جملة ما فرضه الاسلام ، ودعا اليه ، أو نهى عنه ، سواء فى العبادات التى هدفت الى تهذيب الفرد ، وغرس الفضائل فيه ، بغية صلاح المجتمع ، الذى يتكون من الافراد . والبعد به عن نوازع الشر والفساد . وفى المعاملات أباح الاسلام كل ما فيه اقامة المجتمع على أسس صالحة ، بتحقيق السعادة فى إطار الافراد والجماعة وحرم ما يؤدى الى الافساد ، ويخل بتنظيم المجتمع ، فما كانت شريعة الله الا أمرة دائماً بكل ما يجلب المصالح ، ويمنع المفاسد ، سواء فى ذلك أمور الدين والدنيا .

أما القوانين الوضعية فقد اقتصر مهمتها على تنظيم العلاقات الظاهرة بين الناس دون نظر الى مثل أو قيم أخلاقية أو دينية ، فقد ينظم القانون الزنا ، وشرب الخمر ولعب القمار والمراهنة ، والربا وغير هذا مما يجاوز قواعد الدين والأخلاق وكانت عاقبة أمره هذا خسران .

وبهذا كانت لفقه الاسلام تقسيمات وخصائص يعلو بها دائماً فوق الأنظمة القانونية السابقة له والمعاصرة :

(١) من الآية ١٢٢ سورة التوبة .

(٢) من الآية ٧ سورة الانبياء .

